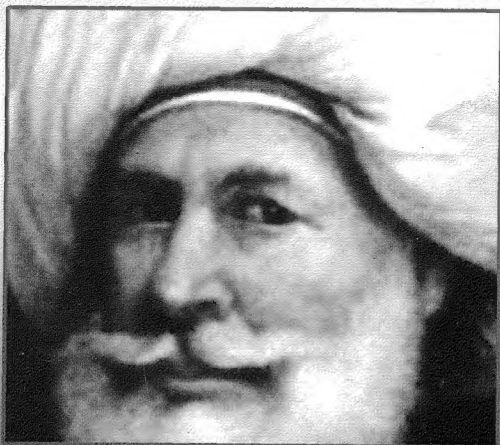


الجمعة التوفيقية
فخ تاريخ مؤسس العائلة الفخمية



تأليف: محمد فريد بك
تحرير ودراسة: د. أحمد زكريا الشلق

البحرنة التوفيقية
فج تاريخ مؤسس العائلة الخديوية

البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الفيديوية

تأليف: محمد فريد بك

تحرير ودراسة: د. أحمد زكريا الشلق

الطبعة الثانية

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة

(١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م)

المهنة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. محمد صابر عروب

محمد فريد ، بك ، 1868 - 1919 .

البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة
الخدوية/ محمد فريد «بك»؛ دراسة وتحرير أحمد زكريا
الخلق - ط 2 - . القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ،
2005 .

261 ص ؛ 24 سم .

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية .

تدمك 0 - 0420 - 18 - 977

٩٦٢ ، ٠٢١

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٨٧٤/٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 18 - 0420 - 0

محمد فريد وكتابه عن محمد على
"البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية"

دراسة
د. أحمد زكريا الشلق

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد فريد وكتابه عن محمد علي

"البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية"

سيرة دالة:

نود في البداية أن نشير إلى أن حياة مؤلفنا معروفة بما فيه الكفاية فهو الزعيم الوطني الكبير محمد فريد (١٨٦٨-١٩١٩)، رفيق مصطفى كامل وخليفته في قيادة الحزب الوطني المصري في العقدين الأولين من القرن العشرين، لكننا لا نرى بأساً من عرض مركز لحقائقها الأساسية بقصد إجلاء الظروف التي وضع فيها محمد فريد هذا الكتاب، مما يفسر الكثير من آرائه واجتهاداته بشأن الكثير من الأحداث خلال هذه المرحلة من حياته، ويكفي أن نشير في البداية أنه وضع هذا الكتاب عن محمد علي وهو موظف كبير في الجهاز الإداري لدولة يحكمها حفيد محمد علي، كما أنه نَسَب إسم الكتاب إلى توفيق "البهجة التوفيقية" وهو يؤرخ لمؤسس "العائلة الخديوية".

وقد ولد مؤلفنا في يناير ١٨٦٨ لأب ميسور من كبار رجال مصر، كان ناظراً للدائرة السنية، هو أحمد فريد باشا، الذي ينتمي لأسرة من أصول تركية وفدت إلى مصر خلال سني الفتح العثماني لها، وظل أرباب هذه الأسرة يتوارثون وظيفة "كتابة العملة" التي كانت من أرفع وظائف الحكومة آنذاك، وقد تلقى والده تعليمه في المدارس التي أنشئت في عهد محمد علي وخاصة المدارس الحربية، ثم تقلب في وظائف الإدارة العليا، فصولى منصب المدير لمديريات عديدة، حتى صار ناظراً للدائرة السنية (١٨٨٦-١٨٩٤) خلال عهود حكام مصر من أسرة محمد علي، كما بلغ مكانة اجتماعية وسياسية عالية جعلت الخديوى عباس حلمي الثاني يستعين به في حل بعض الأزمات، وإن قدر له أن يحال إلى المعاش عام ١٨٩٤ عندما اتجهت الحكومة إلى بيع أملاك الدائرة

السنية لشركة أجنبية دون الوطنيين الذين عرضوا شراءها بثمن أكبر، ويشير الراجح، ربما بقدر من المبالغة إلى انتقاد ناظر الدائرة لمسلك الحكومة وتضحيتة بوظيفته.

وهكذا نشأ محمد فريد في أسرة يدين عائلها لحمد على بتعليمه الحديث ووظائفه التي تدرج فيها في عهد خلفائه، كما يدين لهؤلاء بتلك المكانة الاجتماعية المرموقة التي احتازها، مما وفر له حياة كريمة أتاحت له أن يدفع بابنه إلى المدارس الأميرية، فمدرسة الحقوق، التي كانت تسمى مدرسة الإدارة آنذاك، حيث حاز شهادتها عام ١٨٨٧، وهو دون العشرين، ليبدأ حياة الوظيفة مترجماً بقلم قضايا الدائرة السنية، في نفس العام بدعم من والده بطبيعة الحال، الذي كان ناظراً للدائرة السنية كما أشرنا، ثم يصبح وكيلاً لنفس القلم في العام التالي، ولينعم عليه الخديوي عباس حلمي برتبة البكوية عام ١٨٩١. أي بعد عام من إصدار كتابه الذي بين أيدينا "البهجة التوفيقية".

وقد انتقل محمد فريد من وظائف الدائرة السنية إلى وظائف النيابة العمومية مساعداً للنياية، فخدم في محكمة مصر الابتدائية، فنيابة الأزبكية، فوكيلاً للنياية من الدرجة الثالثة عام ١٨٩٣، ثم وكيلاً لنياية الاستئناف عام ١٨٩٥، وأظهر كفاية ومقدرة عالية أهلته لأعلى مناصبه الدولة، لولا أنه آثر الجهاد الوطني على الوظيفة وقيوده، فاستقال منها عندما أبدى تعاطفاً وطنياً ضد الحكومة وسلطات الاحتلال، عندما رفعت الحكومة قضية ضد الشيخ على يوسف وصحيفة المؤيد - لسان حال الوطنيين آنئذ - وكذلك ضد أحد موظفي مكتب تلغراف الأزبكية، لنشرهما تلغرافات سرية للورد كتشتر تتعلق بما يلقاه الجيش المصري من متاعب صحية خلال حملة دنقلة، مما اعتبرته الحكومة إفشاء لأسرارها. ولما كان محمد فريد قد شهد نظر هذه القضية وجاهر، وهو وكيل نياية بالإستئناف، بتعاطفه مع صاحب المؤيد ويموله الوطنية. وبمعارضته لسلطات الاحتلال وسياساتها، فقد أوعزت هذه السلطات إلى الحكومة لنقله إلى

الوجه القبلى، فلم يقبل ذلك واعتبره مساساً باستقلال القضاء وإهانة لشخصه،
وقدم استقالته التى قبلت على الفور عام ١٨٩٦.^(١)

وربما كان محمد فريد مدفوعاً فى التعبير عن مشاعره الوطنية، إلى جانب
حسه الوطنى الخاص، بتلك الموجة التى سرت بين الشباب المتعلم آنذاك، والتى
شجعها الخديوى الشاب عباس حلمى الذى تولى الحكم فى بداية عام ١٨٩٢
وأراد أن يلعب دوراً وطنياً، وجمع الشباب حوله، وكان مصطفى كامل ولطفى
السيد ومحمد فريد فى طليعتهم، وجعل ينفق على جمعياتهم السرية، ويرسل
بعضهم إلى أوروبا للدعاية للقضية الوطنية، فضلاً عن تمويل صحفهم كما هو
معروف، غير أن المعتمد السياسى البريطانى اللورد كرومر تصدى له وأثار فى
وجهه عدة أزمات انتهت بالخديوى الشاب إلى إلقاء السلاح والإبتعاد عن
الحركة الوطنية والرضوخ لسياسة الإحتلال.^(٢)

ويسجل لنا عبد الرحمن الرافعى بداية نضوج الشعور الوطنى لدى محمد
فريد، فيذكر أن ميوله الوطنية بدت عليه منذ حصوله على شهادة الحقوق واتجه
إلى خدمة الوطن بالكتابة والتأليف، ساعده على ذلك سعة ثقافته وشغفه
بالإطلاع وإجادته الكتابة باللغتين العربية والفرنسية، كما أنه كان يرأسل
الصحف وينشر فيها مقالاته، وخاصة مجلة الآداب للشيخ على يوسف خلال
عامى ١٨٨٧-١٨٨٨، بينما كان والده يخشى عليه من الإشتغال بالصحافة
والسياسة خوفاً من أذى الانجليز والحكومة، وربما لأنه كان يعده لإنتقاء وظائف
الدولة.^(٣) واستكمالاً لمسيرته ينبغى الإشارة إلى أنه انجذب، ككثير من مثقفى
عصره إلى الحركة الماسونية وتنظيماتها فى مصر، مأخوذاً ببريق أفكارها الظاهرة،
فانضم إلى "محفل النيل" فى أواخر عام ١٨٩٢، كما كان عضواً فى الجمعية
الجغرافية، فضلاً عن عضويته النشطة فى الجمعية الخيرية الإسلامية.

لقد كان محمد فريد يميل بطبعه إلى التحرر من قيود الوظائف والنصاب
الحكومية، وقد كشفت تعليقاته على مذكراته عن تاريخ مصر التى سجلها منذ

عام ١٨٩١ عن ذلك، حيث كان ينسب إلى كبار الموظفين مبالاة سلطات الاحتلال وتأييد سياساتهم، ولعله كان يتوق إلى فرصة مناسبة ليحرر نفسه من تلك القيود وينطلق إلى ميدان الجهاد الوطني، وقد قُيأت له الفرصة في أعقاب "حادثة التلغرافات" المشار إليها، والتي أدت إلى إستقالته من وظائف الحكومة عام ١٨٩٦، فتنحى من قيود الوظيفة وبدأ يشغل بالعامه منذ عام ١٨٩٧، ويروى فريد في مذكراته أنه بعد أن قدم إستقالته من وظيفته في نوفمبر عام ١٨٩٦ أصدر الخديوي عباس حلمي أمراً في مايو عام ١٨٩٧ بتعيينه في وظيفة مستشار لقلم قضايا الأوقاف، غير أن السلطات البريطانية اعترضت على ذلك، وأرسل اللورد كرومر احتجاجاً على ذلك إلى رئيس الوزراء مصطفى فهمي باشا، مدعياً أن هذا التعيين، مع اشتها فريد بمعاودة الإنجليز ومجاهرتهم بذلك، يشجعه على انتهاج هذا السلوك ويشجع غيره على ذلك، ونجحت السلطات البريطانية في تعطيل أمر الخديوي.^(٤)

قيد محمد فريد اسمه في جداول الخامين أمام المحكمه الأهلية، ثم المحاكم المختلطة، ولبث يعمل في الخامة لسبع سنوات، رأى بعدها أمّا تصرفه عن الجهاد الوطني، فاعتزلها عام ١٩٠٤ بعد أن كانت صلته بالزعيم قد توثقت منذ عام ١٨٩٦ - وإن كان الرفض يرجع بدايتها إلى عام ١٨٩٣ - وذكر فريد آنذاك إنه أراد أن يخصص من وقته "المقدار الكافي لخدمة بلادى وأبناء وطنى خدمة أعم وأنفع" فبدأ نشاطاً واسعاً في الحركة الوطنية المصرية، توج بالمشاركة في تأسيس الحزب الوطنى مع مصطفى كامل الذى كان أكبر حزب جماهيرى عام ١٩٠٧، حيث صار وكيلاً للحزب، فترسماً له منذ فبراير عام ١٩٠٨ في أعقاب وفاة مصطفى كامل.

ورغم ذلك عاد محمد فريد للإشتغال بالعامه مرة أخرى عام ١٩١١، عقب خروجه من السجن بعد أن ظل رهينه ستة أشهر حكم عليه بها في قضية بسبب كتابته مقدمة لديوان "وطيق" للشيخ على الغاياتى، ورغم أنه أراد بعودته إلى

الحاماة تعويض بعض خسائره المالية نتيجة جهاده المتواصل، إلا إنه لم يستمر طويلاً لكثرة مشاغله الوطنية، التي لم تترك له مجالاً للتوفر على هذه المهنة. ولما سافر لحضور مؤتمر السلام بأوروبا في سبتمبر عام ١٩١١، انتهز هذه الفرصة للتقليل بين مختلف الدول الأوروبية للدعاية للقضية المصرية، وعندما عاد إلى مكتبه في منتصف نوفمبر من نفس العام، لم يلبث أن حوكم للمرة الثانية على أثر خطبة ألقاها في المؤتمر السنوي للحزب الوطني في مارس عام ١٩١٢ اعتبرتها الحكومة تحريضاً على كراهيتها، وقدمته للمحاكمة تقييداً لسجنه مرة أخرى، لذلك قرر الهجرة من مصر في نفس الشهر قبل أن تصدر الحكومة أوامرها بالقبض عليه وسجنه، ليبدأ في الخارج مرحلة جديدة من مراحل جهاده الوطني، سواء من عاصمة دولة الخلافة أو من عواصم الدول الأوروبية، داعياً لإستقلال وطنه، حتى توفي غريباً ببرلين في نوفمبر عام ١٩١٩، بعد أن سجل صفحات ناصعة في تاريخ الحركة الوطنية المصرية ومقاومة الإحتلال البريطاني، وقد حظى دوره بمؤلفات حزبية وعلمية لها قدرها، أرخت لنضاله الوطني سراً وعلانية، داخل مصر وخارجها كما هو معروف.

* * *

ينبغي الإشارة إلى أن محمد فريد ولد عام ١٨٦٨ وأن مصر احتلت من الإنجليز وهو في الرابعة عشرة من عمره، حيث لم يكن وعيه السياسي قد تشكل تماماً ونضج، ولأن والده كان يعمل في خدمة الخديوى، فمن الطبيعي أن يكون حريصاً على إبعاده عن العمل بالصحافة والسياسة، ليؤمن لمستقبله حياة رغدة وهادئة. كما نلاحظ أن فريداً ألف كتابه هذا عام ١٨٩٠، وهو في نحو الثانية والعشرين من عمره، مما يدل على اتجاهاته الثقافية والفكرية في هذه المرحلة من حياته، في الوقت الذي كان فيه، هو ووالده، يحتازان مراكز مرموقة في الحكومة المصرية مما جعلهما جزءاً من الصفوة الاجتماعية والسياسية آنذاك. فلم يكن فريد حتى بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر قد انجذب إلى تلك الموجة الجديدة الناشئة من موجات الحركة الوطنية المصرية وهي الوجهة التي ظهرت

خلال عهد الإحتلال البريطاني كرد فعل لسياساته ومظالمه. والتي اغرط فيها فريد فيما بعد، وصار أحد زعمائها الكبار.

ولعل ما سبق يوضح كيف أن محمد فريد في بداية اكتمال وعيه السياسى كان معتدلاً أقرب إلى الإتجاه الذى مثله الإمام محمد عبده وأصدقاءه وتلاميذه فى فترة ما بعد الإحتلال، ذلك الإتجاه الذى نظر، بواقعية من وجهة نظر أصحابه، إلى وجود الإحتلال وسياساته ووجوب تقبل إصلاحاته ومساعدة الإنجليز حتى تصبح مصر أهلاً للإستقلال والتقدم.. ويفسر هذا ما كتبه فريد فى مذكراته فى يناير ١٨٩١، عندما أراد أن يسجل تاريخاً لمصر منذ ذلك العام، معبراً عن إشاداته بسياسة الإنجليز المالية والإقتصادية، بل إنه بالغ فى هذا الإتجاه حين سجل أن الإنجليز لم يأتوا، حتى الآن، ما يوجب كراهاتنا لهم، وأنهم يعاملون الأهالى بالرفق والدعة، وأضاف أن حب الوطن يلزمنا متى خرجهم من مصرنا العزيزة، دون عودتها إلى الدولة العثمانية، كما سجل، بدون هبالاة، أن مصر محتاجة لمساعدة الإنجليز مدة لا تقل عن خمسة عشرة سنة لتبلغ شأوها من التقدم والتمدن فى سبيل المعارف، وعندئذ يمكنها أن تدبر أحوالها بنفسها.

لقد كان فريد خلال هذه المرحلة من حياته - أى حتى مطلع التسعينيات، يرى أن الإحتلال الإنجليزى أمر واقع حتمته الظروف، وأن على المصريين أن تستفيد من مساعدته ليتدربوا على حكم أنفسهم، وليمكنوا بعد ذلك من التخلص منه ومنعه من التدخل فى شئون مصر وإدارتها "على أن يتم ذلك شيئاً فشيئاً، لا مرة واحدة كما فعل العربيون عام ١٨٨٢ فعادوا بالخيبة" أى أنه كان يرى أن دورهم يجب أن يقتصر على دور الخبراء والمستشارين، لا دور ذوى السلطة المنفلذين، الذى يجب أن يختص به المصريون وحدهم. وحسبما يلاحظ رؤوف عباس، أن فريداً لم يكن يتفهم الدوافع الموضوعية التى كانت تكمن وراء الإحتلال والتى كانت تستهدف المصالح الإستراتيجية لبريطانيا، التى

لم تكن مجرد رسول للتمدن وداعية للإصلاح وتدريب المصريين على حكم أنفسهم.^(٥)

وقد يلفت النظر أن فريداً بعد أن كتب ذلك، عاد في نفس مذكراته (التي لم ينشرها في حينها والتي أشرنا إليها) في مارس من نفس العام (١٨٩١) ينعى على الخديوى توفيق تحاذله أمام الإنجليز وعدم مقاومتهم حرصاً على عرشه مع أن من واجبه المحافظة على صالح الوطن ولو أدى ذلك إلى فقدانه هذا العرش، ذلك أن هذا الموقف الجديد من فريد يتناقض مع رأيه السابق الذى يذهب إلى عدم مواجهة الإنجليز والاستفادة من وجودهم ثم التخلص منهم تدريجياً.. غير أننا نلاحظ أن هذه الأفكار كانت بداية تحول حقيقى في قناعاته وأفكاره السياسية، مما يسجل بداية حقيقية لنضجه الوطنى، فقد كتب في نفس المذكرات في ديسمبر ١٨٩١ معبراً عن ضرورة عدم التعاون مع الاحتلال، ويعيب على النظار المصريين رضوخهم لإرادة الإنجليز، بدلاً من امتناعهم عن قبول الوظائف الكبرى في ظل تلك الظروف، ويرميهم بالحرص على ممتلكاتهم أكثر من الحرص على استقلال الوطن، بل ويتهمهم بصراحة بأنهم هم الذين ساعدوا الإنجليز على احتلال الوطن.^(٦)

ومن الواضح أن فترة التحول والنضج الوطنى في تفكيره السياسى هذه، التى بدأت مع بدايات عام ١٨٩١، قد غيرت من موقفه تجاه الخديوى توفيق أيضاً، فقد رأينا أنه كتب في مذكراته التى سجل فيها تاريخاً لمصر منذ ذلك العام - والى لم تعرف إلا بعد وفاته عام ١٩١٩ - منتقداً الخديوى لتحاذله وضعف عزيمته على مقاومة الإنجليز وملابته لهم حرصاً على عرشه مضحياً بمصلحة الوطن. وعندما تولى الخديوى عباس حلمى الثانى واتجه إلى مقاومة الإنجليز وتوثيق علاقاته بالسلطان العثمانى، بارك فريد هذا الاتجاه، وعبر عن ذلك فيما كتبه بمذكراته في شهر يوليو ١٨٩٣، ورأى في ذلك نهجاً قوياً، وأشاد

بالخديوى الشاب الذى ترك "سياسة إسماعيل وتوفيق ومن قبلهما.. لما فى هذه السياسة العوجاء من تسهيل السبل لإحتلال الأجانب (لمصر) وامتلاكهم لها.."

ويتصل بذلك أيضاً تغير موقفه من الدولة العثمانية التى كان يتحمس لجهود محمد على فى الإستقلال عنها، فبعد أن كان يرى عدم عودة مصر إلى حظيرتها فور خروج الإنجليز منها، جعل يتمسك بالسيادة العثمانية عليها، ويرى أن استقلال مصر التام عنها، يجعلها مطعماً للدول الأجنبية، ويلفت النظر - فيما كتبه بالمذكرات فى فبراير ١٨٩٤ - إلى أهمية تأييد روابط تبعيتها للدولة لكف الإنجليز عن ابتلاعها. وفى غضون نفس العام نشر فريد كتابه الشهير عن "تاريخ الدولة العلية العثمانية" الذى ذهب فيه إلى أن الإبقاء على دولة الخلافة الإسلامية إبقاء للإسلام نفسه، لأن الدولة العثمانية دافعت عن الإسلام ضد جميع دول أوروبا المسيحية، وانتهى إلى أن المسألة الشرقية حلقة من حلقات الصراع بين الدولة العثمانية والقوى المسيحية، ومن ثم فهى مسألة دينية وليست سياسية. ويستمر فى السعى لتأكيد الولاء للدولة، حتى أنه يقيس الشعور الوطنى عند المصريين بمقدار ما يظهرون من الولاء للدولة العثمانية وتأييدها ضد أعدائها، فيشيد بمحمة إكتتاب المصريين لمساعدة الدولة فى حربها ضد اليونان عام ١٨٩٧، ويرى ذلك دليل على زيادة الإحساسات الوطنية عند المصريين.^(٧)

وهكذا ظل فريد على قناعاته الجديدة بعد نضج فكره السياسى والوطنى، منذ استقال من وظائف الحكومة واشتغل باغمامة بين عامى ١٨٩٧ - ١٩٠٤، وحتى رغم انصراف الخديو عباس عن تأييد ودعم الحركة الوطنية، فسارتبط بمصطفى كامل، وتحول من مجرد مثقف يحمل مشاعر وطنية متدفقة يتوق لتحرير بلاده من الإحتلال خلال هذه الفترة، إلى مناضل سياسى شديد المراس، يضحى بأمواله وبحياته الخاصة فى سبيل مقاومة الإحتلال، مؤيداً تسمية مصر لدولة

الخلافة متخذاً من ذلك حجة للدافعة الإنجليز، ومناضلاً، في إطار الحزب الوطني المصري، من أجل حياة دستورية لمصر والمصريين.

* * *

محمد فريد مؤرخاً:

ينبغي التأكيد على أن محمد فريد وج الحياة العامة باعتباره مؤرخاً، قبل أن يتخبط في السياسة بشكل عملي، وقبل أن يترك الوظائف والحمامة، وأن عشق التاريخ والكتابة فيه لم يفارقه طوال حياته حتى بعد أن أصبح هو ذاته شخصية تاريخية أو من صناع التاريخ، فعندما أصبح مناضلاً وزعيماً سياسياً سجل مذكراته لثقتة ألماً ستصبح يوماً ما مصدراً من مصادر التاريخ، وهو ما حدث بالفعل. وكان يرى أن "فن التاريخ عبء لمن اعتبر وبصيرة لمن تأمل واذكر.. له فوائد جمة، وثمرات مهمة، تعرب عما مضى من كوارث الأزمان والأوقات، وتكشف عن وجوه الحوادث قناع الشبهات، فلكثرة نفعه، وعظم وقعه، كان له في الكتاب المبين أصل قوى متين.. إذ لولا التاريخ لجهلت الدول، ومات في الأيام الآخر ذكر الأول.."^(٨) فالتاريخ عنده خيرة بالماضي وحوادثه ينبغي تأملها والإعترار بها، كما أنه يكشف عما يحيط بهذه الحوادث من الشبهات من خلال تحقيقها، استجلاء للماضي واستيعاباً لدروسه، وقد تمثل في صدر أول كتاب له في التاريخ بقول الشاعر:

ليس بإنسان ولا عالم من لم يع التاريخ في صدره
ومن درى أحوال من قد مضى أضاف أعماراً إلى عمره

وكان كتاب "البهجة التوفيقية.." عن محمد على أول عمل تاريخي ينشر له حيث صدر في مارس عام ١٨٩٠، وهو ما سنعرض له بالتفصيل بعد قليل، وبعده شرع محمد فريد منذ عام ١٨٩١ يسجل وقائع عصره بشكل حوли فترك لنا مذكراته عن "تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية" والتي توقف عن كتابتها عام ١٨٩٧، وإن لم تر النور إلا بعد وفاته بزم طويل^(٩)،

وفي تقديرنا أنه خلال تسجيله لها، لم يستهدف نشرها آنذاك، ثم ألف عمله التاريخي الثالث المهم وهو "تاريخ الدولة العلية العثمانية" الذي نشر طبعته الأولى في يناير عام ١٨٩٤. واستمر خلال التسعينيات على حبه للكتابة التاريخية عندما أنشأ عام ١٨٩٨، مجلة علمية نصف شهرية تسمى الموسوعات (بالإشتراك مع حافظ عوض ومحمود أبو النصر) نشر فيها فصولاً من تاريخ الرومان جمعها في كتاب صغير أصدره عام ١٩٠٢ تحت عنوان "تاريخ الرومان" شمل تاريخاً قصيراً لروما حتى نهاية الحروب البونية.. كما نشر "الموسوعات" الكثير من مقالاته التاريخية عن سياسة المجترات وفرنسا في إفريقيا، وسياسة روسيا في آسيا، وحرب الترنسفال، ومطامع أوروبا في الصين.. إلخ وظل يتابع الكتابة في التاريخ إلى أن جذبه السياسة والحزب الوطني خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، ومع ذلك سجل مذكراته بين عامي ١٩٠٤ - ١٩١٩ التي أشرنا إلى أنها تعتبر مصدراً مهماً من مصادر تاريخ مصر خلال هذه الفترة.^(١٠)

والواقع أن محمد فريد قد ترك عملين تاريخيين مكتملين ومهمين بمقياس عصره، نشرأ في حياته، أولهما كتابه عن عصر محمد علي وهو "البهجة التوفيقية" والآخر عن الدولة العثمانية وهو "تاريخ الدولة العلية العثمانية"، وقد ملأ الكتابان ما يعد في ذلك الوقت فراغاً كبيراً، حيث لم يتوفر حتى وقت نشرهما عمل مخصص لأى من الموضوعين في مصر،^(١١) ومن ثم كان إسهام محمد فريد يدل على درجة عالية من الوعي والمقدرة.

أما كتابه عن الدولة العثمانية فقد اجتهد فيه ليثبت للقراء - حسب تعبيره - أن سبب تأخر المسلمين هو تفرق كلمتهم، وأن بين فضل الدولة في إبقاء الإسلام والدود عنه، وكيف أنها قاومت دول أوروبا المسيحية، وليرهن على أن المسألة الشرقية مسألة دينية وليست مسألة سياسية.^(١٢) يضاف إلى ذلك أنه يربط بين دراسة التاريخ والوعي به وبين المدينة العصرية، باعتبار ذلك من مطلباتها، فكل جيل من الأجيال المتعاقبة يرث معارف وأخلاق وأعمال من

سبقه ليضيف إليها "من معلوماته الخصوصية، وتجاربه الذاتية فيكون بذلك مدنيته العصرية..". فضلاً عن أنه كان يرى أن دراسة التاريخ بشكل عام توقفتنا على أخبار كل أمة في جميع أطوارها "كأسباب ظهورها والروابط بين أفرادها والوسائل التي اتخذتها لنموها وارتقائها وحدود محكوميتها وحكامها، ووصف وقائعها وتحديد تخومها وأملاكها، وأطامعها وأسباب خذلانها وسقوطها.." (١٣)

وإذا كان محمد فريد في كتابه السابق على هذا (البهجة التوفيقية) قد انحاز وتحمس للسياسة الخارجية خمد على والتي أدت إلى صدامه مع الدولة العثمانية بل إنه عند حديثه عن موقعة قونية انتقد الدولة صراحة وذكر أنها "لم تتمكن من التأليف بين قلوب رعاياها حتى تكون منهم أمة واحدة عثمانية بل لم يزل كل شعب محافظاً على تقاليده وعوائده ولا تجمعهم مع باقي الشعوب إلا جامعة الخضوع لسلطان واحد ذى بأس وبطش" (١٤)، وربما كان مدفوعاً إلى ذلك برغبته في إرضاء الخديو توفيق، فإنه في هذا الكتاب قد أعاد النظر في موقفه من الدولة العثمانية على ضوء المتغيرات التي حدثت فيما بعد، فالدولة العثمانية ابتعدت عن صداقتها التقليدية لبريطانيا، مما كان في صالح تحسين العلاقات العثمانية - المصرية، كما أن بريطانيا وفرنسا توصلتا عام ١٨٩٠ إلى حل أغلب نزاعاتهما الإستعمارية، فلم يعد ثمة ما يجعل مصر ترتاب في علاقتها بالدولة العثمانية، ولذا أصبح الطريق ممهداً لنوع جديد من التفاهم العثماني- المصري المؤسس على الروابط الدينية القديمة والإحساس القوي بالولاء الذي يحسه المسلمون تجاه الخلافة.

وفي داخل مصر، بينما كان الخديوي توفيق يسدى خضوعاً للسياسة البريطانية في مصر، وهو ما تقبله محمد فريد آنئذ، مما يفسر رأيه عام ١٨٩١ بشأن المظاهر الإيجابية للإحتلال، فإن الصورة قد اختلفت عندما تولى الخديوي عباس حلمي الثاني وبدأ يظهر أمام المصريين باعتباره حاكماً وطنياً يتحدى الوجود البريطاني، مما أدى إلى صدامه مع اللورد كرومر، ولابد أن محمد فريد

قد تأثر بهذا الإتجاه الجديد للخديو عباس، وكان ثمة شكوك لدى الإنجليز بشأن شبكة مركبة من العلاقات المصرية - العثمانية يجرى بناؤها.^(١٥) ويمكن فهم اتجاه محمد فريد صوب الدولة العثمانية وتأليفه هذا الكتاب عنها في هذا الإطار.

ومن الطبيعي أن يكون هذا العمل، الذى وضعه فريد بعد ما يقرب من أربع سنوات من كتاب "البهجة التوفيقية" أكثر نضجاً وأهمية، فقد تميز بقدر أعلى من التوثيق، وهو ما ظهر من اقتباساته الواضحة من نصوص المعاهدات والإتفاقيات والفرمانات والمراسيم، والى وضعها في سياقها التاريخي، فضلاً عن نشر الكثير من نصوص هذه الوثائق كلما تطلبت الحاجة ذلك، بالإضافة إلى رجوعه إلى مؤلفات من سبقوه كعلی مبارك وجودت والجبرتي وفيليب جلال وغيرهم.. وكان صادقاً مخلصاً لأمانة البحث التاريخي ومسئوليته، عندما ذكر بحق، أنه بذل غاية الجهد وأورد في هذا التأليف من مواقف التحقيق قدر طاقته، فضغط الأعلام بقدر الإمكان وشرح في حواشي الكتاب أسماء الملوك والأعيان وبعض البلدان معتمداً في ذلك كله على الأمهات المعتمدة والأصول الوثوق بها.. ويقي أن نشر أنه في هذا الكتاب أظهر معرفة كاملة بتاريخ أوروبا الحديث وما كان يدور في أروقتها السياسية، كما استطاع أن يتتبع بمهارة التطورات الداخلية في الدولة العثمانية، ليرك لنا عملاً تاريخياً على جانب كبير من الأهمية، أظنه لا يزال يمثل مرجعاً مفيداً من مراجع تاريخها الحديث.

* * *

المؤرخ والباشا، كتاب البهجة التوفيقية:

أوضح محمد فريد أسباب تأليفه لهذا الكتاب فذكر أنه أراد به التأريخ لفضل ساكن الجنان (جنتمکان) محمد علی باشا الكبير، باعتباره "أكبر مؤسس لمصر وأشهر مهندس لخطتها" وأنه أراد بذلك التعبير عن اعترافه بفضلها، باعتباره أحد الذين تربوا في المدارس الخديوية، كما أوضح أنه وضعه كذلك لخدمة الوطن وتزويد المصريين بمعرفة تاريخهم وماضى بلادهم، وتقديم

الشكر للخديوى توفيق على نعمه، كما ذكر أنه تشجع في تأليفه للكتساب بانتشار المعارف والعلوم، فأراد به الإسهام في المعرفة التاريخية وتشجيع التسابق في ميدانها..

والواقع أن محمد فريد كان من أشد المعجبين بنشاطات محمد على وحملاته العسكرية، وكم أغدق عليه من الألقاب خلال صفحات كتابه، فهو مؤسس مصر الحديثة وأكبر مؤسس لديار مصرنا، محيى مجد مصر، وعزيز مصر، وممدن مصرنا وعزيزها الأول، والعزيز محمد على باشا وأحياناً يلقبه بالخديوى، وكثيراً ما كان يكنى عن اسمه هذه الألقاب، غير أنه لم يقدم تاريخاً كاملاً لعصره وسياسته الداخلية والخارجية بقدر ما قدم تاريخاً عسكرياً لحروبه وحملاته، حتى كاد هذا الكتاب أن يصبح مجرد تاريخ عسكرى لحملات محمد على وحروبه، ونظرة سريعة على محتوياته تؤكد ذلك.

فالكتاب يبدأ بقصة محيى محمد على إلى مصر ضمن الحامية العثمانية السقى جاءت لإستردادها من الفرنسيين فى مارس ١٨٠١ ووصف كيف ارتقى عرش الولاية، ثم بدأ فى تتبع جهوده ونشاطاته العسكرية منذ مقاومة حملة فريزر على الإسكندرية ورشيد عام ١٨٠٧، لينتقل بعدها إلى تسجيل حروبه فى الجزيرة العربية، التى سماها "حرب الحجاز"، وعالج بعد ذلك عملية بناء الجيش الجديد لمصر، وجهود سليمان باشا الفرنساوى "الكولونيل سيف" فى هذا الشأن، وقد خص هذا بترجمة مستفيضة لما له من جهود عسكرية فى بناء جيش محمد على وفى حملات هذا الجيش وحروبه، وانتقل مؤلفنا بعد ذلك لمتابعة حروب اليونان، وحروب إبراهيم باشا ابن محمد على فى الشام وحكمه له، وثورات الأهالى ضد الحكم المصرى، وصراع الجيوش المصرية مع جيوش السلطان العثمانى خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وتدخل الدول الأوروبية وتطور المسألة المصرية، حتى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وإجلاء المصريين عن الشام.

ولم يعالج محمد فريد في كتابه موضوعات أخرى إلا في الجزء الأخير منه، حين سجل زيارة الدوق موبانسيه، ابن ملك فرنسا لويس فيليب إلى مصر عام ١٨٤٥، ثم رحلة إبراهيم باشا إلى أوروبا للعلاج والإستجمام (٤٥-١٨٤٦) حيث رواها بالتفصيل. ويبدو أن فريداً رأى أنه استغرق في تأليف هذا التاريخ العسكري، ولم يكتب شيئاً عن سياسة محمد على الداخلية وبناء الدولة الحديثة، فاستدرك ذلك في فصل ختامي عاج فيه بشكل مركز ما أقامه "مدن مصر من إصلاحات وتأسيسات" فكتب عن جهوده في تطوير التعليم والبعثات، والطب والمستشفيات، وبناء الأسطول والترسانات، والمصانع، وتطوير الزراعة، ومشروعات الري الكبرى.. ومن الواضح أن مؤلفنا أدرك أن هذه الإنجازات جميعاً كانت في سبيل تحقيق الأهداف العسكرية، وارتباطها بتأسيس الجيش الجديد ونشاطاته، فهو عندما تحدث عن إنشاء خطوط التلغرافات أضاف "لتصل إليه أخبار جيوشه المشغلة بقتال اليونان في أقرب وقت..".

وعموماً استطاع محمد فريد أن يقدم وصفاً تفصيلياً دقيقاً، في معظم الأحيان، للمعارك التي خاضها الجيش المصري خاصة تحت قيادة إبراهيم باشا، الذي لم يدخر وسعاً في إغداق ألقاظ البطولة والشجاعة عليه، كما كشف عن إعجابه بشأن سياسة محمد على في توسيع حدود مصر، وكان يرى أن ذلك من أسباب عظمة الدول وقوتها، والثابت أن محمد فريد أثبت مهارة واضحة في تتبعه سير المعارك وتبع حركة الجيوش، كما أظهر معرفة دقيقة بما دار في أروقة السياسة الأوروبية بشأن المسألة المصرية، وتدخل هذه الدول في الصراع الدائر بين محمد على والسلطان العثماني خلال حروب الشام، فكشف عن إدراك عميق لمدى تعارض المصالح الأوروبية ودوافع وطبيعة تحالفاتها.

وفي المقابل، كان يمر مرور الكرام ودون تحليل نقدي، على الإخفاقات التي لقيها الجيش المصري في بعض المعارك في بلاد اليونان، وفي معارك الشام وأسلوب إدارته مما أدى إلى ثورات أهله ضد حكم إبراهيم باشا. ويتصل بذلك أيضاً أن محمد فريد رفض الاعتراف بأن ثمة خلافات حدثت بين إبراهيم باشا والكونولونيل سيف "سليمان باشا" بشأن اتخاذ بعض القرارات العسكرية، وأرجع فريد التقارير الواردة بهذا الشأن إلى "الحسد والوشاية" وليس إلى اختلاف النظر في سير بعض المعارك..

وفي معالجته لمسألة هزيمة الجيش المصري في حرب اليونان ومعركة نوازين البحرية، قدم فريد دفاعاً هزياً، حين ذكر أن بقايا الجيش والأسطول المصري عادت إلى الإسكندرية متوجة بالنصر المين والفوز العظيم، عندما ألزم إبراهيم باشا بإخلاء اليونان، ورأى أن مجرد وقوف قوة مصرية محصنة أمام إحدى هذه الدول العظام ليكسبها فخراً وشرفاً ولو خرجت من هذا الموقف الخرج مكسورة! كذلك لم يكن محمد فريد يتوقف ليحلل الظروف الموضوعية التي أدت إلى نشوب بعض الحروب، فبعد انتهاء حديثه عن حرب اليونان، انتقل فجأة للحديث عن حرب الشام ولم يذكر من أسبابها إلا سبباً ظاهرياً وهو هروب الفلاحين المصريين إلى الشام بسبب الضرائب المفروضة عليهم ولم يشأ أن يحلل الأسباب الأكثر أهمية..

وعندما انتقد المؤرخون إبراهيم باشا بسبب تعرض نخبة جيشه للموت من الجوع والعطش والحرارة في اقتفاء أثر الشيخ قاسم الذي قاد عصياناً كبيراً ضد الحكم المصري للشام، دافع عنه محمد فريد، وذكر أن هؤلاء المؤرخين فاقم أنه لو ترك الشيخ قاسم وشأنه لعنا في الأرض فساداً واعتبر الشاميون ذلك عجزاً منه وتجاوزاً عليه..

وبالرغم مما وصف به موقف محمد فريد من النحياز واضح لبطولات محمد على وإنجازاته، حتى لقد اعتبر البعض كتابه نوعاً من الملاحم وقصص البطولة

أكثر منه تاريخاً^(١٦) إلا أننا لا نعلم أن نجد نقداً واضحاً لمحمد على وسياسته من جانب مؤلفنا، فهو في حديثه عن هروب الفلاحين من مصر إلى الشام فراراً من الضرائب يذكر عبارة صريحة "ويسوؤنا أن نقول أن مصر مع كونها قد تقدمت في زمن المغفور له محمد باشا عما كانت عليه زمن المماليك مالياً وعسكرياً، لكن لم يصب الفلاح من هذا التحسين إلا كثرة الضرائب وأعمال السخرة لإتمام الأعمال العمومية، التي لم تعد بالفائدة على فلاحى ذلك الوقت، بل على من أتى من بعده..".

كما كشف محمد فريد عن أن محمد على كان يضيق بالنقد ويحاسب من يمارسه بشدة، ففي حديثه عن قصة عزل الشيخ الدواخلي نقيب الأشراف، ذكر مؤرخنا أن الباشا طلب من المشايخ أن يحرروا محضراً يبينون فيه أسباب عزله ليرسله إلى نقيب الأشراف في استانبول باعتباره صاحب الحق في العزل والتولية بولايات الدولة العثمانية، وأضاف فريد "أنه لم يكن في الأسباب التي ذكروها السبب الحقيقي لعزل الباشا له، وهو في الحقيقة انتقاده على أحكام الباشا على مرأى ومسمع من المقرين إليه".

وعندما تدخلت الدول الأوروبية بين محمد على والسلطان عام ١٨٣٧ بعد أن اقتربت جيوش إبراهيم باشا من استانبول، وقدمت مقترحات أولية لتسوية الأزمة، ورفض محمد على هذه الشروط وعزم على المحافظة على ما فتحه الجيوش، وأخذ يستعد للقتال، أرسلت بريطانيا ودول أوربا، إلى محمد على تحذره أنها سوف تستعمل القوة ضده دفاعاً عن الباب العالي، علق محمد فريد على موقف الباشا بقوله إنه "لم يعأ بكل ما ورد إليه من هذه التهديدات ولم يرد عليهم، وورد نأ سفره إلى السودان للبحث عن الذهب وترك حكومته وكأنها لم يكن بها شئ من التهديدات".

وفيما يتعلق بتوثيق الكتاب ومصادره، فقد استطاع مؤلفنا أن يطلع على مجموعات من الوثائق والسجلات المهمة بحكم مركزه الوظيفي، كما استفاد

من مجموعات عديدة منشورة من الوثائق الأوربية، وكذلك اعتمد على الكثير من كتابات المؤرخين السابقين واقتبس عنها وذكر ذلك في موضعه، فاستفاد من كتابات الجبرتي وكلوت بك وعلى مبارك، وكذلك كتابات هامون ومانجان، خاصة تقاريرهم عن مدرسة الطب والطب البيطري، وكذلك اعتمد على جريدة أركان حرب الجيش المصري ومجلة جورنال أزياتيك.. ورغم أنه كان يشير إلى الفقرات التي يقتبسها من مصادره في متن الكتاب، إلا أنه لم يسجل ذلك في حواشيه التي اختصها بترجمات لعدد من الأعلام الذين وردت أسماءهم بالمتن، والتي كان حريصاً على كتابتها، بقدر من الإسراف أحياناً ودون تعليق من جانبه.. ولا ينبغي أن ينظر إلى هذا الكتاب من هذه الزاوية بمقاييس عصرنا وما تطورت إليه قواعد الكتابة العلمية وتقاليدها، ويكفي أن خطة المؤلف واضحة ومصادره واقتباساته مدونة، وآراءه وأفكاره جلية، بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه.

أما لغة الكاتب وأسلوبه فمن المسلم به أنه، رغم صغر سنه آنذاك وقلة خبرته في الكتابة (٢٢ عاماً) كان أفضل بكثير من الكتاب والمؤرخين الذين سبقوه، ورغم أنه استخدم مصطلحات هجرت بدلاً من مرادفاتاً الحديثة (كدونائمة بدلاً من أسطول) واستخدم أكثر من إسم لعاصمة دولة الخلافة (استانبول، إسلامبول، القسطنطينية) إلا أنه لم يسرف في تكلف السجع، كما ذكر جاك كرابس، ولم يتضح هذا إلا في عنوان الكتاب وخطبته الإفتتاحية، وكذلك في نهاية خاتمته، أما في صلب الكتاب وسياقه، فقد كانت لغته سهلة وعصرية، قياساً إلى لغة من سبقوه من المؤرخين، وباستثناء عدد من أخطاء الإملاء والنحو، فإن الكتاب بشكل عام سليم في لغته وسلس في تعبيراته وواضح في أفكاره.

* * *

بقى على أن أوضح للقارئ ما الذى قصده بكلمة (تحرير) الكتاب هنا، وأود الإشارة إلى أن المؤلف وضع لكتابه حواش كثيرة للأعلام والبلدان، وطابق بعض التواريخ الهجرية بالميلادية، وأن الكتاب اتخذ شكل طباعة القرن التاسع عشر من حيث التصاق الكلمات والحروف، والتصحيح، وعدم تفكير الكتابة أو استخدام علامات الترقيم، مما يعيق القارئ كثيراً عن القراءة والمتابعة والفهم، كما أن النص به كثير من أخطاء الإملاء والنحو والصرف، وقد سجل فريد قائمة ببعضها في نهاية طبعته الأولى، كما أن الكتاب لم تقسم موضوعاته الرئيسية إلى فصول، رغم الفهرس التفصيلي الذى أورده.

لذلك اجتهدت في تحرير النص من ذلك كله، فقدّمته بشكل الكتابة العصرية، وحررت النص من أغلاط الطباعة والتصحيح والإملاء واللفظ وهفوات التحرير، وصوبت أخطاء النحو، مع ضبط بعض التعبيرات ليستقيم المعنى وأشرت إلى ذلك في الحواش واستكملت مطابقة التواريخ، وأضفت بعض الحواش الإيضاحية، واستخدمت علامات الترقيم، وأبرزت الموضوعات الرئيسية في شكل فصول، ملتزماً بخطة المؤلف كما هي. وإذا كان ثمة كلمة أو عبارة لم أستطع تبين معناها أشرت إليها في الحاشية بعبارة (هكذا في الأصل) تاركاً إيها لإجتهاد القارئ.. وعموماً حافظت للمؤلف على النص كاملاً واقتصرت على التصويب في الحواش، وإن أصلحت الكثير من أخطاء الإملاء والكتابة الواضحة والتي لا ليس فيها، ولم أشر إلى ذلك في الحواش حتى لا أثقل النص بكثرتها.

وأخيراً، لقد قدم محمد فريد كتاباً مهماً إذا نظر إليه باعتباره تاريخاً عسكرياً لعصر محمد على، كشف فيه عن مؤرخ راسخ وواعد، لم تلبث الحركة الوطنية أن جذبت به إلى أتونها قاتر العمل السياسى والوطنى المباشر والعملية، وإذا كنا قد خسرننا بذلك "مؤرخاً" فقد كسبت مصر زعيماً سياسياً وماضلاً وطنياً مخلصاً، أصبح من "صناع" تاريخها الحديث والمعاصر.

الهوامش والمصادر

- (١) عبد الرحمن الرافعي: محمد فريد، رمز الإخلاص والتضحية، ط (٣)، النهضة المصرية ١٩٦٢ ص ١٦-٣٧.
- (٢) أحمد زكريا الشلق: حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٩-٣٢.
- (٣) عبد الرحمن الرافعي: المراجع السابق، ص ٢٧-٣١.
- (٤) محمد فريد: تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ ميلادية، مذكرات محمد فريد، القسم الأول، تحقيق وتقديم رؤوف عباس، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٥، ص ٢٩٢ (حوادث سنة ١٨٩٧).
- (٥) محمد فريد: المصدر السابق، دراسة رؤوف عباس ص ٥٤-٥٦.
- (٦) محمد فريد: المصدر السابق (أحداث ديسمبر ١٨٩١) ص ٩٦-٩٧.
- (٧) نفس المصدر: دراسة رؤوف عباس
- (٨) محمد فريد: البهجة التوفيقية في تاريخ العائلة الخديوية (المقدمة).
- (٩) وقد نشرها رؤوف عباس عام ١٩٧٥ بعد أن حققها وقدم لها بدراسة وافية عام ١٩٧٥.
- (١٠) وقد نشرها مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر تحت عنوان "أوراق محمد فريد، مذكراتي بعد الهجرة ١٩٠٤-١٩١٩" قدم لها بدراسة شاملة عاصم الدسوقي، هيئة الكتاب ١٩٧٨.
- (١١) جاك كرابس جونيور: كتابة التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر، دراسة في التحول الوطني، ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر، هيئة الكتاب ١٩٩٣، ص ٢٣١.
- (١٢) هذا ما كتبه محمد فريد في الجزء الأول من مذكراته في يناير ١٩٩٤، ص ١٩٣.
- (١٣) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية طبعة دار الجليل، بيروت ١٩٩٧، ص ٣-٨.

(^{۱۴}) جاك كرايس: المرجع السابق، ص ۲۳۷-۲۳۸.

(^{۱۵}) محمد فريد: الیهجة التوفیقیة، راجع ما كتبه تحت عنوان "واقعة قونية".

(^{۱۶}) جاك كرايس: المرجع السابق ص ۲۳۴.

نص كتاب
البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية

تأليف محمد فريد بك
وكيل قلم قضايا الدائرة السنية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المؤلف

الحمد لله الذى جعل فن التاريخ عيرة لمن اعتبر وتبصرة لمن تأمل واذكر
والصلاة والسلام من الملك السلام على نبينا محمد سيد ولد عدنان القاتل حب
الوطن من الإيمان صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعترته وحزبه، من خاضوا
الفيافي والقفار حتى جاء تاريخهم من أحسن الآثار.

﴿أما بعد﴾ فأقول وأنا المتوكل على مولاي المبدئ المعيد عبده محمد فريد
غفر الله له ولوالديه ولأرباب الحقوق عليه: لما كان لفن التاريخ فوائد جمة
وثمرات مهمة تعرب عما مضى من كوارث الأزمان والأوقات وتكشف عن
وجوه الحوادث قناع الشبهات فلكثرة نفعه وعظم وقعه كان له في الكتاب
المبين أصل قوئى متين. قال الله تعالى: "يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما
أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون" استدل على بطلان دعوى
اليهود في إبراهيم أنه يهودى وبطلان دعوى النصارى أنه نصرانى بأن التوراة
والإنجيل إنما نزلا من بعده، والله الحجة البالغة والحكمة الدامغة إذ لولا التاريخ
لجهلت الدول ومات في الأيام الآخر ذكر الأول، عن لى مع قلة بضائعى
وكساد صناعتى أن أولف في وطنى العزيز مختصر تاريخ وجيز يدل على فضل
جنتم كان محمد على باشا الكبير على الشأن من هو أكبر مؤسس لديارنا المصرية
وأشهر مهندس لخطتها النبيلة على أحسن الوجوه كما يشهد له بذلك الوجوه،
برّد الله مضجعه، وجعل في رياض النعيم مرتعه.

وحيث كنت ممن تربى في المدارس الخديوية ذات الشهرة المرضية رأيت أن
اعتنى بتأليف هذا الكتاب قياماً للوطن بواجب أداء الخدمة وشكراً لما للحضرة
التوفيقية على جميعنا من النعمة، حملنى على ذلك انتشار المعارف والعلوم السقي

أصبحنا نتسابق في مضمار حليتها يوماً عن يوم، وانتزع ما كان اعترى هممنا من القنور وخرجنا من الظلمات إلى النور بعناية خديو مصر الأعظم وعزیزها الأكرم ذی العلم الآصفی والحلم الأحفی والذكاء الأیاسی والرأی الذی هو لداء الأعداء الألداء، وإن أعضل أعظم آسى، الشهم القوى الجنان والسهم النافذ فی أكباد أهل العناد وإن كان مجبولاً على الرأفة والحنان، من تغنت بلابل الأفكار من أمداحه بفنون، وترنمت سواجع الأطيّار من الشاء علیه بما أرقص معاطف الفصون، المتحلى بأداب السنة والكتاب، المتخلى عن الميل مع الهوى وهو فی ريعان الشباب، ذی الفضل الجم والبيان الذی أفحم بلغاء عصره وأجم من سكنت هیته ومحبه قلوب الخاص والعام وأغدق على أرباب دولته بالتشاریف والانعام، فكان قبولها دلیل إقبالها وتلقيها بحول الله وقوته أصل استقبالها، فكانت على الدوام هی أولى له وهو أولى بها ألا وهو سيد ولاية الأمصار، المعطر ذكره الذی ذاع فی سائر الأقطار، الجدير بالمدح على التحقیق، أفندينا خديو مصر (محمد باشا توفیق) حفظ الله دولته وأنجاله وحرس بعینه النی لا تنام نظاره الكرام ورجال دولته الفخام والله المرجو لبلوغ كل مرام ومنه جلت قدرته الإعانة فی المبدأ وعليه حسن الختام.

* * *

﴿المقدمة﴾

١- مجي محمد على إلى مصر وتوليته

ولد لمَدَن مصر المغفور له محمد على باشا في مدينة قولة^(١) سنة ١١٨٢ هجرية الموافقة سنة ١٧٦٩ ميلادية وتولى والده وهو في حداثة سنه وقام بتربيته بعده عمه طوسون أغا، كافل أمر ضبط هذه المدينة إلى أن قضى نحبه فقيض الله له أحد أصدقاء والده للقيام بكفالاته وكان ضابطاً بجيش الإنكشارية^(٢) ومقيماً بفرقة في مدينة (بروستا) بالقرب من قولة بصفة حاكم وجاب للخراج، فرباه مع ولده إلى أن بلغ أشده وصار يمرّنه على قضاء بعض مهماته التي تتعلق بوظيفته، فوجد منه عضداً ومعيناً فيها في بعض القرى التي لا تؤدى ما عليها إلا بالتهديد الشديد أو استعمال القوى العسكرية، فلم يزل كذلك حتى بلغ من العمر ثمان عشرة سنة وذلك يوافق (١٧٨٧) فزوجه ياحدى قريباته ليربطه بعائلته، وكانت زوجته ذات يسار فاشتغل بتجارة الدخان حيث كان يزرع في هذه الجهة كثيراً، وساعده على ذلك ما كان بينه وبين أحد التجار الفرنسيين من العلاق الوديّة فبرع فيها حتى ربح منها كثيراً ونال شهرة جلييلة بين تجار هذا الصنف.

(١) هي بلدة في بلاد مقوتونية وطن الإسكندر الأكبر واقعة على بحر الأرخييل وبها ميناء متسع وتجارها عظيمة ويبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة جلهم من المسلمين وتبعد ١٢٨ كيلومتراً عن مدينة سالونيك واسمها عند الرومانيين لقضاء نيو بوليس أي البلدة الجديدة.

(٢) كلمة محرّفة عن لتركية كانت تطلق على فرقة من الجند اسمها السلطان لورخان سنة ١٢٨٩ مسيحية ثم طغت تلك الفرقة وتجرّبت حتى صارت تولى السلاطين وتزعمهم تبعاً لأهلوتها مع أنها كانت أقوى أسباب تقدم فتوحات الدولة العلية واستمرت على هذا النمط إلى أن أمر السلطان محمود الثاني بإبطلها فقتل أغلبها في يوم ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦.

مجي محمد على باشا إلى مصر:

لما احتل الفرنسيون مصر تحت قيادة بوناپرت^(١) في سنة ١٧٩٨ أرسل الباب العالي إلى الأقاليم والبلدان جميعها بتجهيز الجند لإخراجهم منها، وطلب أيضاً من حاكم (برواستا) ثلثمائة جندي فجمعهم، وجعل ولده على أغا قائداً لهم والمرحوم محمد على باشا قائم مقام له.

فسارت هذه الكتيبة مع الدوناغة^(٢) العثمانية إلى سواحل مصر حيث نزل الجيش بأبي قير في يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٩٩. وكان الجيش العثماني مؤلفاً من ثمانية عشر ألف مقاتل ومعه مدافع كثيرة من الطراز الجديد يتولاها ضباط من الإنكليز، وبعد قليل انتشب الحرب بين بوناپرت والجيوش العثمانية واستمر بينهما عدة أيام سجلاً، لبات العثمانيين بموازة الدوناغة لهم ولعدم يأس الفرنسيين من الانتصار وبعد أن قتل عدد عظيم من الجانبين التجأ العثمانيون إلى مراكزهم، وكان ذلك في ٢ أغسطس سنة ١٧٩٩، ولبثوا فيها إلى أن تمكن الباب العالي والإنكليز من إخراج الفرنسيين من مصر بتقدم جيش تركي مركب من ثلاثين ألف مقاتل من جهة العريش فالصالحية فالقاهرة تحت قيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ونزول الإنكليز إلى الإسكندرية (أول مارت سنة ١٨٠١) ورشيد وصعودهم النيل إلى القاهرة على مراكب صغيرة أتوا بها من بلادهم لهذا الغرض.

وفي أثناء ذلك عاد على أغا قائد الكتيبة المقدونية، فخلفه محمد على باشا في رياستها ثم بعد أن أخلى الفرنسيون القاهرة بمقتضى الاتفاق الذي أبرم بين

(١) ولد هذا الرجل شهيراً في ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ بمدينة (لجاسميو) بجزيرة (كورسيكا) من عائلة شريفة لكنها قليلة الثروة ثم دخل المدرسة الحربية بباريس سنة ١٧٨٤ وترقى إلى رتبة ملازم ثاني طوبجي سنة ١٧٨٥ واشتهر في استخلاص مدينة طولون من حوزة الإنكليز ثم تعين قائداً للجيش المحارب في إيطاليا سنة ١٧٩٦ وبعد أن قهر الجيوش النمساوية عاد إلى باريس حيث كلف بفتح مصر فدخل الإسكندرية في ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ وهزم المماليك في وقعة الأهرام (٢١ يوليو سنة ١٧٩٨) ثم رجع إلى فرنسا في أواخر سنة ١٧٩٩ وتولى قيادة الجيوش وحصل بعد قليل رتبة للحكومة (قنصل) وفي سنة ١٨٠٤ نودي به ليمبراطوراً على فرنسا وقهر جيوش أوروبا التي تآلفت عليه في عدة وقعات شهيرة وكان منتهى أمره في هزم في وقعة وتراو (١٨ يونيو سنة ١٨١٥) وأرسل أسيراً إلى جزيرة سانت هيلانة حيث توفي في يوم ٥ مايو سنة ١٨٢١ (يقصد بها الأسطول البحري (المحور)).

الجنرال (منو) قائد الفرنساوية، الذى ينسب مؤرخوهم خروجهم من مصر لسوء إدارته وعدم كفاءته، وبين الصدر الأعظم والأميرال كيث الإنكليزى فى ٢٥ يونيه سنة ١٨٠٩. وسافروا إلى بلادهم فى أوائل سبتمبر من هذه السنة وتبعهم الإنكليز، وعادت بذلك سلطة الباب العالى إلى ما كانت عليه قبل دخول الفرنساوية، وعينت الدولة العلية خسرو باشا والياً من قبلها على الحكومة المصرية فى ثمانى عشر جمادى الأولى سنة ١٢١٦^(١) وكان بها إذ ذاك من الجنود أربعة آلاف من الأرنؤد، منهم فرقة تحت قيادة محمد على باشا، فلما توسم فيه الاستعداد لمهمات الأمور وجه إليه التفاته ورقاه تدريجياً حتى وصل فى وقت قريب إلى رتبة (سرشمه) أى رئيس فرقة مؤلفة من ثلاثة أو أربعة آلاف جندى، ومن ذلك العهد أخذ فى استعمال الجند واستماله قلوبهم إليه للإستعانة بهم عند سوح الفرصة.

أما الممالك فكانوا لا يزالون يجادلون ويحاولون الإستقلال، ويرغبون فى عدم رجوع مصر إلى الباب العالى وصيرورتها كغيرها من الولايات، فلما بلغ الدولة هذا الخبر أصدرت أوامرها إلى خسرو باشا بأن يقاتلهم حتى يفنوا عن آخرهم، وكانت قوتهم قد ضعفت لوقوع الشحاء بين رئيسيهم، وهما عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى، اللذان كانا يتنازعا السلطة ويؤذ كل منهما لو انفرد بها بدون مشارك أو منازع، فوجه خسرو باشا جماعة من الأرنؤد ومعهم فرقة محمد على باشا تخاربه الممالك بالقرب من الجيزة وكانت الدائرة فيها على الأرنؤد قبل وصول محمد على مع فرقته.

فلما حصل ذلك حقق قائد هذه الحملة غيظاً، وعزم على نسبة عدم انتصاره إلى تأخر محمد على، وأنه اتفق مع الممالك، فسعى بذلك عند خسرو باشا فسرّ بهذه التهمة الباطلة ومع اعتقاده بطلانها أرسل للمرحوم محمد على يطلبه لسيلاً إلى سرايه بالقلعة محتجاً بأنه وردت إليه أوامر مهمة من دار الخلافة وأنه لابد أن

(١) ٢١ سبتمبر ١٨٠٩.

يعلمه بها في الحال وأصرّ على قتله وأمر خدمة بذلك حين دخوله من الباب. فلما وصل الطلب إلى محمد على جزم بداهة بأن هذا الإستدعاء لم يكن إلا للإيقاع به، فتحير في أمره وعلم أنه إن لم يجب طلب الوالي عدّ ذلك عصياناً وإن امتثل وذهب كان في ذهابه ذهاب حياته، فبعد التروى في ذلك ظهر له أرجحية عدم التوجه وآثر نسبة العصيان إليه على قتله وبات ليلته يترقب ما يبدو له وقت الصباح.

فساعدته الحظ الأوفر بقيام الجند على خسرو باشا ومأمور ماليته (خزنة دار) لعدم صرف مرتباتهم وكان هذا ناشئاً عن عدم تحصيل الخراج لإستيلاء الممالك على الوجه القبلى وجزء عظيم من الوجه البحرى بحيث لم يكن في حوزة الوالى إلا القاهرة وثمر الإسكندرية وما بينهما من القرى والبلدان.

ثم إن خسرو باشا أمر بإطلاق المدافع على الثائرين حتى خرب جزءاً عظيماً من القاهرة، ولما علم أركان حرب الوالى المدعو طاهر باشا بذلك نزل من القلعة ليتوسط بين الفريقين، فاقمه الوالى بالإنحداد مع العصاة فاغتاظ طاهر باشا ومال مع الجند وحارب الوالى إلى أن ألزمه بالفرار إلى المنصورة ثم انتقل إلى دمياط وتحصن بها فاتخذ طاهر باشا هربه فرصة للحصول على الولاية، وجمع أعيان البلد وعلماءها وطلب منها أن يختاروه والياً على مصر حتى يعين الساب العالى خلفاً لخسرو باشا، فأقره المجلس على ذلك، لكنه لم يلبث الجند أن عصاه خصوصاً الإنكشارية لعدم صرفه مرتباتهم وصرف مرتبات الأرندل ليس إلا، فحاصروه في سرايه في يوم ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ وأرسلوا إليه اثنين من أغواتهم ليرفعا إليه شكواهم فلم يستعمل السياسة معهم، بل فرهما على عصياتهما وطلب منهما أن يكونا مطيعين لأوامره فلم يرضيا بذلك واشتد الأمر بينه وبينهما إلى أن جرد أحدهما سيفه وحز رأسه وألقاها من النافذة وكانت مدة ولايته ستاً وعشرين يوماً.

وبعد قتله رغب الإنكشارية في تولية أحد باشا أمراء الدولة وكان موجوداً بمصر أثناء توجهه للمدينة المنورة حيث عين والياً، فلم يقبل محمد على باشا هذا التعيين بل صعد إلى القلعة ومعه أربعة آلاف من الأرنؤد وأراد أن يقاوم الإنكشارية ولكنه لما علم أنه لا يقدر على المقاومة كاتب عثمان بيك البرديسي المقيم بالصعيد وغيره من أمراء الممالك بأن يساعده على طرد الإنكشارية، ويرد مصر إلى حكمهم المطلق كما كانت عليه، فاجتروا بوعده وصاروا يأتون القاهرة أفواجا، حتى استجمع محمد على باشا من القوة ما يقاوم بها الإنكشارية وزيادة فزل من القلعة وانضم معهم ثم تفرقوا في أنحاء القاهرة وأخذوا بمثل أحمد باشا المذكور وهددوه وخيروه بين أمرين: الخروج من مصر أو القتل، فامتل وخرج ثم نبت العساكر داره.

ثم حول محمد على فكرته إلى الفتك بالإنكشارية خيفة أن يثوروا عليه كما فعلوا مع طاهر باشا فأوعز إلى الأرنؤد بذلك فانقضوا عليهم كالسيل المنهمر وسلبوا أموالهم وقتلوا أعيانهم، فاجتمع الباقون منهم بمصر القديمة وعزموا على التوجه إلى الشام من طريق الصحراء فهجم عليهم الأرنؤد وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق إلا من اختفى منهم، ففتشوا عليهم البيوت وغيرها ثم أطلالوا أيديهم إلى الأهالي وتعدّوا عليهم بالأذى وتفرقوا في النواحي وأكثروا من النهب خصوصاً في الوجه البحري.

وكان إذ ذاك محمد خسرو باشا مقيماً بثمر دمياط يقرر على أهلها ومن جاورهم الأموال الباهظة ويسومهم سوء العذاب ألواناً فتوجه محمد على باشا وعثمان بك البرديسي لمقاتلته، فحارباها وأسراه بعد أن هزما من معه في ١٤ ربيع الأول سنة ١٢١٨^(١) وأرسله إلى مصر في سجن القلعة.

أما الأرنؤد فارتكبوا من أنواع السلب والنهب وغير ذلك ما يعجز عن وصفه الواصفون، ويكل عن إحاطته العالمون، ثم عاد محمد على باشا إلى مصر

(١) ٥ يوليو ١٨٠٣.

وتوجه البرديسي إلى رشيد نخارية من فيها من العثمانيين فهزمهم وأسر على باشا القبطان، وحصل برشيد ما حصل بدمياط وكان الأرنؤد كلما مروا بقرية قهوا أموالها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وآذوا مردانها ولما وصل خبر هذه الفوضى إلى دار الخلافة وعلم الباب العالي فوضوية مصر وأن لا والي لها يؤيد سلطته، أرسل إليها على باشا الجزائري والياً عليها لإخماد هذه الثورة ومعاقبه أمراء الممالك وكل من كان سبباً في عزل خسرو باشا.

فلما وصل إلى الإسكندرية اشتغل بتدريب من أتى معه من الجند على النظام الأوروبي، وأظهر له أمراء الممالك الميل والطاعة والإمتثال لأوامر الدولة ودعوه للحضور إلى القاهرة فاعتز بذلك الوعد وخرج من الإسكندرية قاصداً العاصمة فخرج عليه الأرنؤد في الطريق وقتلوا من كان معه من الجنود العثمانية وأسروا الباشا وأتوا به إلى مصر أسيراً لا أميراً، ومحكوماً لا حاكماً، ثم أخرجوه الأمراء بقصد إرساله إلى الشام من طريق الصحراء وأمروا من رافقه من الجند بقتله في الطريق فقتلوه قبل أن يصلوا إلى الصالحية.

وفي أثناء هذه المدة عاد محمد بك الألفي من انكلترا، التي كان قد ذهب إليها ليطلب منها مساعدته على الإستقلال بمصر وإبادة الباقي من الأمراء العاملين على معاكسته ويقال أنه وعدها بتسليمها بعض الثغور لو نال مرغوبه بمساعدتها. ولما علم محمد على باشا بقدم الألفي خشي من اتحاده مع البرديسي فيضيع عمله سدى، فعمد إلى توغير صدر البرديسي على محمد بك الألفي فتجح في مساعاه حتى هم بالقتك به غدرًا ولولا هرب الألفي إلى الصعيد لقتل بديسة البرديسي ومحمد على وبعد هرب الألفي إلى مصر العليا هاج الأرنؤد على البرديسي لطلب مرتباقم (وربما كان ذلك بإيعاز من محمد على) فأمر البرديسي بضرب الضرائب الشديدة على أهالي العاصمة وخصوصاً الأغنياء من بينهم لإرضاء الجند فتذمرت الأهالي من هذا الظلم الدائم وشكروا أمرهم إلى محمد على باشا، لما كانوا يرونه فيه من الميل إليهم والحنو عليهم فتلقاهم بالبشر

والإناس ووعدهم بالمساعدة على دفع المظالم، ثم بعد قليل اتحد الأهالي مع الأرتؤد وهاج الكل على البرديسي وحاصروه بمجوله وأرادوا قتله لكنه تمكن من الفرار وحارب مماليكه الجند وقاوموهم مقاومة عنيفة، فصعد محمد على باشا إلى القلعة وأحكم مدافعه على الجهة التي بها منزل البرديسي فحرب أكثر منازلها وانجلت هذه المعركة عن خروج كافة أمراء المماليك من القاهرة فهبت يسوقهم وسبيت نساؤهم ويتمت أطفالهم.

فصفا الجوّ محمد على باشا، لكن لحسن سياسته لم يرغب إظهار ما يكّنه صدره من الإنفراد بالحكم والاستقلال بولاية مصر بل تربص حتى تساعد الفرس فينال مرغوبه بلا عناء ولا نصب.

تعيين محمد على باشا والياً على مصر:

لما خرج عثمان بك البرديسي وكافة الأمراء من القاهرة، دعا المرحوم محمد على باشا أعيان البلد وعلماءها وقال لهم أنه لا يليق بقاء مسمر بدون وال يواليها ولا سانس يسوسها ولا راع يراعيها، وأن الأولى إخراج خسرو باشا من سجنه بالقلعة وجعله والياً فأقر المجلس على ذلك وأخرج الباشا من السجن. لكن بعد يوم ونصف ثار عليه رؤساء الأرتؤد وطلبوا من محمد على إخراجه من مصر وطرده منها فأذعن لطلبهم وأرسله تحت الحفظ إلى رشيد ومنها إلى اسلامبول، ثم طلب محمد على من الأرتؤد أن يعين أحمد باشا خورشيد والياً على مصر فرضى الكل بذلك بشرط تولية محمد على قائم مقام له وبذلك انخمس الراع وحرر بذلك محضر وأرسل للباب العالي للتصديق عليه فصدق على ما حصل وأرسل بذلك فرماناً مع مخصوص من طرفه فقام خورشيد باشا من الإسكندرية وانتقل إلى القاهرة وحصل بعد ذلك وقائع لها وقع بين الجند والممالك الذين كانت سلطتهم ميسوطة على الصعيد إلى الجيزة. وبينما محمد

عنى مشغول بمحاربتهم استحضّر خورشيد باشا طائفة من الدلاة^(١) ليجعلهم حرساً لنفسه وذلك لتوجسه خيفة من محمد على وجنوده الأرئود وعدم ثقته بهم، لا سيما وكان الأهالي يميلون كل الميل إلى محمد على لإستعماله اللطف واللين معهم خصوصاً مع العلماء والأعيان.

فلما علم محمد على بحضور هؤلاء الدلاة عاد بسرعة إلى القاهرة واشتغل بمقابلة علمائها وصار يشنع لهم على الدلاة وما ارتكبه وكانوا قد انتشروا في البلد كالجراد ينهون وفي العالم يقتلون وفي النساء يهتكون ويأخذون أموال الناس ظمناً وبتناً وصار محمد على يحرض الناس على رفع شكواهم إلى الوالي فاتبعوه وتظلموا خورشيد باشا، فكان يعدهم بالنظر في شكواهم والتأمل في بلوهم ولا يمكنه الوفاء بوعده مراعاة للجند حتى ملّ الأهالي من إزدیاد الجور والتعدى وانتشر الهياج في كافة أنحاء البلد وخاف كل فريق من الآخر.

وبينما هم على ذلك إذ ورد فرمان بتولية محمد على باشا على جدة فأظهر الإمتثال وأخذ يتأهب للسفر فاضطرب العسكر والأهالي لعدم رضا الأهالي بمفارقتها، وفي أثناء ذلك صادف أن طلب الجند صرف مرتباتهم فأحاطهم محمد على باشا على الوالي ولما لم يكن بيده ما يسدّ به عوزهم، صرح لهم بنسب القليوبية ففرّقوا فيها شذر مذر وهبوا وسبوا النساء وباعوا الأولاد فتغيرت قلوب الأهالي وأبغضوا الوالي ومالوا إلى محمد على لما كانوا يرونه فيه من الحزم والمساعدة فألح العلماء والأعيان، ولجوا على محمد على باشا بعدم السفر إلى جدة وانتخبوه والياً عليهم ثم أرسلوا إلى خورشيد باشا بذلك فقال لهم إني مولى من طرف السلطان فلا أعزل إلا بأمره، وتحصن في القلعة، أما جميع القوى العسكرية من أرئود ودلاة وغيرهم فأنحازت إلى محمد على إلا القليل وكتبوا

(١) قال الجبرتي أن الدلاة طائفة تنسب إلى طريقة سيديا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأكثرهم من نواحي الشام وجبل القروز والمتولة يركبون الأكديش وعلى رؤسهم الطرابطير المود مصنوعة من جلود الغنم لصغار طول الطرطور نحو ذراع وهذه الطائفة مشهورة في دولة العثمانيين بالشجاعة والإقدام في الحروب ويوجد فيهم من هم على طريقة حميدة ومنهم دون ذلك وقليل ما هم أهد.

باشتراكمهم مع العلماء إلى الباب العالى يطلبون تولية محمد على على مصر فأجاب الباب العالى طلبهم أملاً في حسم النزاع وأصدر بذلك فرماناً وصل إلى القاهرة في ٩ يولييه سنة ١٨٠٥.

لكن لم يقبله خورشيد باشا بل ظنه إفكاً افتراه أعداؤه فحاصره محمد على في القلعة ورتب على أبوابها الحفر من الأرنود إلا أنهم لم يفعلوا ما أمروا به لعدم صرف مرتباتهم فتركوه وتفرقوا في البلد يتهون ويسلون، إلا أن ذلك لم يؤثر في عزيمته بل رتب بدلهم خفراء من الأهالي وقلدهم بالسلاح.

وبعد قليل حضر قبطان باشا من قبل الدولة العلية ومعه أوامر مشددة بإخراج خورشيد باشا، فامتل وخرج مع بعض الدلاة إلى الجهات البحرية يعنو في الأرض فساداً فأرسل خلفهم محمد على بعضاً من جنده فلحقوهم وأجلوهم عن مصر، فذهبوا إلى الشام واستقل محمد على بولاية مصر ولم يكن له فيها منازع إلا من بقى من المماليك بعد هذه المناوشات والحروب.

ثم إن الإنكليز طلبت من الباب العالى عزل محمد على أو نقله إلى ولاية أخرى لأمر بدا لها في ذلك، سنأتى على تفصيله قريب، فسمع الباب العالى مقالها وأرسل إلى مصر دوناتمة تحت إمرة قبطان باشا ومعه فرمان بتولية محمد على باشا سلاتيك وتعين من يدعى موسى باشا مكانه، فأتى الإسكندرية ومعه فرقة من العساكر المنتظمة وأمر بإعادة أمراء المماليك إلى ولاية الأقاليم. ولما بلغ هذا الفرمان إلى محمد على باشا لم يظهر عدم الإمتثال بل استعد للسفر فاجتمع عليه العلماء والقواد والجنود وأخبروه أنهم لا يرضون بخروجه، وأنهم يحرمون خطاباً للباب العالى ويرسلونه مع ولده إبراهيم بك ويكون مضمونه إظهار رغبتهم في بقاءه عليهم والياً لما رأوه منه من مراعاة جانب الأهالي ومنع مظالم الجنود عنهم واتباعه مشورة العلماء في الأمور المهمة، ولما وصل إبراهيم بك إلى الإسكندرية رجع معه قبطان باشا بمراكبه ومعه موسى باشا الذى أتى ليكون والياً فلما وصلوا إلى إسطنبول وعرض الأمر على الباب العالى، قبل السلطان

ما طلبه المصريون وأرسل إلى مصر فرماناً بتثبيت محمد علي باشا على ولايته فوصلها فرمان في أواخر شعبان سنة ١٢٢١ (٧ نوفمبر سنة ١٨٠٦).

لكن لم ينقطع أذى الجند عن الأهالي بل كان الخلاف عاماً في جميع الأنحاء والشغب ضارباً أطنابه بين صفوف العساكر، فالأرنؤد تخالف الإنكشارية وتقاتلها، والدلاة تعادى كل فرقة وتنازعها، والكل معاد للأهالي عاصي للوالي يعيش ويعربدون في أنحاء القاهرة وينهبون الأهالي ويطردوهم من منازلهم ويسكنونها واستعملوا في النهب والسلب أنواع الحيل فيما لم يجدوا إليه سبيلاً فربما جلس العسكري على حانوت رجل بدعوى الإستراحة أو اشتراء شيء ثم يقوم ويعود ثانياً قائلاً إنني نسيت وتركت هنا كيساً، ويجعل ذلك سبيلاً لإهانة صاحب الحانوت ونهب ما عنده وربما زاد على ذلك ما لا يحظر بالبال ولم يحصل مثله عند الأمم الجائلة في ظلمات التوحش وفيافي المهمية. فشاركوا الباعة في عروضهم وساهمهم فيما يربحون من أموالهم، هذا والأهالي يتحملون كل هذه الشدائد ولا يهتمون بمنعها بل يتجلدون بالصبر والتضرع إلى الله في أن يخلصهم مما نزل بهم من شرور هذه الفئة الباغية فكانوا متقلين على جمرات البلايا في بحار الرزايا تضيق صدورهم ولا تنطلق ألسنتهم.

ولما أتى إلى محمد علي باشا فرمان المؤذن ببقائه في ولاية مصر أخذ في استعمال الوسائط لإراحة البلاد من شر هؤلاء الطغاة تارة بالمالينة وأخرى باخارية، حتى أذعن له أمراء الممالك فأقطعهم البلدان والأقاليم وأعطى لشاهين بك إقليم الفيوم وثلاثين بلداً من أقاليم البهنسا وعشرة من الجزيرة - وما ساعد على استيلاء الأمن موت محمد بك الألفي الذي كان من أكبر أمرائهم جسارة وإقداماً، وعقب موته مات عثمان بك البرديسي فكانت وفاة الأول في ديسمبر سنة ١٨٠٦ والثاني في يناير سنة ١٨٠٧، ثم حضر إليه نعمان بك من أمرائهم فأكرمه وزوجه إحدى جواريه وأعطاه بيت المهدي بدرب الدليل. وهكذا صار يكرم كل من أتى إليه منهم كعمر بك وغيره ثم أتى إليه إبراهيم بك الكبير

فولاه اقلیم جرجا وبذہ الحالۃ لم یعد لحمد علی باشا شاغل من جہۃ الأمراء ولا أتباعہم، لکنہ لم یزل یخشی غدرہم وخیانۃہم عند حصول أقل أمر یفضیہم وتیقن أن لا راحۃ لہ إلا بعد استئصال جرثومتہم الخبیثۃ وتطہیر القطر المصری من دنس وجودہم، ولقد ساعدہ الحظ علی تہمیم ذلک وتمکن من إبادتہم کما سیجئ.

* * *

٢- دخول الإنكليز مصر

لما علم الإنكليز بتثبيت محمد علي باشا على ولاية مصر ينسوا من نوال مرغوبهم بالطرق السلمية وعمدوا إلى استعمال القوة وأرسلوا إلى الإسكندرية إسطولاً بحرياً مركباً من سبعة عشر مركباً حربيّاً يقل جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال (فريزر) لإحتلالها فوصلت إلى النغر في أول المحرم سنة ١٢٢٢ (١٠ مارث سنة ١٨٠٧) وأرسل قائد الجيش إلى حاكم المدينة أن يأذن لهم بالتزول إلى البر، لأنهم يريدون احتلال النغر محافظة على مصر من الفرنسيين خوفاً من أن يعيدوا الكرة عليها فأجابهم الحاكم بأنه لا يأذن لهم بذلك إلا إذا كان معهم أمر من الدولة العلية، فلما وجد الإنكليز أنه لا بدّ من التزول إلى البر عتوه تأهبوا للقتال وأمهلوا المدينة أربعاً وعشرين ساعة، وقبل انقضاء هذا الميعاد سلم حاكم المدينة، المدعو أمين أغا من ضباط الإستانة، المدينة بدون أن يتعرض لمنع خروج العساكر إلى البر ولا لمنع تقدمهم نحو المدينة، بل قبل العار وسلم نفسه ومن معه من العساكر من غير أن يرمى شيئاً من المقدوفات عليهم وبهذه الكيفية تمكن الجنرال الإنكليزي من أخذ هذه المدينة الشهيرة بدون أن يفقد أحداً من عساكره^(١) فاحتلها الإنكليز في صبيحة يوم الجمعة ١٠ محرم سنة ١٢٢٢.

وذكر الجبرتي أنهم شرطوا مع الأهالي أنهم لا يسكنون البيوت قهراً عن أصحابها بل بالمأجرة والتراضي، ولا يمتحنون المساجد ولا يعطلون الشعاير الإسلامية وأعطوا أمين أغا نظير خيانتة أماناً على نفسه ومن معه من العساكر وأذنوا لهم بالذهاب إلى أي محل أرادوه ومن كان له دين على السديوان يأخذ

(١) الإسكندرية مدينة بحرية واقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وتبعد عن القاهرة بمسافة ١٣٢ كيلومتراً لمسها الإسكندر الأكبر سنة ٣٢٢ قبل المسيح واشتهرت بمكتبتها الشهيرة التي ينسب حرقها إلى عمرو بن العاص بإمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو خطأ بين كما يشهد التاريخ ثم فتحها الرومانيون سنة ٣٠ قبل المسيح ودخلها المسلمون سنة ٦٤٠ م (سنة ٢٠ هجرية) ثم استولى عليها السلطان سليم الأول العثماني سنة ١٥١٧ ميلادية.

نصفه حالاً والنصف الثاني موجلاً ومن أراد السفر في البحر من التجار وغيرهم يسافر في خفارتهم إلى أى جهة أراد ما عدا إسلامبول، وأما إلى الغرب والشام وتونس وطرابلس ونحوها فطلق السراح ذهاباً وإياباً وأن محكمة الإسلام تكون مفتحة الأبواب للمتقاضين تحكم بشريعتها الإسلامية ولم يكلفوا أهل الإسلام بإقامة دعوة عند الإنكليز بغير رضاهم. اهـ بتصرف.

واقعة رشيد:

أما الجنرال الإنكليزي، فمن بعد أن استراح بضعة أيام وجهز ما يلزم، أمر بتوجيه بعض عساكره إلى رشيد ليكون له في القطر موقع آخر وكان عدد من أرسل من الجند إلى نهر رشيد ألفى جندي منهم مائتان من البحرية، ولم تكن حامية رشيد مؤلفة إلا من بضع مئتين يرأسهم شخص ذو صداقة وشجاعة يسمى على بك، فلم يقلد أمين أغا حاكم الإسكندرية في تسليمه المدينة بل صمم على المدافعة والمكافحة عن المدينة بكثيرة قليلة العدد والعدد على قدر الإستطاعة، ثم أمر عسكره وشدد عليهم بأن لا يطلقوا بنادقهم مطلقاً حتى يشير إليهم ولما شاهد عساكر الإنكليز ما شاهدوه من هذه الحالة ظنوا أنهم لا يجدون مدافعة بل يدخلون نهر رشيد كما دخلوا الإسكندرية وكانوا في تعب من السير فدخلوا البلد بدون احتراس وانتشروا في أسواقها حيث وجدوها خالية خاوية، ثم بحثوا عن أمكنة يلتجأون إليها ويستريحون فيها وأغلبهم رموا أسلحتهم وناموا في الطرق، فلما رأى ذلك على بك وتحقق التمكن منهم، خرج عليهم بقليل من العسكر وأطلق النار على كل جهة كانوا موجودين فيها، ففاهم من ذلك دهشة عظيمة كأنما بحثوا من القبور وأخذ القشل فيهم ومما زاد في ارتباكهم إطلاق العسكر بنادقهم عليهم من الأبواب والشبابيك وأسطحة البيوت فبعد قليل من الزمن فرت الجنود الإنكليزية هاربة بدون انتظام إلى جهة الإسكندرية بعد أن هلك اللواء القائد لها وكثير أيضاً من الضباط ومائة جندي وأخذ منهم مائة وعشرون أسيراً ومدفعان، أما الهاربون فلم يزالوا يتحملون عناء السفر حتى وصلوا إلى الإسكندرية.

وذكر الجبرتي أنه في يوم الأحد السادس والعشرين من محرم سنة ١٢٢٢^(١) أشيع بالقاهرة خبر وصول رؤس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق فهرع الناس بالذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم للاقتحام وطلعوا بهم إلى البر ومعهم جماعة العسكر المتسفرين، فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا بهم من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم ضابطان وهما راكبان على حمارين والباقي مشاة في وسط العسكر ورؤس القتلى معهم على نيايت وقد تغيرت وأنتت رائحتها وكانت عدة الرؤس أربعة عشر والأحياء خمسة وعشرين ولم يزلوا سائرين بهم إلى بركة الأزبكية، ضربوا عند وصولهم شكاً وطلعوا بهم إلى القلعة وفي اليوم التالي وصل أيضاً إلى القاهرة عدة من الرؤس وثلاثة عشر أسيراً من الإنكليز وساروا بهم إلى القلعة بمثل ما حصل بهم في اليوم الذي قبله.

ولما وصل إلى محمد علي باشا خبر وصول الإنكليز إلى الإسكندرية وكان بالصعيد يحارب المماليك كتب إليهم بالصلح وأرسل إليهم المشايخ، يخشونهم على الاتفاق معه مخاربة الإنكليز فلم يقبلوا الصلح بل قالوا: لو تحققنا الأمن والصدق من مرسلكم لما حصل منا خلاف ولا حاربناه ولا قاتلناه ولكنه كثيراً ما يعدنا بمثل هذه المواعيد عند الإحتياج إلينا ثم لا يفي بما وعد، وحيث أنه قد تدمت دورنا وتفرق شملنا ولم يبق لنا ما نأسف عليه ونتحمل المذلة من أجله وقد ماتت إخواننا ومماليكنا فنستمر على ما نحن عليه حتى نفسى عن آخرنا ويستريح باله من جهتنا، فلاطفهم المشايخ وأقنعوهم بالصلح وقالوا لهم أنه أولى من تدخل الأجانب بينكم فقبل الكل وساروا إلى القاهرة.

وفي اليوم الثاني من شهر صفر سنة ١٢٢٢^(٢) عاد محمد علي باشا وأخذ في تحصين القاهرة بمساعدة قنصل فرنسا واستمر الأهالي في قلق واضطراب والجند

(١) ٢١ يربيل ١٨٠٧.

(٢) ١١ يربيل ١٨٠٧.

فى تأهب وسفر إلى يوم ١٤ منه، فوردت الأخبار بانتصار المصريين على الإنكليز فى ضواحي رشيد وقد عادوا إلى مهاجتها بعد انهزامهم أول مرة. وفى يوم ١٥ منه وصل إلى القاهرة من أسر فى هذه الواقعة ورؤس بعض القتلَى فأطلقت المدافع من الأزيكية والقلعة استبشاراً ثم أمر الباشا بإرسال الأطباء إلى القلعة لمعالجة الجرحى من أسراء الإنكليز والإعتناء بهم وتمييز الضباط عنهم فى المأكَل والمشرب وربت لهم المرتبات وقضوا مدة أسرههم فى مصر بغاية الإكرام.

وإليك تفصيل هجوم الإنكليز على رشيد نقلاً عن جريدة أركان حرب الجيش المصرى وذلك أنه لما وصل الإنكليز إلى الإسكندرية وجرى ما أسلفناه اغتاز الجنرال (فريزر) ١١١١ حصل لجنده فى رشيد فشكّل سرية أخرى وأرسلها إليها وكانت مركبة من ثلاث آلاف نفر وستة مدافع وأربعة قطع من المدفوعات تحت رياسة الجنرال (استيوارت) فلما وصلت تلك السرية إلى رشيد فى ١٨ إبريل سنة ١٨٠٧ وضع الجنرال المذكور بطريقتين فى القطعة المرتفعة من ناحية أبى مندور وتمكن من قرية الحماد ووضع فيها خمس بلوكات لأجل محافظة ووقاية الخلف، ثم ابتدأ المحاصرون، أى الإنكليز، فى ضرب النار فكلما تذكر المحصورون الظفر الذى نالوه فى الوقعة الأولى صبروا وتجلدوا وكانوا يرهبون الحاصرين فى غالب الأحيان بخروجهم إلى خارج البلدة وهجومهم عليهم فمكث ضرب النار أسبوعين بلا ثمرة وفى آخر تلك المدة أى فى ٢١ إبريل تعجب الفريقان من الإمدادية التى أتت على حين غفلة من طرف محمد على باشا فاستبشر المحصورون بذلك، وكان مقدار الإمدادية المذكورة ألفاً وخمسمائة سوارى وأربعة آلاف بيادة، وفى الحال انقسمت تلك العساكر إلى فرقتين إحداهما صغيرة واتخذت موقعها أمام الحماد والثانية كبيرة تحت رئاسة الكيخيا واتخذت موقعها فى برنال^(١) وكان عساكر الفرقتين يشاهد بعضهم بعضاً.

(١) هى قرية بمديرية الغربية بمركز دموق على الشاطئ الشرقى لفرع رشيد فى شمال قرية مطويس بينها وبين رشيد نحو ساعتين ومنها إلى فوة ٤ ساعات تقريباً وهى قرية مبنية بالأجر والطين وبها جوامع ومنارات ولطيفتها متصلة ببحيرة قنرلس ويزرع فيها الأرز كثيراً وسائر الأصناف المتعددة وكان لمحمد على باشا بها قصر ينزله وفيه توفي ولده الأمير أحمد باشا الشهير بطوسون ليلة الأحد ٧ ذى القعدة سنة ١٢٢١ هجرية.

وعند فلق صباح اليوم التالي هجمت الفرقة الصغيرة على مدفع الإنكليز الذي كان بالحماد بعساكر البيادة والسوارى لكنها تفهقرت فتيبها أحد بلوكات الإنكليز إلى مسافة بعيدة حتى انفصل البلك المذكور عن بقية الجيش وحينئذ رجع سوارى المصريين بالمهجوم على ذلك البلك ففرقته وقتلت منه عشرين نفراً وأسرت خمسة عشر، وفي الليلة التالية اقتحم الكيخا بعساكره نيران الإنكليز واجتمع مع قائد الفرقة الأخرى وفي هذه الليلة أخذ الجنرال (استيوارت) عساكر قره قول الحماد بخمس بلوكات فصار جميع القبول ٨٥٠ نفراً تحت قيادة الأمير الای (مكليود) وكان الأمير الای المذكور يظن حينئذ أنه لم يكن أمامه خلاف الفرقة الصغيرة لكنه لما رأى في الصباح أن جميع الجيش اجتمع أمامه وأخذ في السير لمهاجمته أمر بالتقهقر، إلا أنه غلط في تفهقره بسبب تجرئة قوته إلى سریات فجعل أولاهها مركبة من ثلاث بلوكات تحت رئاسة البيكباشی (مور) وثانيتها من بلوكين تحت رئاسته والثالثة من خمس بلوكات ومدفعين تحت رئاسة البيكباشی (وجلستر) ثم لم يسر أيضاً تلك السريات مع بعضها بل جعلها منفصلة عن بعضها بمسافات بعيدة، فعند ذلك انتظرت السوارى المصرية سرية البيكباشی (مور) حتى انفصلت من السريتين الأخريين وأحاطت بها من كل جانب ومكان حتى لم ينج من القتل إلا من أسرو وهو البيكباشی (مور) وقليل من الأنفار، ولما بعد الأمير الای (مكليود) مسافة نصف ميل أراد الرجوع والاجتماع مع سرية البيكباشی (وجلستر) لكن كان ذلك صعب المثل لأن السوارى المصرية لم تعمله بل أحاطت به فالتزم بأن يشكل سريته هيئة قلعة وتمكن بذلك من صد السوارى المصرية إلا أن عساكر البيادة أطلقت عليه نارا مدراراً وقتلته وكثيراً من الجنود، فأخذ اليوزباشی (ماكي) مكانه من الرئاسة وصمم على اقتحام وسط المصريين كي يلحق بإخوانه لكن لم تزل نيران بنادق المصريين تنهال عليه كالسيل، حتى لم يصل إلى البيكباشی (وجلستر) إلا بنفر قليل مقداره سبعة أشخاص، وأما البيكباشی (وجلستر)

فدافع بعد وصول الميرالاي (مكليود) بشجاعة وإقدام، لكنه التزم في آخر أمره أن يسلم نفسه ومن معه.

هذا وأما الجنرال (استيوارت) فأسرع في تسمير المدافع الكبيرة وحرق الذخيرة ثم قفل راجعاً إلى الإسكندرية مع ألفى نفر بقيت ممن كان معه من الجند وبعد الهزيمة الثانية التي حصلت للإنكليز أمام رشيد لم ير الجنرال (فريزر) من الحكمة أن يهاجم رشيد مرة أخرى حتى يحضر له إمداد من انكلترا، وخاف من هجوم عساكر الوالي عليه فأخذ في تحصين المدينة. اهـ بتصرف.

ولما رجع الإنكليز إلى الإسكندرية بعد هزيمتهم ثانی مرة أمام مدينة رشيد قطعوا جسر أبي قير الحائل بين مياه البحر المالح وأرض البحيرة لقطع المواصلات بين الإسكندرية وداخل القطر فعم الماء أغلب جهات البحيرة وخرّب بلادها وأنلف أرضها ومزروعاها وأعدم منها نحو مائة وأربعين بلداً بقي أغلبها إلى الآن وهي ما تراه بين إتكو وبحيرة المعدية إلى الحمودية وما جاور بحيرة مربوط ممسداً بالقرب من دمنهور.

خروج الإنكليز من مصر:

وفي وسط جمادى الثانية سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧م) سافر الباشا بنفسه إلى دمنهور وتكررت بينه وبين الإنكليز المكاتبات في شأن إخلاء الإسكندرية وتم بينهما الاتفاق على إخراجها وتعهده محمد على باشا بتسليم ما أخذ من عساكرهم أسرى في أثناء الحرب. وفي ٥ رجب أتت أوامر الباشا إلى العاصمة بإرسال الأسرى فأرسلوا إلى الإسكندرية، وبمجرد وصولهم نزل الإنكليز مراكزهم ورجعوا إلى بلادهم وكان ذلك في ١٠ رجب سنة ١٢٢٢ (٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) ولما وصل إلى القاهرة خبر زوال الخطر من احتلال الإنكليز الثغر الإسكندري ودخول محمد على باشا بها، أطلقت المدافع من القلعة ثلاثة أيام متوالية في الأوقات الخمس.

* * *

٣- حرب الحجاز

وفي آخر شهر ديسمبر من السنة المذكورة أتى فرمان محمد علي باشا من الدولة العلية يؤيده على ولاية مصر ويأمره فيه بإرسال تجريدة من مصر إلى العرب الوهابيين الذين غلبوا بلاد العرب ومدينتي مكة والمدينة المنورة وصاروا يؤذون حجاج بيت الله الحرام واتسع حكمهم وتفاقم أمرهم حتى خشيت الدولة العلية بأسهم وجردت الجيوش لهم فعادوا بالخبية والوبال.

ولقد أردت قبل تفصيل ما جرى بين المصريين وبينهم من الحروب أن أذكر نبذة من مذهبهم عثرت عليها بالجملة الفرنسية المسماة (جورنال آزياتيكا) نشرت في هذه الجملة باللغة العربية وها هي بحروفها:

إن الوهابيين قوم من العرب تمذهبوا بمذهب عبد الوهاب وهو رجل ولد بالدرعية، وهي مدينة بأرض العرب من بلاد الحجاز، وكان من وقت صفوه تظهر عليه النجابة وعلو الهمة والكرم وشب على ذلك واشتهر بالمكارم عند كل من يلوذ به وبعد أن تعلم مذهب أبي حنيفة في مدارس بلاده سافر إلى أصفهان ولاد بعلمائها وأخذ عنهم حتى اتسعت معلوماته في فروع الشريعة وخصوصاً في تفسير القرآن ثم عاد إلى بلاده في سنة ١١٧١ هجرية (١٧٥٧م) فأخذ يقرّر مذهب أبي حنيفة مدة ثم أذته ألعينه إلى الإجهاد والاستقلال فأنشأ مذهباً مستقلاً وقرّره لتلامذته فاتبعوه وأكبوا عليه ودخل الناس فيه بكثرة وشاع في نجد والإحساء والقطيف وكثيراً من بلاد العرب مثل عمان وبنى عتبة من أرض اليمن، ولم يزل أمرهم شائعاً ومذهبهم متزايداً إلى أن قبيض الله لهم عزيز مصر محمد علي باشا فأطفا سراجهم في سنة ١٢٣٢ (١٨١٦م) وكسر شوكتهم وأخفى ذكرهم وهالك رسالته من كلامهم تدل على بعض مذهبهم ومعتقداتهم:

اعلموا رحمكم الله أن الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام وهى أن تعبد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فإذا عرفت أن الله سبحانه وتعالى خلق العباد للعبادة فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحديث إذا دخل في الطهارة كما قال تعالى "ما كان للمشركين أن يعملوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه من جلب خير أودفع ضرراً فقد أشرك في العبادة كما قال تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين" وقال تعالى "والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير" فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يا رسول الله أو يا ابن عباس أو يا عبد القادر زاعماً أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه فهو المشرك الذى يهدر دمه وماله إلا أن يتوب من ذلك، وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذى يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجئ إلى غير الله أو يستعين بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو أيضاً مشرك، وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذى قال الله فيه "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" وهو الذى قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين وأمرهم بإخلاص العبادة كلها لله سبحانه وتعالى.

ويصح ذلك أى التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله فى كتابه أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرّون أن الله هو الخالق الرازق الحى المميت المدير لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت

ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فيقولون الله فقل أفلا تتقون" وقوله تعالى "قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجزى ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأتى تسحرون" فإذا اعترفوا بذلك ثم توجهوا إلى غير الله يدعونه من دونه وهو لا يملك كشف الضر عنهم ولا تحويله فلا بد أن يشركوا.. القاعدة الثانية أنهم يقولون ما نرجوهم إلا لطلب الشفاعة عند الله سبحانه وتعالى ونحن نريد من الله لا منهم ولكن بواسطتهم وشفاعتهم وهذا شرك أيضاً والدليل عليه قول الله تعالى "ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون" وقال تعالى "الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار"، فإذا عرفت هذه القاعدة أيضاً فاعرف القاعدة الثالثة وهى أن منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ومنهم من تبرأ من الأصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون رحمته ويفرق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين بل حكم على الجميع بالكفر وقتلهم حتى يكون الدين لله، وإذا عرفت هذه القاعدة فليكن بالقاعدة الرابعة وهى أنهم يخلصون لله في الشدائد وينسون ما يشركون به والدليل على ذلك قوله "فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون" وأهل زماننا يخلصون الدعاء في الشدائد لغير الله سبحانه، فإذا عرفت هذه القاعدة فسلم القاعدة الخامسة وهى أن المشركين في زمن السنى أخف شركاً من عقلاء مشركى زماننا لأن أولئك يخلصون لله في الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم في الشدة والرخاء ولم يعلموا قوله عليه السلام تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة والله أعلم بالصواب.

هذا ولما أتى ذلك الفرمان إلى محمد علي باشا بذل جهده في تجريد العسكر وجمع لهم ما يلزم من مؤن وذخائر مع صعوبة هذا الأمر في الوقت الذي كانت فيه الممالك متحيزة عليه، فضلاً عن أن خزينته خالية إذ ذاك من النقود ولما كان على يقين من أن السفر بطريق البر صعب يهلك فيه كثير من العساكر وهائم النقل أيضاً، أصر على أن يتخذ طريقه البحر الأحمر حيث كان سهلاً لنقل جنوده إلى فرضة جدة، ولم يغيره عن هذا العزم عدم وجود مراكب له لنقل الجند بل أصدر أوامره إلى سائر جهات القطر المصري بجمع الأخشاب وما يلزم لإنشاء خمسة عشر سفينة^(١) فوردت ووضعت في الترسانة ببولاق مصر القاهرة وتجهزت للتركيب ثم نقلت على ظهور الجمال إلى ميناء السويس، فركبت هناك وبينما هو آخذ في التجهيز إذ حضر رسول من قبل السلطان إلى القاهرة ومعه سيف برسم طوسون باشا ولد المرحوم محمد علي باشا المعين لقيادة الحملة المزمع إرسالها إلى الحجاز بخارية الوهابيين، وجواب من الباب العالي يحثه على الإسراع في إرسال تلك الحملة، فسافر إلى السويس لإنجاز تلك التحضيرات وبينما هو مقيم بها إذ اكتشف مكيدة من الممالك لإختطافه أثناء عوده من السويس إلى مصر، ولما كان دائماً يدبر في طريقة للتخلص من شرهم قبل سفر الجند إلى بلاد العرب خوفاً من قيامهم عليه والفتك به، انتهز هذه الفرصة لإتمام ما ينويه لهم منذ دخوله مصر ولأجل أن لا يقع في أيديهم ركب هجيناً جيداً أوصله إلى القاهرة في ليلة واحدة وليس معه إلا خادم واحد حتى نجا بنفسه من تلك المهلكة وشرع في تنفيذ ما عزم عليه.

(١) قال الجبرتي في حوادث سنة ١٢٢٤ لـ محمد علي باشا لما عزم على حرب الوهابيين شرع في شهر ذي الحجة في إنشاء مراكب البحر للقيام بطلب الأخشاب الصالحة لذلك وأرسل المعينين لقطع لشجار الفتوت والنبق فتجمعت من جهتي القطر القبلي والبحري وجعل بساحل بولاق ترسفة وورشات وجمعوا أرباب الصنائع كالنجارين والنشازين وغيرهم لتهيئها وكتلت تحصل الخشب على الجمال وتركبها الصناعات بالسويس ويقلطونها ويبيضونها ويلقونها في البحر فعملوا أربع سفن كبار إحداهما تسمى الإبريق وخلاف ذلك ودورات لحمل المسافرين والبضائع.

واقعة القلعة:

تفصيل ذلك على ما جاء في الجبرتي إن العزيز محمد علي باشا لما قلد ابنه طوسون سر عسكر الركب المتوجه إلى الحجاز وخرجت جيوشه إلى قبة العزب ونوه بتوجيه العساكر إلى جهة الشام لتمليك يوسف باشا محله الذي كان عزل عنه، وجعل رئيسهم شاهين بك الألفي واختار يوم الجمعة للسفر (٥ صفر سنة ١٢٢٦ الموافق أول مارث سنة ١٨١١) فلما كان يوم الخميس طاف ألابي جايوش بالأسواق على الهيئة القديمة في المنادة للمواكب العظيمة وهو لابس الضلعة والطبق^(١) على رأسه، وراكب حماراً عالياً وأمامه مقدم بعكاز وحوله قبجية ينادون بقولهم (يارن ألابي) يريد بذلك إعلامهم بحصول الموكب ويكررون ذلك في جميع أنحاء المدينة وطافوا بأوراق التنبيهات على كبار العسكر والأمراء المصريين الألفية^(٢) وغيرهم يطلبونهم للحضور في باكر النهار إلى القلعة ليركب الجميع بتجملاتهم وزياتهم أمام الموكب.

فلما أصبح يوم الجمعة ركب الجميع في الساعة الخامسة وطلعوا إلى القلعة وطلع المصريون بماليكهم وأتباعهم وأجنادهم فدخل الأمراء عند الباشا وحيوه وجلسوا معه مدة من الزمن وشربوا القهوة وتضاحك معهم، ثم سار الموكب على الوضع الذي رتبوه فسارت طائفة الدلاة وأميرهم المسمى أزون علي ومن خلفهم الوالي (حاكم القاهرة) والجنسب والأغا والوجاقلية والألداسيات^(٣) المصرية ومن تزيابزهم ومن خلفهم طوائف العسكر الخيالة والمشاة والبكباشيات وأرباب المناصب وإبراهيم أغا (أغا الباب) وليمان بيك البواب يذهب ويحج ويرتب الموكب.

(١) الضلعة لباس قديم مفتوح من الأمام يشبه الجبة يصنع من الجوخ والطلق لباس للراش (المحرر).

(٢) أتباع محمد بك الألفي (المحرر).

(٣) الوجاقلية تنعى رجال الوجقات أي الفرق العسكرية والألداسيات تنعى رفاق الطريق وتطلق على أعضاء الجماعة الواحدة (المحرر).

وكان العزيز قد أصرّ على قتل جميع الأمراء المماليك وأتباعهم ليتخلص من شرهم ويريح القطر من أذاهم وسلبهم ونهبهم وأسّر ذلك إلى حسن باشا وصالح قوج والكخذاء فقط، وفي صبح ذلك اليوم أسّر به إبراهيم أغا (أغما الباب)، فلما سار الموكب وانفصل الدلاة ومن خلفهم من الوجاقيلية والألدشات المصرية عن باب العزب، أمر صالح قوج عند ذلك بغلق الباب وعرف طائفته بالمراد فالتفتوا ضارين للمصريين (يقصد بذلك المماليك) وقد انحصروا بأجمعهم في المضيق المنحدر، وهو الحجر المقطوع في أعلى باب العزب، فيما بين الباب الأسفل والباب الأعلى الذي يتوصل منه إلى سوق القلعة، وكانوا قد أوقفوا عدة من العسكر على الحجر والحيطان فلما حصل الضرب من أسفل، أراد الأمراء القهقري فلم يمكنهم ذلك لإنتظام الخيول في مضيق النقر وأخذهم ضرب البنادق والقرايين من خلفهم أيضاً ولما علم الواقفون بالأعلى المراد ضربوا أيضاً، فلما رأى المصريون (المماليك) ما حل بهم ارتبكوا في أنفسهم وتحيروا في أمرهم، ووقع منهم أشخاص بكثرة فترلوا عن الخيول واقتحم شاهين بيك وسليمان بيك البواب وآخرون وعدة من مماليكهم راجعين إلى فوق، والرصاص ينصب عليهم من كل فج ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة ولم يزالوا سائرين شاهرين سيوفهم حتى وصلوا إلى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة وقد سقط أكثرهم وأصيب شاهين بيك وسقط إلى الأرض فقطعوا رأسه وأسرعوا بها إلى الباشا ليأخذوا البقاشيش، وكان الباشا عندما سار الموكب قد ركب من ديوان السراى إلى بيت الحرم وهو بيت إسماعيل أفندى الضربخانة، وأما سليمان بيك البواب فهرب من حلاوة الروح وصعد إلى حائط البرج الكبير فتبعه الجند بالضرب حتى سقط وقطعوا رأسه أيضاً، وهرب كثير إلى بيت طوسون باشا فقتلوه وأسرف العسكر في قتل المصريين (المماليك) وسلب ما عليهم من الثياب وقتلوا معهم من رافقهم من طوائف الناس وأهالى البلد وكل من تزيا بزيتهم وقبضوا على من

أدرك حياً وقتلهم في حوش الديوان واستمر القتل من ضحوة النهار إلى مضي جزء من الليل على المشاعل.

هذا ما حصل بالقلعة وأما أسفل المدينة فإنه عندما أغلق باب القلعة وسمع من الرميلة صوت الرصاص وقعت الكيسة في الناس واتصلت بأسواق المدينة وأغلق الباعة حوانيتهم وانتشرت العساكر إلى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم كالجراد ونهبوها نهباً بليغاً حتى حلتى النساء، وركب الباشا ضحوة ثلثي يوم ونزل من القلعة بموكب حافل ومنع النهب ودخل بيت الشرفاء وجلس عنده ساعة لطيفة، وكذا ابنه طوسون دخل البلد ومنع العسكر من الإفساد والنهب وأرسل الباشا إلى القرى والبلدان بضرب عنق من وجدوه بها من الكشاف التابعين للمصريين (المماليك) فضربت أعناقهم ومات في هذه الواقعة نحو الألف ما بين أمير وكاشف وجندى وكانوا يحملونهم على الأخشاب ويرمونهم عند المغسل بالرميلة وقد جردوهم من ثيابهم وألقوهم بحفرة من الأرض، قيل إنهم بقره ميدان، ولم ينج من الألفين إلا أحمد بيك زوج عديلة هانم فإنه كان غائباً بناحية بوش وأمين بيك تسلق من القلعة وهرب إلى ناحية الشام، ومن قتل من مشاهيرهم شاهين بيك كبير الألقية ونعمان بيك وحسين بيك الصغير ومصطفى بيك الصغير ومراد بيك الكلارجي ومرزوق بيك بن إبراهيم بيك (انتهى ملخصاً بعض تغييرات) وكان موقم رحمة للعباد وعمارة للبلاد وأمنت بعدهم السبل براً وبحراً.

أما ما تواتر على الألسن من أن أمين بيك عندما حصلت المذبحة هم بمحواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو فقط فذلك أمر مبالغ فيه إن لم يكن محض اختلاق.

ولما خلاص من شرهم بقتلهم أخذ في تجهيز التجريدة بكل جـد واجتهاد فجمع ستة آلاف من البيادة وألفين من السوارى ومثلهما من الطوبجية وجعل قيادة هؤلاء لنجده طوسون باشا كما مر وفي شهر شعبان سنة ١٢٦٦ نزلت

البيادة في المراكب وسافرت قاصدة فرضة ينع، وأما السوارى سافرت عن طريق البر تحت قيادة طوسون باشا، فلما وصلت الدونامة المصرية إلى ينبع قابلهما السكان بغاية الفرح وأما قائدهم الأعظم فقد وصل لهم بعد قليل مع من كان بصحبته من السوارى ولما كان طوسون باشا شاباً ذا جسارَة وجرأة اعتمد على بأس عسكره وحسن أسلحتهم بالنسبة لأتباع الوهابي وأجتناده ولم يستعمل مع قبائل العرب ما يجذب قلوبهم إليه، بل ابتدأ بالسير نحو المدينة المنورة فتجمع الوهابيون ووقفوا له بالقرب من مدينة بدر الشهيرة بانتصار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على كفار قريش فهجموا على المصريين بشدة وعادوا بالغلبة إلا أنهم تقهقروا بغاية النظام واحتموا في متاريس أقاموها هناك لكن لم يثن ذلك طوسون باشا عن عزمه بل أمر حالاً بالهجوم عليها فتقدمت البيادة بقوة على تلك الخطوط حتى إنهم أخذوا الخط الأول من هذه المتاريس ثم تقدمت نحو الخط الثاني الذي كان آخذاً من التانة مكاناً عظيماً ودافعت عنه الوهابيون بغاية القوة والشجاعة حتى اضطر المصريون إلى القهقري، ثم وقع الخوف في صفوف المصريين وفروا من أمام العدو عائدين إلى فرضة ينع بصفة غير منتظمة وهلك منهم خلق عظيم من شدة الجوع والعطش وجهلهم بالطريق ولولا قلة عدد الوهابيين الذين لم يتمكنوا من اتباع أثر المصريين لما نجا منهم أحد.

ولما علم محمد على باشا بهذا الإنكسار الذي لم يخطر له على بال أرسل المدد إلى ولده طوسون باشا ومقداراً عظيماً من المؤن والذخائر لتعويض ما فقد منه في واقعة بدر وأمر بعزل ونفى أغلب رؤساء العسكر الذين هربوا وقد تحصن طوسون باشا بعد ذلك في مدينة ينبع وبادر بترتيب عساكره وفي هذه المرة لم يهمل في إجراء الطرق اللازمة لجذب قلوب ومودة القبائل التي كانت غير راضية بأحكام الوهابيين، وبعد أن تحقق من مصافاة وموالاة القبائل القاطنة بين ينبع والمدينة ومن انتظام جيشه خرج قاصداً المدينة المنورة فوصلها بدون أن يصادف أدنى معارضة في الطريق وابتدأ الحصار لكنه لم يرغب في استعمال المدافع لإجراء فتحة في سور المدينة لدخول الجند خوفاً من أن تصيب بعض

مقدوفاتها حيطان الحرم النبوي، فاستعمل اللغم حتى إذا جهزه أرسل لسكان المدينة بأن كل من لم يكن وهابياً فليزى بزي مغاير لزي هذه الطائفة وبعد ذلك أطلق اللغم فهدم جزءاً عظيماً من السور يمكن الجيش الدخول منه، فأمر طوسون باشا إذ ذاك بمهاجمة المدينة ودخولها عنوة فهاجتها الجيوش المصرية ودخلتها لكن بعد عناء كثير واستخلصت المدينة المنورة من يد هذه الفئة العاتية الخارجة عن طاعة أمير المؤمنين.

ثم أخذ طوسون باشا بعسكره في تحصين خط الرجعة إلى مدينة ينبع التي هي قاعدة أعماله وبعد ما تم هذا العمل سافر إلى فرضة جدة حيث كان الشريف غالب مقيماً ففتحت له أبوابها بغاية السهولة والسرور والإنشراح ومن هناك سار السر عسكر بجيشه نحو مدينة مكة لاستخلاصها من أيدي الوهابيين فوصلها ودخلها بدون قتال لقيام الأهالي على الفرقة الحافظة وطردها إياها حينما علموا بقدوم الجيوش المصرية. فحينئذ كتب السر عسكر المصري لوالده أن طريق حج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه السلام صار آمناً وسهلاً للقاصدين ووصل هذا الخبر أولاً إلى مصر ثم إلى اسلامبول في شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٧^(١)، ثم أراد طوسون باشا أن يحتل مدينة الطائف لأهميتها بالنظر لمكة المشرفة، ولهذا السبب كان قد حصنها سعود زعيم الوهابيين وأودع فيها السلاح وجعل فيها مخازن ممتلئة من الذخائر ووضع فيها ما ينيف على ألف شخص من أجود جنوده وأشدهم بأساً وأكثرهم دريةً وعلماً بفنون الحرب.

لكن لما علم السردار أن ما معه من الجنود لا يكفي لفتح هذه البلدة عنوة، أرسل فريقاً من جيشه لمحاربتها ومنع وصول المدد إلى حاميتها حتى إذا أئتمته النجدة من مصر هاجمها بكل قواه، لكن لحسن حظه لم يلبث قائد الحامية الوهابية أن ترك مركزها هارباً بمجرد وصول الجند المصري المرسل لمحاصرته، وتيسر بذلك للمصريين دخول هذه النقطة المهمة بدون قتال ولا جدال، فاعتاظ

(١) نوفمبر ١٨١٢.

لذلك سعود زعيم الوهابية وخشى من تقدم المصريين فجمع كل ما كان عنده من القوى وقسمهم إلى فرقتين عظيمتين كل منهما تزيد عن المصريين عدداً، ومؤلفة من أناس أقوياء وذوى بأس شديد وجعل نفسه رئيساً على إحدى هاتين الفرقتين وجعل الأخرى تحت قيادة ولده المدعو فضل الله وأرسلها إلى ثُرّة ليجعلها قاعة لإعماله ومستقراً لمؤنته وذخائره، وكان هو ومن معه من جنود الفرقة الأولى متجمعين في شمال ثُرّة ومستعدين لمساعدتها إذا اقتضى الحال ذلك، وفي أثناء هذه المدة كانت سوارى الوهابيين تناوش الجنود المصرية وتقتل كل من تأخر منهم في المسير.

ولما علم طوسون باشا بهذه الحركات العدوانية جمع ما تفرق من جنوده وتأهب لصدة الوهابيين على قدر الطاقة وربما يأتيه المدد، لكن سبقه سعود وهاجم فجأة مدينة الحناكية واضطر قائد حاميتها المدعوّ عنان كاشف إلى التسليم بعد عدة هجمات عنيفة، لكن أطلق سعود سبيله وسبيل الحامية بشرط أن يسلموا أسلحتهم ويتوجهوا إلى بغداد ويقسموا بأن لا يحملوا السلاح أبداً في مواجهة الوهابيين ثم أرسل طوسون باشا فرقة عظيمة تحت قيادة أحد قواده المشهورين إلى مدينة ثُرّة لاستخلاصها من أيدي الوهابيين، لكن بمجرد قربهم من تلك المدينة خرج عليه الوهابيون وهجموا عليه من كل حذب وناحية حتى اضطر إلى التقهقر والعود إلى الطائف واقتفى الوهابيون أثره حتى دخل المدينة، وكان ينعم بما طوسون باشا فأحدقوا بها وقطعوا المواصلات بين المدين السقى شغلها بمساركه فكتب لوالده بإرسال المدد.

سفر محمد على باشا إلى الحجاز:

فعمد محمد على باشا عند ذلك على السفر بنفسه إلى بلاد الحجاز لقطع دابر الوهابيين وسافر من مصر بجيش عظيم على طريق السويس فوصل جدة في يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٨١٢ وسافر حالاً إلى مكة وقبل أن يشرع في عمل ما أصرّ على القبض على الشريف غالب الذي مكن الوهابيين من الإستيلاء على

مدينتي مكة والمدينة بهروبه والتجائه إلى جدة وكان مذبذباً بين الوهابيين
والمصريين ليرى أيهما يفوز بالنصر ويتبعه.

القبض على الشريف غالب:

وكيفية القبض عليه على ما جاء في الجبرتي أنه لما ذهب الباشا إلى مكة
استمر هو وابنه طوسون باشا مع الشريف غالب على المصادقة وبساط
المصافاة، وجدد معه العهد والميثاق والإيمان في جوف الكعبة بأن لا يكون أحد
صاحبه وكان الباشا يذهب إليه في قلة، والآخر يأتي إليه وإلى ابنه كذلك
واستمروا على ذلك مدة، وفي خامس عشر ذي القعدة دعاه طوسون باشا فأتى
إليه في قلة كالعادة فوجد بالدار عساكر كثيرة عندما استقر المجلس ووصل
عابدين بيك في عدة وافرة وطلع إلى المجلس فدنا منه وأخذ الجنيبة من حزامه
وقال: أنت مطلوب للدولة فقال: سمعاً وطاعة ولكن صراً حتى أقضى أشغالي في
مدة ثلاثة أيام وأتوجه إليها، فقال عابدين بيك لا سبيل إلى ذلك والسفينة
حاضرة في انتظارك، فحصل في جمعية الشريف وعبيده رجة، وصعدوا على
أبراج السراية وأرادوا الحرب فأرسل إليهم الباشا يقول لهم إن وقع منكم
حرب أحرقت البلد وقتلت أستاذكم، وأرسل أيضاً لهم الشريف يكفهم عن
ذلك وكان بهذه السراية أولاده الثلاثة فحضر إليهم الشيخ أحمد تركي وهو من
خواص الشريف وحزبه، وقال لهم لم يكن هناك بأس وإنما والدكم مطلوب في
مشاورة مع الدولة ويعود لكم بالسلامة وحضرة الباشا يريد أن يقلد كبيركم
نيابة عن أبيه إلى رجوعه ولم يزل يكرر حتى انخدع كبيرهم لكلامه، وقاموا معه
فذهب بهم إلى محل غير الذي به والدهم ووضعوا تحت الحفظ وفي الوقت نفسه
أحضر الباشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخى الشريف غالب وخلع عليه
وقلده إمارة مكة ونودى في البلدة باسمه وعزل الشريف غالب حسب الأوامر
السلطانية واستمر الشريف غالب عند طوسون باشا حتى أركبوه وأصحبوا معه
عدة من العسكر وذهبوا به وأولاده إلى بندر جدة وأنزلوهم السفينة وساروا
بها من ناحية القصير إلى صعيد مصر.

ثم ذكر الجبرتي في حوادث شهر محرم سنة ١٢٢٩ خبر وصول الشريف غالب إلى القاهرة فقال وفي يوم الأحد سابع عشرة وصل السيد غالب شريف مكة إلى مصر القديمة وقد أتت به السفينة من القلزم إلى مرفأ نغر القصر فتلقيه إبراهيم باشا وحضر معه إلى قنا وقوص ثم ركب النيل بمن معه من أولاده وعبيده والعسكر الواصلين معه وحضر إلى مصر القديمة فلما وصل الخبر إلى كندا بيك ضربوا عدة مدافع من القلعة إعلاماً بوصوله وإكراماً لمقامه، على حدّ قوله تعالى "ذق إنك أنت العزيز الكريم" هذا وبعد سفر الشريف غالب إلى مصر أمر محمد على باشا ولده طوسون باشا بالمسير إلى مدينة تربة لانه التزم بالبقاء في بلدة تدعى (الكلخة) بين الطائف وتربة عدة أيام لتأخر الشريف راجع في إحضار الجمال التي كلفه الباشا بإحضارها للحملة.

ولما علم طوسون باشا أن المؤن كادت أن تنفذ أمر بالسفر نحو مدينة تربة وهي لا تبعد عن الكلخة إلا مسافة أربعة أيام، ولكنه أبطأ بهم راجع في الطريق حتى نفذت، فحينئذ اضطر للرجوع خوفاً من موت عساكره جوعاً فعند ذلك انضم الشريف راجع إلى عساكر الوهابيين لأنه كان متفقاً معهم على خيانة المصريين والإيقاع بهم، فلما تقهقر المصريون عاد مع الوهابيين للهجوم عليهم فقابلهم طوسون باشا وصدّهم وفي أثناء ذلك ورد له المدد والمؤن فعاد بالكرة إلى تربة ولم يتمكن من فتحها، بل رجع ثانياً إلى الكلخة ومنها إلى الطائف وكسب إلى والده بمكة يخبره بأنه تقهقر بسبب خيانة العرب ورئيسهم الشريف راجع وأنه التزم بإحراق الخيم التي كانت معهم وكثير من لوازم العسكر حتى لا تقع في أيدي العدو.

ولقد أرسل محمد على باشا فرقة أخرى على طريق البحر لإحتلال مدينة (قنفذه) فرضة إقليم العسير تحت قيادة المدعو زعيم أوغلى فاحتلها بدون معارضة، ثم تركها عند مهاجمة العرب له. وتفصيل ذلك على ما جاء في الجبرتي أن المصريين طلعوا عليها وملكوها بدون ممانع ولا مدافع وليس بها غير أهلها

وهم أناس ضعاف فقتلوهم وقطعوا آذانهم وأرسلوها إلى مصر ليرسلوها إلى إسلامبول فعندما علم العرب ويقال لهم عرب العسير بمجئ المصريين تركوها وتنازلوا عنها، ولهم رئيس يسمى طامي، فلما استقر المصريون ومضى عليهم نحو ثمانية أيام رجعوا عليهم وأحاطوا بهم ومنعواهم الماء فعند ذلك ركبوا عليهم وحاربوهم فاهزموا وقتل الكثير منهم ولم ينج إلا نحو سبعة أشخاص وزعيم أوغلي، فقولوا في سفينة وهربوا فغضب الباشا لأنه كان أرسل لهم نجدة من الخيالة فحاربتهم العرب ورجعوا منهزمين من ناحية البر. اهـ.

لكن لم تؤثر هذه الهزيمة على عزيمته محمد علي باشا بل أمر عابدين بيك بالسفر مع فرقة لإحتلال إقليم زهران منعاً للتعدي الحاصل من أهاليه على القوافل ولعدم اجتماع قوات اليمن مع جنود الوهابيين فاحتلها بعد محاربة عنيفة استمرت ثلاثة أيام متوالية وبعد قليل أتى إلى العدو المدد من الدرعية التي هي قاعدة الوهابيين ومن بلاد اليمن، ولمعرفة العرب بالطرق ومفاوز الجبال لم يتمكن عابدين بيك من محاربتهم محاربة أصولية بل صاروا يكمنون له في المضائق ويمنعون جنوده من أخذ العلف لحيوهم من المراعي المجاورة لهم ولهذا هلك خلق كثير من جنود المصريين حتى اضطر آخر الأمر عابدين بيك للتقهقر إلى الكلخة ولم يلبث بها إلا قليلاً لأن الوهابيين ألزموه بالرجوع إلى الطائف حيث كان طوسون باشا مقيماً وحاصره الوهابيون فيها.

فلما أرسل لوالده بجدة ليعلمه بما هو فيه من الضيق قام في الحال مع قليل من الجند قاصداً، مدينة الطائف لفتك الحصار عنها وطرد الوهابيين ولما وصل إلى جبل يقرب من الطائف أراد الإستراحة وإمضاء الليل وفي أثناءه قبض محافظه على أعرابي أت من الطائف، فأيقظوه فاستفهم منه عن قوة الحاصرين ولما علم منه ما كان يريد أعطاه مكافأة جزية ولم يعلمه بحقيقة أمره بل قال له أنه قائد لمقدمة عساكر المصريين، وأن محمد علي باشا قادم خلفه بجيش عرمرم لمحاربة الوهابيين، ثم دفع إليه خطاباً وكلفه بتوصيله إلى طوسون باشا فشكره الأعرابي

وأوصل الخطاب للمرسل إليه وكان فيه إخبار طوسون باشا بوجود والده بالقرب من المدينة وأمره بالخروج منها بكل قواه للملاقاة.

ففي أصيل اليوم التالى أطلقت المدافع من المدينة استبشاراً بهذا المدد غير المنتظر وخرج طوسون باشا وعابدين بيك من المدينة فظنّ الوهابيون أنهم سيكونون بين جيشين لما بلغهم من الأعرابي من قدوم محمد على باشا وجيشه فولوا الأدبار ولجؤا إلى الفرار وبذلك نجح تدبير الباشا وخلص جيشه وابنه بدون قتال ولا حرب ولا نزال.

وبعد أن تم النصر محمد على باشا بدون إهراق دم عاد إلى جدة ومكث فيها شهرين جهز في أثنائهما ما يلزم لتميم فتح بلاد العرب وتخليصها من الوهابيين وأحضر من مصر ما يلزم من العساكر والذخائر وأرسل ولده طوسون باشا إلى نجرينع لجمع الجيش اللازم لاحتلال مضائق (الصفراء) وأمره أيضاً باستعمال الرفق واللين مع العرب وبذل المهمة في كل ما يمكن استمالتهم به إليه.

فلما وصل طوسون باشا إلى ينبع ابتدأ يطلب مشايخ القبائل فلبوا دعوته وحضروا بين يديه فأحسن وفادقهم وأجزل إليهم العطايا حتى خرجوا من عنده مسرورين ثم أرسل إلى مشايخ قبيلة حرب، النازلة بين ينبع ومضائق الصفراء، وبعث لهم من عنده رهائن كى لا يخشوا الجي إلى وطلب منهم مقابلته في مدينة بدر وزحف إلى هذه النقطة بمدفعين وأربعة آلاف عسكرى من المشاة فلما وصلها وجدها خاوية على عروشها لا ترى بها صغيراً ولا كبيراً، لأن أهلها حينما علموا بقدوم المصريين هاجروا منها وتركوها كما علمت فكتب إليهم بالعودة وعمهم بنواله حتى استعملهم في نقل المؤن إليه من ينبع وكان يعطيهم على ذلك أجرة معينة وبعد قليل أتى إليه مشايخ حرب وتظلموا بين يديه من تعذى حاكم المدينة عليهم وقتله شيخهم الأكبر بغير حق فاعتذر لهم بما وقع من هذا القائد وأعلمهم بأن ذلك لم يكن بعلم والده وأنه لابد أن يذيقه ما ذاق كل ظلم جزاء على ما كان منه، ثم أعطاهم من الخلع ما ينيف على ألفين وثلاثين

كشمرأً وصادف ذلك ورود الخبر بموت هذا الحاكم، فأبهم عليهم الأمر طوسون باشا، وأخبرهم بأنه قتل بإذن والده جزاء على ما أتاه جنده من القتل والنهب فانشرحت لذلك صدورهم واطمأنت خواطرها وما زاد في تعلقهم بالحكومة المصرية صدور أمر محمد على باشا بتعيين أحد مشايخهم المدعو غسانم بن مدين حاكماً على المدينة المنورة.

وبعد ذلك قام طوسون باشا وجيشه لاحتلال مضائق الصفراء والجديدة فاحتلها بدون ممانع وأحدث قلاعاً في أولها وآخرها وحصنها بالمدافع وأودع فيها ما يلزم من أنواع الذخائر والمؤن ثم سافر قاصداً المدينة المنورة وكان ذلك في أوائل شهر ذي الحجة سنة ١٢٢٩ فأقبل الحجاج من كل فج.

وبعد أن أذى محمد على باشا ومن معه فريضة الحج وعاد الحجاج إلى أوطانهم شاكرين همنه على ما أتاه من إقامة شعائر الحج وإعادة ما كانت عليه أرسل الباشا عدداً عظيماً من الجند إلى مدينة الطائف للإستعداد لخاربة الوهابيين لما رأى فيهم محمد على باشا من الضعف المبين بسبب موت زعيمهم سعود في ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٢٢٩ الموافق (١٧ إبريل سنة ١٨١٤).

وكان الوهابيون قد تجمعوا زهاء عشرين ألفاً بالقرب من مدينة تربة فهاجمتهم الجيوش المصرية ولم يكن النصر لأحد من الفريقين وفي صبيحة ذلك اليوم الموافق (١٠ يناير سنة ١٨١٥) وصل إلى المعسكر محمد على باشا بنفسه ومعه بقية الجيش ووجه كل قواه أولاً لخاربة الجيش الآتي من جهة اليمن، فهزمه ثم قهر الجيش الوهابي الذي تحت قيادة فيصل بن سعود، ولما لم يبق أمامه من يعوقه في السير تقدم نحو مدينة تربة فاحتلها واحتل أيضاً مدينة بيشة وريسة وكان لإنتصاره هذا وقع عظيم في قلوب الوهابيين فانضم إليه كثير منهم ومن قوادهم وصار يقطعهم المدن والقرى ليزيد ارتباطهم به وإطاعتهم له.

ثم توجه الجيش إلى بلاد العسير الواقعة في جنوبي مكة وحارب جنود الأمير طامى الذى حارب المصريين في قنفذة على البحر الأحمر واضطر زعيم أوغلى إلى اختلالها، ثم صار القبض عليه بمساعدة حسن بن خالد قائد جيوش أمير قنافة وأرسل إلى مصر ومنها إلى إسلامبول حيث قتل.

وذكر الجبرتي في أخبار سنة ١٢٣٠ وصول الأمير طامى إلى مصر فقال وفي يوم الجمعة ثامن عشر شهر جمادى الأولى وصل طامى إلى البركة والمحمل إذ ذاك بها، فخرجت جميع العساكر في ليلة الإثنين الحادى والعشرين منه وساروا في صبيحتها طوائف وخلفهم الحمل وبعد مرورهم دخلوا بطامى المذكور وهو راكب على هجين وفي رقبته الحديد والجزير مربوط في عنق الهجين وصورته رجل شهيم عظيم اللحية وهو لابس عباءة عبدانية وكان يقرأ وهو راكب وعملوا أيضاً شنكاً وضربوا مدافع. اهـ.

وبعد أن استتب الأمن في جهة العسير وما جاورها عاد الجيش إلى المدينة واستعد طوسون باشا إجابة لرغبة والده للزحف على بلاد نجد وقام من المدينة ووصل إلى قرب مدينة الرس فأتى إليه مشايخها وطلبوا منه ألا يحتل مدينتهم بشرط أن لا يصرحوا للوهابيين بالدخول إليها وأن يقدموا لجيشه كل ما يلزمه من المؤن بالثمن الملائم فقبل ذلك منهم طوسون باشا رغبة في عدم تعريض جيشه للحرب وحفظاً له من فئانه بدون ضرورة شديدة داعية إلى ذلك ولا احتياج كلى، ثم انتظر بالقرب من الرس ريثما تأتيه الجنود اللازمة ليزحف على الدرعية عاصمة الوهابيين.

وفي أثناء انتظاره الجنود دخل المدينة بقصد أداء فريضة الصلاة فدعاه أحد مشايخها لتناول القهوة عنده وكان (طوسون باشا) قد أمر أنه في ذلك الوقت تدخل العساكر وتحتل المدينة أثناء اشتغال الأهالي بالصلاة فقاموا بما أمروا به واحتلوا المدينة بهذه الحيلة بدون حرب فلما احتلوها أمر بهدم أسوارها حتى لا تعود صالحة لإقامة الوهابيين. وبعد مناورات خفيفة احتل طوسون باشا في

خلالها عدداً عظيماً من مدن نجد أرسل إليه عبد الله بن سعود، الذي تولى بعد والده سعود على طائفة الوهابيين، رسولاً يدعى الشيخ أحمد الخنيلسي يطلب الصلح والطاعة ويكون تحت طاعة أمير المؤمنين ومدعناً لجميع أواهره فجاوبه طوسون باشا أنه لا يمكنه قبول ذلك منه إلا بعد استشارة والده محمد على باشا وأن يمنحه هدنة مدة عشرين يوماً حتى يخبر والده بذلك فقبل منه عبد الله بن سعود وبطلت كافة الحركات العدوانية وبقي كل جيش في مكانه ينتظر انتهاء الهدنة لإتمام الصلح أو استمرار القتال.

وفي أثناء هذه الهدنة وصل إلى طوسون باشا خطاب من والده يخبره بأنه سافر إلى مصر لأشياء ضرورية وأنه ترك عدداً عظيماً من الجند بين رجالة وركبان تحت قيادة خزنداره ويوصيه فيه بالإسراع في الزحف على الدرعية لإستتصال شأفة الوهابيين وإراحة العباد من مكايدهم، وكان السبب في رجوع محمد على باشا إلى مصر على عجل هو علمه برجوع نابوليون من منفاه الأول إلى فرنسا وتحقيقه من طمع هذا الرجل في احتلال مصر وجعلها مستعمرة فرنساوية على طريق الهند الإنكليزية لما بين الدولتين من العداوة الوراثية وكان وصول عزيز مصر إلى القاهرة على طريق القصير فقنا فمصر في يوم ١٨ يونيو سنة ١٨١٥ (اليوم الذي انهزم فيه نابوليون في واقعة وترلو) وقد ذكر الجبرتي وصول العزيز إلى القاهرة في أخبار شهر رجب سنة ١٢٣٠ فقال: وفي يوم الأربعاء سادسه وصلت هجانة من ناحية قبلى وأخبروا بوصول الباشا إلى القصير فخلع عليهم كتخدا بيك كساوى ولم يأمر بعمل شنك ولا ضرب مدافع حتى يتحقق صحة الخبر وفي يوم الجمعة ثامنه قبل العصر ضربت مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وذلك عندما ثبت وتحقق وصول الباشا إلى قنا وقوص وفي ليلة الجمعة خامس عشره وصل الباشا إلى الجيزة ليلاً فأقام بها إلى آخر الليل ثم حضر إلى داره في الأزبكية. اهـ.

هذا ولما وصل إلى طوسون باشا جواب أبيه أرسل إلى الخزندار يستقدمه وجيشه إلى مدينة الرّسّ قبل انتهاء الهدنة فأتى إليها بسرعة وبعد مشاورات طويلة مع رؤساء الجيوش المصرية والقبائل المتحاربة، قبل طوسون باشا الصلح بشروط أهمها أن الجيوش المصرية تحتل الدرعية وأن عبد الله بن سعود يؤدّ كل ما أخذ من الحجرة النبوية من المجوهرات وغيرها وخصوصاً الكوكب الدرّي الذي زنته مائة وثلاثة وأربعون قيراطاً من الألماس وأن يكون تحت أمره حتى إذا طلب منه السفر إلى أى جهة كانت يكون مطيعاً لذلك وأن يؤدّي لطوسون باشا رهائن من أقاربه إلى صدور تصديق محمد على باشا على هذه المعاهدة.

فلاح من عبد الله بن سعود امتناع من إنفاذ هذه المعاهدة خصوصاً لما طلب منه أن يسافر إلى إسلامبول كي يرى نفسه لما نسب إليه من الخروج عن حدّ الديانة المحمدية فكتب إليه العزيز محمد على باشا بما مضمونه إنه إذا لم يعمل بمقتضى الشروط التي عقدها على نفسه يبعث إليه عسكرياً جرّاراً يخرب بلاده، فلم يرد إليه من الوهابيين إلا محاولات تفيد عدم الإمتثال، فجهز الباشا عليهم تجريدة جديدة تحت قيادة ابنه البكرى إبراهيم باشا.

ولنذكر ما حدث بالقاهرة من تمرد لطيف باشا على ولى نعمته وموته شر ميتة وعصيان الجند على محمد على باشا قبل أن نأتى على تفصيل ما حصل بين إبراهيم باشا والوهابيين من الحروب فنقول:

تمرد لطيف باشا:

إنه حصل بالقاهرة أثناء تغيب العزيز بالأقطار الحجازية أمر مهمّ لو لم يتداركه الكيخيا بعزم وهمّة لكان من ورائه تقويض سلطة محمد على باشا وزوال ملكه، نريد بذلك تمرد لطيف باشا وطلبه ولاية مصر واختلاصها من عزيزها الذى لم يصل إليها إلا بركوب الأهوال والأخطار وإضاعة الدرهم والدينار، ويبان ذلك أنه لما أعاد طوسون باشا الأمن إلى طريق الحجاج واستخلص المدينة المنورة من أيدي الوهابيين أرسل محمد على باشا لطيف باشا

المذكور إلى القسطنطينية لإبلاغ هذا الخبر إلى الدولة العلية فاستقبل هناك بغاية الترحيب والإجلال نظراً لمقام مرسله وأهميته مأموريته.

فلما عاد إلى مصر داخله الكبر وظن أنه لو اغتصب الولاية من محمد على باشا ربما يروق ذلك في أعين ولاة الأمر في إسلامبول فأخذ في جمع الجند حول داره وإجزال العطايا للكشاف ورؤساء الجند من أرندود ودلاة، فلما رأى الكيخيا ذلك دخله الخوف وخاف سوء المنقلب وأراد أن يخلص بلاده من شره قبل تفاقم أمره فجمع ديواناً بالقلعة وأرسل إليه يستدعيه فأبى الحضور لعلمه بالمكيدة ثم أرسل إليه الكيخيا يطلب منه إما الإطاعة أو الخروج من القاهرة فقبل الخروج، لكن وجد الجند من الأرندود متربصين له في الطرق الموصلة إلى داره فناوشهم واستمر إطلاق البنادق بين الطرفين إلى نصف الليل بل وبعده، ولما رأى لطيف باشا أن العسكر أهدقت بمقره وهددته بالدخول فيه والقبض عليه اختفى في مخبأه مع ست من الجوارى التركيات ومملوك مخلص له ولم يعلم بمحله إلا أحد خصيانه وبعد قليل دخل الجند داره وفتشوها ولما لم يلقوها له على أثر فبوها وسبوا نساءه وسراريه وبخنوا عنه أيضاً في الدور المجاورة لها ثم اكتفوا بحفظ الطرقات وفي مساء ذلك اليوم خرج لطيف باشا من المخبأة وتسلك الأسطحة حتى وصل إلى دار خزننداره واختفى هناك، ففي اليوم التالي أخبر الخصى بالمخبأة التي بالبيت ففتحوها ولم يجدوا بها إلا الجوارى والمملوك فأخذوا يقرروهم عنه وأين ذهب ولكن لم يجد ذلك شيئاً ثم خطر ببال لطيف باشا أن يذهب من بيت خزننداره إلى أحد البيوت المجاورة له من السطح ليهرب وينجو بنفسه إلا أنه لسوء حظه ودنو أجله رآه أحد الجند المعينين فوق الأسطحة لمنعه من الهرب، فلما رآه أسرع بالصياح على إخوانه وعند ذلك أطلق فيه لطيف باشا رصاصه فقتله فاجتمع الجند واحتاطوا به وقبضوا عليه وسجنوه في بيت محمود بيك الدويدار، حتى إذا أصبح اليوم التالي عقدوا ديواناً للحكم عليه بالقلعة حضره أكابر الحكومة وأعيانها وحكموا عليه بالقتل ثم أرسلوا من يستحضره فجاء مع محمود بيك الدويدار إلى القلعة وهناك قبض عليه وضرب

عنه وعلقت رأسه على باب زويلة طول نهاره وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٢١ من ذى الحجة سنة ١٢٨٨ (٨ نوفمبر سنة ١٨١٣) أما لطيف باشا المذكور فكان جرجى الأصل ومملوكاً لعارف بيك ابن خليل باشا الذى كان قاضياً بمصر، أهدها إلى العزيز فاختاره لما تفرس فيه النجابة وقرّبه إليه ورقاه إلى رتبة المختار أغاسى^(١) أى صاحب المفتاح وصار له حرمة زائدة وكلمة عند الباشا.

عصيان الجند بالقاهرة:

وأما ما حصل بمصر غير تلك الحادثة من الأمور المهمة فهو عصيان الجند وتمردهم على العزيز بعد عودته من الأقطار الحجازية وذلك أنه لما عاد إلى مصر في يونيو سنة ١٨١٥ شرع في ترتيب عسكره على النظام الأوربي لتزداد بذلك قوّتهم لكن لم يوافقهم على ذلك قوّاد جنوده فقضى مدة في إقناعهم بدون ثمرة ولما رأى منهم عدم موافقته على مشروعه عزم على تنفيذه رغم أنفهم، وابتدأ بالفعل في تمرين الفرقة التى هى تحت قيادة ولده إسماعيل بيك في يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨١٥، وأعلن بأن كل من لم يقبل هذا النظام الجديد سواء كان من الأنصار أو من الليكوات مجرد ويطرد من مصر فتحزب الجند واتفقوا مع قوّادهم على القدر بالباشا.

واتفق في هذا الوقت أن عابدين بيك أولم وليمة في ليلة الجمعة ٢٨ شعبان سنة ١٢٣٠ احتفالاً بقدوم العزيز محمد على باشا من بلاد الحجاز سالماً فاجتمع بداره جماعة من أكابر الجند، فيهم حجّو بيك وعبد الله أغا صارى جلّه وحسن أغا الأرنجلى، فتكلموا في هذا الشأن واتفقوا على الهجوم عليه في داره بالأزيكية عند طلوع الفجر ولما استشعر عابدين بيك بما يقصدونه من الخيانة بالوالى خرج خفية من داره مسرعاً إلى الباشا ليخبره بما اتفق عليه أعداؤه ثم عاد إلى أصحابه بدون أن يعلم أحد بخروجه وهنالك ركب الباشا حالاً وتوجه

(١) لو اختار أغاسى وهو من العاملين في خدمة المظلل داخل المعراى ويشرف على جميع العاملين والمرومين وكان لكل باشا من حكم مصر العثمانيين مختار أغاسى (المحرر).

إلى القلعة مستصحباً معه عساكر طاهر باشا وغيرهم ممن يتق بهم وترك عدداً عظيماً من الجند يحرسون منزله بالأزبكية، ولما علم المتآمرون أن الباشا وقف على حقيقة حالهم وجليه أمرهم، لم ينشئوا عن مقصدهم، بسل قصدوا منزله بالأزبكية لنهيه فمنعهم من كان به من الجند وتراخوا بالرصاص ولم يتمكنوا من شئ ثم ساروا إلى القلعة واجتمعوا بالرميلة ولما لم يجدوا للهجوم عليها سبيلاً لتسلط أفواه المدافع عليهم انتشروا في البلد للسلب والنهب لينضم إليهم من خالفهم في الرأي، وتقوى شوكتهم بذلك فيعودوا إلى القلعة بقوة عظيمة فنهوا الغورية والسكرية والحمزاوى إلا خان الخليلي فإنه لم يردّهم عن فبه إلا قوة بنادق من به من ترك وأرنؤد وكذلك دافع المغاربة عن القحامين والشوايين والكعكيين واستمر النهب ساعات وكان ذلك في يوم جمعة ولم تصل فيه لشدة ما كان.

وفي وقت المساء استدعى الباشا السيد محمد الخروقي وأمر بتحرير قوائم مشتملة على ما فب من التجار ليدفعه فم فحررت القوائم وظهر أن ما خص الغورية مائة وثمانون كيساً والسكرية سبعون والحمزاوى ثلاثة آلاف فصرفها الباشا لأربابها بعد تعريل شئ يسير وبعد أداء اليمين الشرعية على ما سلب منهم فبذلك أطمأن الناس واستبشروا بانتشار العدل وانقضاء أيام الظلم، ثم أخذ الباشا يستميل قلوب الجند ويوزع النقود والعلائف عليهم، وتسرك مشروع تدريبهم على النظام الأوربي، حيث أذى إلى ما حصل، منتظراً فرصة أخرى وبعد انقضاء عيد الفطر نزل الباشا من القلعة وهذا خاطر الأهالي وأراح بالهم وشرح صدورهم، وزار يوسف باشا المزعول من ولاية دمشق واجتمع مع العلماء والأعيان ووعدهم بأن يريح العباد من عود الجند إلى مثل ذلك.

رجوع طوسون باشا إلى مصر:

ولما بلغ طوسون باشا خبر ثورة العسكر بالقاهرة ونهبهم لها سافر من المدينة إلى ينبع ومنها إلى جبل الطور فالسويس بحراً وكان وصوله إليها في غاية شهر

ذى القعدة سنة ١٢٣٠. وجاء في الجريتي أنه في يوم الإثنين رابع شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٠ (٧ نوفمبر سنة ١٨١٥) نودى بزيئة الشارع الأعظم لدخول طوسون باشا سروراً بقدومه، فلما أصبح يوم الثلاثاء خامسه احتفل الناس بزيئة الحوانيت بالشارع وعملوا له موكباً حافلاً ودخل من باب النصر وعلى رأسه الطيلسان وشعار الوزارة وطلع إلى القلعة وضربوا في ذلك اليوم مدافع كثيرة وشكاً وحراراً وفي ليلة الجمعة الخامس عشر سافر طوسون باشا إلى الإسكندرية ليرى أباه ويسلم عليه وليرى أيضاً ولداً له ولد في غيبته يدعى عباس بيك أخذه جده مع حاضنته إلى الإسكندرية وسنه دون سنتين وفي يوم السبت العشرين منه حضر طوسون باشا إلى مصر راجعاً من الإسكندرية.

حبس المعلم غالى:

وخلو الخزينة من النقود وعدم وجود موسرين بالبلد يؤخذ منهم ما يحتاج إليه على سبيل القرصة أو غيرها وتأخير المعلم غالى باش "محاسبى" في ستة آلاف كيس، أصدر الباشا أمره إلى كيخيا بيك بطلب هذا المبلغ أو حسمه حتى يفیه فطلبه الكيخيا فاعتذر بأن هذا المبلغ متأخراً على الأهالى وأنه ساع في تحصيله وطلب مهلة قليلة فلم يقبل منه الكيخيا وأمر بحبسه وحبس أخيه المسمى فرنسيس و"خزنداره" المدعو سمعان، ثم وشى به عند الكيخيا طائفة من الأقباط وعرفوه بأنه إذا حوسب يظهر عليه ثلاثون ألف كيس، فاشتراط عليهم الكيخيا أنه إن لم يظهر على المعلم غالى هذا المبلغ يكونوا ملزمين بالباقي، فقبلوا هذا الشرط وهم المعلم جرجس الطويل ومنقريوس البتنون وحنا الطويل ولما أبطأ المعلم غالى في دفع ما طلب منه أمر الكيخيا بضرب أخيه أمامه وبضربه هو أيضاً وضرب خزنداره، ثم أفرج عن أخيه وخزنداره ليسعى في تحصيل المطلوب. أما سمعان فمات على أثر الضرب لأنه ضرب ألف كراباج وأما فرنسيس أخو المعلم غالى فسعى في أداء المطلوب ببيع ما يملكه من منقول وعقار، ثم توسط له لدى الباشا المسيو (بوزارى) طبيه الخاص فقبل منه الباشا ذلك وأمر بإخلاء سبيل المعلم غالى بشرط أن يدفع أربعة عشر ألف كيس وألزم معارضيه جرجس

الطويل ومنقريوس البتوني بدفع أربعة آلاف كيس. ولقد رأى بعد ذلك محمد على باشا أن يخرج الجند من القاهرة منعاً لما يحصل منهم من الشغب والهياج فأمر ولده طوسون باشا الخروج إلى جهة قوة^(١) مع عساكر السدلة وعابدين بيك إلى جهة المنصورة مع عساكر الأرئود ولم يبق بالقاهرة إلا حاشية الباشا وأتباع خواصه وعساكر الشرطة.

عزل الشيخ الدواخلى:

وفي أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٣١ في يوم مولد النبي عليه الصلاة والسلام طلب الباشا المشايخ فحضرُوا ولما استقر بهم المجلس أظهر الباشا رغبته في عزل الشيخ الدواخلى نقيب الأشراف من منصبه واستشارهم في تولية خلف له فأقر الجميع على تعيين الشيخ البكرى ورضوه، فألبسه الخلعة وانصرفوا وفي اليوم الثاني صدر أمر من الباشا بنفى الشيخ الدواخلى إلى دسوق فسافر في الحال إلى منفاه، وطلب الباشا من المشايخ أن يمرروا محضراً يبينون فيه أسباب عزله ليرسله إلى نقيب الأشراف في إسلامبول، الذى من خصائصه عزل وتولية نقيب الأشراف بولايات الدولة العلية فحرر المشايخ ذلك المحضر ونسبوا له فيه أشياء كثيرة، منها أنه تناول على السيد منصور الياقى لفتوى أفتاها مستنداً على قول ضعيف، ومنها أنه يعارض القاضى في أحكامه، وذكرُوا أسباباً أخر غير ذلك لم يكن فيها السبب الحقيقى في عزل الباشا له وهو في الحقيقة انتقاده على أحكام الباشا على مرأى وسمع من المقرين إليه.

(١) في المخطوط الجديدة لمساعدة على باشا مبارك أن قوة يضم الفاء وتشديد الواو بالقرب من الإسكندرية وقعة على قشاطرى الشرقى لفرع رشيد وفي شمال دسوق على بعد ساعتين واشتهرت في أيام العزيز محمد على باشا بالمعمل الذى قامه فيها لمعمل الطربوش فكان طربوشها يشبه في الجودة الطربوش المغربي أو يقاربه وكان يتحصل من ذلك كل شهر مائة وعشرون ألف طربوش وكان للصوف يجلب إليها في القالب من بلاد الإفرنج وقد بطل ذلك الآن ويبلغ سكان هذه البلدة ثمانية آلاف وكمسوا كلهم من الممعلمين ولطريقها ثلاثة آلاف وستمئة وواحد وثلاثون فدفا بزرع بها الأرز وقطن وبقي المزروعات المعتادة وكان اسمها عند قدماء المصريين مكيلين وكنت على البحر المالح ثم بعد عنها البحر بسبب رموب الطمى حتى صار بينها وبينه تسعة فراسخ تقريباً.

سفر إبراهيم باشا إلى الحجاز:

لنرجع إلى الكلام على الحملة التي كان جارياً تجهيزها لمحاربة الوهابيين تحت إمرة إبراهيم باشا فنقول أن محمد على باشا لما عزم على معاقبة الوهابيين لعدم قيامهم بما تعهدوا به، أمر بجمع ما يلزم من المراكب بساحل بولاك لنقل المؤنفة والدخائر إلى مدينة قنا لتنتقل منها على ظهور الجمال إلى نهر القصير ثم إلى نهر ينبع من طريق البحر الأحمر فلما صار تجهيز كل ما لزم لسفر الحملة سافر إبراهيم باشا من بولاك في يوم ١٢ شوال سنة ١٢٣١ (٣ سبتمبر سنة ١٨١٦) فوصل ينبع في ٩ ذى القعدة سنة ١٢٣١ (٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦) ثم سار قاصداً المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فوصلها بعد عشرة أيام وفي اليوم الرابع من عيد الأضحى قام إبراهيم باشا وعسكره من المدينة وأقام في مدينة تدعى الصويدة واقعة على مسافة متساوية بين فرضقى جدة وينبع وجعلها مركزاً لأعماله لقربها من هاتين الفرضتين، ثم أخذ في جمع ما يلزم من الجمال للزحف على بلاد نجد لكنه لم يجد مساعدة من العرب المتجاورة لها الذين اتحدوا مع الوهابيين على محاربة المصريين، وشرعوا في مناوشة القوافل بين الصويدة والموانئ البحرية، فأرسل إبراهيم باشا لخاربتهم ألقى جندي من مشاة وفرسان فقابلوهم على بعد يومين وهزموهم شر هزيمة.

فلما لم يروا من الوهابيين أقل مساعدة أتوا إلى معسكر المصريين وأذعنوا بالطاعة لرئيسهم وتعهدوا بإحضار كل ما يطلب منهم من جمال وغيرها ثم قام إبراهيم باشا من الصويدة قاصداً مدينة تدعى الحناكية وسار منها إلى مدينة الرس فحاصرها، وفي أثناء ذلك جمع عبد الله ابن سعود جميع ما عنده من القوة والرجال فكانت زهاء أربعين ألفاً من فرسان العرب ومجربيهما في الحروب ومن سوء سياسة عبد الله بن سعود أن استجلب كراهة القبائل لمحاربتهم إياهم واضطهادهم خصوصاً عرب حرب النازلين بين المدينة المنورة والحناكية فزرع العدواة معهم وكان قريباً منهم الأمير "أوزون على الأورفة لى" الكردي قائد مقدمة جيوش إبراهيم باشا ومعه نحو مائة وخمسين من فرسان الأكراد المشهورين

بالمهجوم، فلما تقدم عبد الله بن سعود نحو مقدمة المصريين هجم عليه أوزون بعسكره القليلة العدد الكثيرة القوة وزحف بخيله في وسط عسكر عبد الله بن سعود وحلقه عرب حرب مساعدين له لما ذاقوه من الوهابيين من النهب والسلب، ونزل رصاص الأكراد على عرب ابن سعود مثل المطر، ودهمهم مثل القضاء المبرم لحسن سلاحهم، فمساء ما يفتك الوهابي بندقية من جرابها ويولع الفتيلة يكون قد أصابه خمس رصاصات على الأقل. فما مضت برهة من الزمن إلا وقد انكسرت مقدمة عساكر عبد الله بن سعود ورجع القهقري ومن هذه الواقعة عرف إبراهيم باشا أن لا صبر ولا جلد للوهابيين أمام الرصاص والنار، بل هم رجال يحاربون بالرماح والسيوف على الطراز القديم ومعهم بنادق بالفتيل لا تفيدهم شيئاً أمام بنادق المصريين ومدافعهم.

وبعد هذه الواقعة تحصن عبد الله بن سعود داخل مدينة عنيزة - أما إبراهيم باشا فحاصر مدينة الرس، وكان قد احتلها الوهابيون بعد عودة طوسون باشا إلى مصر، وأقام حولها الإستحكامات القوية وعززها بالمدافع وأبدأ في إطلاقها على سور المدينة بدون أن يسلم العدو، ولما عيل صبر إبراهيم باشا من الانتظار بعد أن استمر إطلاق القنابل على المدينة ستة أيام متوالية، أمر بالمهجوم عليها ليلاً، فهجمت المشاة ومنعت الحيلة الأهالي من الخروج لكن لم تنجح العساكر المصرية في هذه الدفعة والتزمت بالرجوع بعد استمرار القتال أربع ساعات.

وبعد أن استمر الحصار ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً بدون فائدة تصالح مع أهل المدينة على أن يرفع الحصار عن مدينتهم بشروط أهمها: أن لا يدخل المدينة أحد من جنوده وأن لا يقدم لهم الأهالي شيئاً من المؤنة وأنه إن استولت الجيوش المصرية على مدينة عنيزة تسلم إليه مدينة الرس بدون قتال وإن لم ينتج أمامها تستأنف المحاربة ثانية.

ثم قام إبراهيم باشا بجيشه قاصداً مدينة عنيزة لصادف في طريقه بلدة تدعى (الخبراء) فدخلها بعد أن دهمها بمدفعية عدة ساعات، وبعد أن أراح جيشه أحد

عشر يوماً سافر إلى (عنيزة) فوصلها وبعد أن حاصرها ستة أيام سلمها له حاكمها المدعو محمد بن حسن بشرط أن يجوزّ لعساكر الوهابية الذهاب إلى أيّ جهة أرادوا ويتركوا في البلد كافة ما لديهم من الأسلحة والذخائر، فقبل ذلك إبراهيم باشا ودخل المدينة وأرسل فرقة لإحتلال مدينة الرس كما تقدم لك.

ثم إنه ارتحل من عنيزة ونزل ببلدة تدعى (بُريْدَة) ودخلها بعد قتال قليل وكان صاحبها يقال له (حُجَيْلان) يضم الحاء وفتح الجيم فنفاه الباشا إلى المدينة حيث توفى بعد أيام قلائل ومنها ذهب إبراهيم باشا لمخاصرة بلد تدعى (الشُقراء) فوصلها في يوم ١٣ يناير سنة ١٨١٨ الموافق أوائل شهر ربيع أوّل سنة ١٢٣٣ وابتدأ في محاصرتها بدون إمهال وأقام حولها بطاريات المدافع واستمر في إطلاقها حتى طلب الأهالي التسليم واشترط من بها من جنود الوهابيين أنهم بعد أن يسلموا سلاحهم إلى إبراهيم باشا يباح لهم الذهاب إلى أيّ جهة ساروا، فقبل منهم ذلك وقبده بأن يعهد هؤلاء الجند بأن لا يحملوا السلاح مرة أخرى في وجه المصريين وأنهم لو خالفوا هذا الشرط عوقبوا بالقتل.

وعقب هذا الإتفاق فتح الأهالي أبواب المدينة ودخلها بطل مصر إبراهيم باشا في ٢٢ يناير سنة ١٨١٨ الموافق ١٤ ربيع أوّل سنة ١٢٣٣ ثم ترك بالمدينة الحامية الكافية وذهب لفتح (الدرعية) عاصمة الوهابيين وكانوا يسمونها دار المهجرة وكان كلما مرّ على قرية ودخلها لا يتعرض لأهلها بسوء ويمنع عساكره من التعرض لهم ويكتفى بطاعتهم له.

لكنه لم يتوجه توجّه إلى مدينة الدرعية بل عرّج على مدينة يقال لها (درمة) لما بلغه من وجود كثير من المؤن بها وعدد عظيم من الخيول فوصلها وأحرق جزءاً كبيراً منها بالمدافع، حتى تحصن حاكمها وأتباعه في قصره ولما لم يرغب إبراهيم باشا في هدم قصره بالمدافع خوفاً من إتلاف ما به من الأشياء الثمينة والخيول

العربية المظلمة، قبل أن يخرج الحاكم من البلد بشرط أن لا يأخذ شيئاً معه مما في القصر فسر الحاكم بذلك ونجا بنفسه.

فتح الدرعية وتسليم عبد الله بن سعود:

ثم توجه إبراهيم باشا بجيشه إلى ناحية الدرعية فوصل أمامها في تسع وعشرين خلت من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٣٣ الموافق ٦ إبريل سنة ١٨١٨ وكان جيشه مؤلفاً من خمسة آلاف جندي من المشاة والفرسان واثني عشر مدفأً، ولما لم يكن هذا العدد كافياً لحصار المدينة بأجمعها لإتساعها، أشار على الباشا أحد أركان حربه الفرنسيين المدعو مسيو (فسير) بحصار القرى الأربع المحيطة بالمدينة الواحدة بعد الأخرى، حتى إذا احتلها حاصر المدينة الأصلية بكل سهولة، فاتبع إبراهيم باشا رأيه ومع ذلك استمر الحصار ستة أشهر، ولا حاجة لذكر تفاصيله، ولما رأى عبد الله بن سعود سقوط ثلاث قرى من ضواحي المدينة في أيدي إبراهيم باشا وأنه لا بدّ من التسليم عاجلاً أو آجلاً مال للتسليم وأرسل إلى إبراهيم باشا في يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ يطلب منه إيقاف القتال ريثما يتم بينهما الإتفاق فأوقفه، وأتى عبد الله بسن سعود إلى معسكر إبراهيم باشا فأكرمه، وبعد محادثة طويلة تم الإتفاق على أن تسلم الدرعية إلى الباشا وتعهده بعدم إضرار الوهابيين وأقاربهم، وأن يسافر عبد الله بن سعود إلى القسطنطينية كما هي رغبة السلطان فلبى إجابته وتوجه إلى داره ليتأهب للسفر إلى مصر ومنها إلى القسطنطينية.

ولما بلغ محمد علي باشا خبر انتصار نجله على الوهابيين وتبديده إياهم ودخوله عاصمتهم أطلقت المدافع من القلعة، وذكر الجبرتي في أخبار سنة ١٢٣٣ أنه في سابع شهر ذى الحجة الحرام وردت بشار من الحجاز برسالة من عثمان أغا الورداني أمير ينبع بأن إبراهيم باشا استولى على الدرعية، فسر الباشا بهذا الخبر سروراً عظيماً وانجلي عنه الضجر والقلق وأنعم على المبشر، وعند ذلك ضربت مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبسولاق والأزبكية وانتشر

المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش، وفي ثاني عشرة وردت مكاتبات بذلك من إبراهيم باشا نفسه فأكثر من ضرب المدافع من كل جهة واستمر الضرب من العصر إلى المغرب بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع وصدرت الأوامر بتزيين المدينة ثلاثة أيام متوالية وفي كل يوم يطوف المنادي ويكرر المناداة بالشوارع على الناس بالسهر والوقود والزينة وعدم غلق الأبواب ليلاً ونهاراً. (اهـ ملخصاً).

وصول عبد الله بن سعود إلى القاهرة:

ثم تم بالسرور وكل الجبور بوصول عبد الله بن سعود إلى القاهرة وكان وصوله إليها في يوم الإثنين سابع عشر محرم سنة ١٢٣٤ الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٨١٨ فدخل من باب النصر ومعه عبد الله بكاش قبطان السويس وهو راكب على هجين وأمامه طائفة من الدلاة فذهبوا به إلى بيت إسماعيل باشا ابن الباشا فأقام يومه وذهبوا به في صبيحة اليوم الثاني إلى عزيز مصر بسرأى شبرا فلما دخل عليه قام إجلالاً له وقابله بالبشاشة وأجلسه بخدائه، وحادثه في أمر الحرب فقال له الوهابي إن الحرب سجال قال له: وكيف رأيت إبراهيم باشا قال: شجاعاً مقداماً بذل همته، وقد دافعنا عن ديارنا دفاع الأبطال حتى كان ما قدره الله، فوعده الباشا بالسعى لدى الباب العالي ليعفو عنه فانصرف الوهابي وعاد لمزل إسماعيل باشا ثم سافر إلى القسطنطينية في يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر محرم سنة ١٢٣٤ الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٨١٨ وقتل عند وصوله للقسطنطينية.

أما المجوهرات التي أخذها الوهابيون من الحجرة النبوية حين دخلوا المدينة المنورة سنة ١٢٢٠ فردّها عبد الله بن سعود إلى إبراهيم باشا منها الحجر الألماس المسمى بالكوكب الدرّي فأعاده الباشا إلى محله وأما ما نقص منها فدأعي الوهابي أنّها بيعت وصرف ثمنها في الحروب، ووزع جانب منها على رؤساء القبائل فيبذوها.

موت طوسون باشا:

وما حصل في أثناء هذه الحروب من الأمور المهمة التي ينبغي ذكرها موت المرحوم طوسون باشا لنجل الباشا فتوفى في برنبال أمام مدينة رشيد في ليلة الأحد سابع ذى القعدة سنة ١٢٣٢ الموافق ٦ يولية سنة ١٨١٦ عقب مرض أتااه فجأة ولم يمهل إلا عشر ساعات ففسل وكفن ووضع في صندوق خشب وسر به من طريق النيل إلى القاهرة، هذا ولم يتجاسر أحد بإخبار والده ولبس الكل سربال الحيرة وصاروا في حيرة من تبليغ هذا الخبر المشنوم إلى والده فدخل عليه كتخدأ بيك أخذاً في البكاء والانتحاب فعلم الباشا حقيقة الأمر وحزن لفقداه حزناً شديداً، ثم أمر بإعادة الجنازة حسب العادة فجهزت وسر بها إلى الإمام الشافعي وواره التراب في المقبرة التي أعدّها الباشا لنفسه وعائلته وسار والسده خلف نعشه ينظر إليه ويبكى.

وتوفى طوسون باشا رحم الله الجميع، وهو في مقتبل العمر ولم يبلغ عمره إلا عشرين سنة وكان أبيض ذا جسم، بطلاً شجاعاً جواداً له ميل للمصريين قائماً بأوامر الديانة الإسلامية تخشاه العسكر وتقابه مع الحية الزائدة لأنه كان يكافئ ذا العمل الصالح بالبرّ والإحسان وذا العمل السيئ بالذل والهوان، اقتداء بقوله عز وجل "إن أحستهم أحستهم لأنفسكم وإن أسأتم فلها" وقلما يوجد مثل هذا الشهم المسدد الرأي الذكيّ الفطرة، وعلى فراقه يحق للعيون أن تدمع وللقلوب أن تجزع وللأحشاء أن تميز وللأكباد أن تحترق. ولما انتهى الحرب وانتشر لواء الأمن في جميع الجهات الحجازية ونجد عاد الأمير إبراهيم باشا إلى مصر من طريق القصير فقنا فالنيل إلى القاهرة فوصلها في يوم الخميس ٢١ صفر سنة ١٢٣٥ وهاك ما ذكره الجبرتي في قدومه:

قال: وعند وصول إبراهيم باشا نودى بزيئة المدينة سبعة أيام لباليها فشرع الناس في تزيين الخوانيت والدور والحنانات بما أمكنهم وقدروا عليه من الملونات والمقصبات، وأما جهات النصارى وحاراتهم وخاناتهم فأبسطوا في عمل

تصویر مجسمات وتماثل وأشكال غریة، ولما أصبح يوم الجمعة دخل إبراهیم باشا فی موكب حافل من باب النصر وشق المدينة وعلی رأسه الطلیسان السلیمی من شعار الوزارة، وقد أرخی خيته بالحجاز وحضر والده إلى جامع الغوریة بقصد التفرج علی موكب ابنه وطلع بالموكب إلى القلعة ثم رجع سائراً بالهیئة الكاملة إلى جهة مصر القديمة ومر علی جسر من مراكب أقیم علی النیل بین مصر القديمة وجزیرة الروضة وذهب إلى قصره واستمرت الزينة والوقود والسهر لیلًا وعمل الحراقات وضرب المدافع فی كل وقت من القلعة، ومغان وملاعب فی مجامع الناس سبعة أيام بلیالها فی مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الأخطاط.

وبعد ذلك أخذ محمد علی باشا فی إصلاح أحوال المصرین زراعیة وصناعیة وعلمیة وغیرها، واستدعی هذه البغیة کثیراً من الإفرنج وكذلك شرع فی ترتیب الجيش علی النظام الجديد وینما هو یفتکر فی المسائل المؤدیة إلى هذه البغیة إذ قدم إلى مصر رجل فرنساوی يدعی (سیف) من ضباط الجيش الفرنساوی، فاستخدمه لهذا الغرض ولما كان هذا الرجل شأن عظیم فی كافة الحروب التي حصلت فی بلاد اليونان والشام أردنا أن نأتی بترجمته وكیفیة مجیئة إلى مصر قبل الشروع فی تفصیل هذه الحروب وما نشأ عنها من تداخل الدول الأورپیة.

٤- ترجمة سليمان باشا الفرنساوى*

ولد والد هذا القائد الشهير في ٢٦ يولية سنة ١٧٥٤ وكان أبوه مزارعاً مقيماً بضواحي مدينة (ليون)^(١) من أعمال فرنسا واسمه (انسلم سيفوس) وشبّ بين أهله حتى بلغ سن المراهقة فلم يرض بصنعة أبيه فتركه وذهب إلى رجل كان يصنع البرانيط ليتعلم منه ومكث عنده حتى برع في هذه الصناعة ثم سافر إلى مدينة (ليون) واتخذ له فيها حانوتاً يعمل به البرانيط واشتهر صيته بذلك خصوصاً في الجهات المجاورة لها، وصار كل من لا يستعمل برانيطه لا يعدّ في ذوى الدوق والكياسة فاتسعت ثروته اتساعاً عظيماً حتى طمح نظره إلى المعالي فاشتغل بصناعة الآلات وازدادت ثروته، وتزوج في سنة ١٧٨٦ بابنة أحد الطحانين وكانت فقيرة لا تقدر على دفع مهرها كما هي عادة الإفرنج ولم يكن لها إلا شباهاً وعفافها وجمالها، فساعدته مساعدة عظيمة في أشغاله الكثيرة وصارت تفرح لفرحه وتحزن لحزنه شأن الزوجة الصالحة التي تشارك زوجها في السراء والضراء وكانت ولوداً فلم تأت عليه سنة ١٧٩١ إلا وكان له منها خمسة أولاد ثانیهم المترجم واسمه (يوسف) نسبة لشبينة الذي حضره وقت العماد وكانت ولادته في ١٧ مايو سنة ١٧٨٨.

وفي أثناء هذه المدة ابتدأت الثورة الفرنسية الشهيرة في الظهور وكان من دأب حكام ذلك الوقت قتل الأشراف وهدم قصورهم خصوصاً المشيدة البیان القوية الأركان التي كانت تشبه القلاع لأنهم كانوا يصطنعونها ليحتموا فيها

* أتونا أن نجعل هذا موضوعاً لفصل لأنه يشكل موضوعاً مستقلاً استطرد فيه المؤلف بشكل خاص، وإن كان له صلة بالموضوعات التالية (المحرو).

(١) ليون هي مدينة من أصل فرنسا وقعة على ملتقى نهري السون والرون أسست سنة ٤١ قبل المسيح تقريباً في زمن الدولة الرومانية وقسمت عمارتها في أيام الإمبراطور أوغسطس وخلفائه ثم اتسعت تجارتها لأهمية موقعها لكن انصمحل حالها حين أغارت عليها الأمم المتبربرة التي قوضت أركان الدولة الرومانية في الجبل الرابع للمسيح لكن ما لبثت أن عاد إليها مجددا الأتيل ورونتها القديم ولم تزل في تقدم وارتقاء إلى يومنا هذا وبلغ عدد سكانها نصف مليون تقريباً وهي أهم المدن بفرنسا بعد باريس وقد اشتهرت بصناعة الحرير والإتجار به إلا أن تلك الصناعة قد قلت من يوم سابقتها ألمانيا والسويسرة في حلبة هذا المضمار وقد نبغ منها عدد عظيم من علماء فرنسا مثل (لڤير) العالم الذي ساعد كثيراً على اكتشاف التلغراف الكهربائي والمسيو (جكا) مخترع آلة للمسيو وغيرهما.

أحياناً عند شن الغارة عليهم، كما كانت عادتكم في تلك الأعصر، وكان بجوار مدينة (ليون) شريف يدعى الماركيز (دى بارال) له قصر باذخ به قلعة فتظاهر بالدخول في حرب الجمهورية خيفة من أن يضطهده الجمهوريون وشرع في بيع قصره حتى لا يكون ثمة داع لإضطهاد الجمهوريين إياه، فلما علم والد المترجم بنوايا الماركيز اشترك مع ثلاثة من الفلاحين واشتروا القصر مع قلعته بثمن بخس على شرط هدمه قبل هدمه، ثم شرع (انسلم سيفوس) هو وشركاؤه في بيع ما كان فيه من الأمتعة الثمينة والأثاث الفاخرة والأسلحة القديمة فربح من ذلك مبالغ جسيمة، ثم ابتدأ في هدم القصر حسب شروطه فساعدته الحظ بقتل الماركيز، الذى قتله الجمهوريون عند وقوفهم على حقيقة حاله وكنه خبيثه، فتخلص بذلك (انسلم سيفوس) من تنفيذ شرطه الذى ربما استغرق جلاً ما وبخه من بيع الأثاث.

هذا وكان (يوسف سيف) المترجم حاد الطبع شكس الأخلاق لا يقبل نصائح والده ولا أوامره ولا يطيع إلا هوى نفسه، وكان في ذلك ضرره فلما أراد والده أن يمرّه على أشغاله لم يجد منه إلا أذناً صماء وكان يترك مؤول والديه ويرع في القلوات مع الصبيان، وحين كان يعود إلى والده وقد رأى منه عدم الهداية والإمتثال يذيقه أنواع الأذى كالضرب المؤلم والشتم الفظيع فحين يرى ذلك من أبيه يهرع ثانياً إلى ما كان عليه وهلم جرا... ولما يش والد من إصلاح أخلاقه وتقويم ما اعوج من طباعه أدخله المدرسة البحرية في أواخر سنة ١٧٩٩ الموافق (٢ فاندميز سنة ٧)^(١) من التاريخ الجمهورى وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام.

(١) لما استولت الأحزاب المتطرفة على لجنة الحكومة الفرنسية سنة ١٧٩٢ لولت هم لركان الهيئة للتربية برمتها ومما غيرته لتاريخ الممبى واستعاضته بتاريخ جديد لبتدأه يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وغيوت أيضاً لسماء الأشهر باسماء توافق حلة الفصل من حر أو برد أو هواء أو مطر أو تلج إلى غير ذلك وجعلت شهر ثلاثين يوماً ينقسم إلى ثلاثة أعشار (ديكاد) وجعلت خمسة أيام لو ستة نمسين في آخر السنة.

فلم تَهذب طابعه صعوبة أحكام القانون البحري ولذلك لم يرتق في الرتب بل بقي في درجة صف ضابط مع أنه كان متصفاً بالشجاعة وسكون الجأش عند الخطر، فحضرُوا واقعة (ترافلجار)^(١) سنة ١٨٠٥ ولم يبلغ من العمر وقتئذٍ إلا سبع عشرة سنة وهو في رتبة صف ضابط في الألاى الثاني من الطوبجية البحرية ولم ترعه مخاوف هذه الواقعة الهائلة التي انتصر فيها الأميرال (نلسون)^(٢) الإنكليزي على دونمات فرنسا وإسبانيا معاً وجرح في ذراعه الأيمن جرحاً غير ذى بال ولما شفى منه توجه مع الدونمة الفرنسية إلى جزائر (أسور) وجزائر (كناريا) وبقي مدة سنتين في السفن الطراداة عن شواطئ إفريقيا الغربية وأوروبا، ومع ذلك لم تؤثر هذه الصعوبات الشاقة في طابعه بل استمر على ما كان عليه من عدم طاعة رؤسائه والإذعان لأوامرهم، حتى غضب عليه في يوم من الأيام أحد الضباط ورفع عصاه ليضربه فأخذها منه وطقق يضرب ذلك الضابط بها حتى كسرها، فوضعت لذلك فيه الأغلال، وسجن إلى أن يحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص كما هو حكم القانون العسكري ولكن لم ينفذ هذا الحكم عليه لأن أحد رؤساء الجيوش وكان قد خلّصه المترجم من الموت في إحدى الوقائع سعى في حصول العفو عنه من الإمبراطور نابوليون الأول فلم ينجح سعيه في العفو عنه، فتحيّل له في خروجه من السجن وأرسله إلى أحد أصدقائه وكان أمير الألاى من الفرنسيين الموجودين إذ ذاك في إيطاليا فقبله في ألابيه بصفة نافر عسكري وذلك في ٢ مايو سنة ١٨٠٧ وغير اسمه من ذلك العهد (بانسلم سيف) على اسم والده لتلا يعرف ولم يزل هذا القائد مساعداً له حتى حصل

(١) الطرف الأغر (المحذر).

(٢) ولد هذا الأميرال الشهير سنة ١٧٥٨ ونخل البحرية ولم يبلغ من العمر إلا اثنتى عشرة سنة وامتاز بين أقرانه وتقدم بسرعة حتى عين وكيل أميرال سنة ١٧٩٧ وفي ١٧٩٨ حاول الإستيلاء على جزيرة (تريف) إحدى مجمع جزائر (كناريا) فتابعة لإسبانيا فلم ينجح ولما سافر بونابرت وجيشه من تولون في مايو سنة ١٧٩٨ بقصد فتح مصر تبعه (نلسون) بعلمته فلم يلحق مراكبه إلا بعد أن نزلت الجنود إلى البر فأحرقها في فرصة لي قبر في ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ وبعد عدة مواقع غير مهمة تقابل مع عمارتي فرنسا وإسبانيا بالقرب من راس (ترافلجار) قريباً من بوغاز جبل طارق وقاتل عظيمهما وأغرق عدداً عظيماً من مراكبهما وقتل نلسون في هذه الواقعة (٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥) ثم نقلت جثته إلى مدينة لندن حيث احتفل بشييع جنازته احتفالاً عظيماً ودفن في كنيسة وستمنستر المخصصة لدفن ملوك انكلترا ومشاهير رجالها.

على رتبة أونباشي بعد أن دخل الجيش بثلاثين يوماً في ٢ يونيو سنة ١٨٠٧ ولم يتعرض أحد لهذه الترقية لأنه كان محبوباً عند هذا الجيش للطفه وحسن أخلاقه في نظرهم وشجاعته لا سيما في استعمال كافة أنواع الأسلحة، وقوته كانت تغرس مهابته في قلوب أقرانه.

ولم يزل في رتبته التي أعطاها لم يتعدّها إلا بعد مدّة وذلك أنه في إبريل سنة ١٨٠٩ كان الألاي الفرنسي السادس الذي فيه المترجم معسكراً في شمال مدينة (مينينج)^(١) وفي ١٥ إبريل من هذه السنة أرسل قائد هذا الألاي أربعة من الجنود منهم (انسلم سيف) للإستكشاف تحت إمرة أحد الضباط فتوغلوا في البر حتى وقعوا في كمين من الأعداء كان يتربص في هذه الجهة فرصة فأحاط به الأعداء إحاطة المائلة بالقمر فسقط في أسرهم وقد أصيب بثلاث جراح وطلق ناراً بعد أن قتل حصانه تحته فحرم لذلك من حضور الوقائع المهمة التي انتصر فيها نابوليون على النمساوية نصراً ميبساً ومسيق مع الأسرى إلى بلاد (هنكاري)^(٢) حيث ضمدت جراحه ولم يمض عليه زمن طويل حتى نقه ولما بلغ تمام الشفاء دخل في خدمة أحد أمراء المجر فكان يعامله كصاحب مخلص لا كعدو أوقعه الحرب في ريقة الأسر ولذلك لم يتمكن من الرجوع إلى فرنسا إلا بعد أن أقام سنتين أسيراً.

ولما عاد إليها لحق بالايه وكان معسكراً في مدينة (فيزول) من أعمال فرنسا وترقى إلى رتبة جاويز مكافأة له على ما قاساه من عناء الحرب وشدة الأسر وكان ذلك في ١٦ يوليو سنة ١٨١١ ثم سافر آلايه إلى بلاد (هانوفر) بألمانيا في نوفمبر سنة ١٨١١ وانتظم في سلك الجيش المعدّ للهجوم على روسيا وكان مؤلفاً من ستمائة ألف مقاتل ما بين فرنساوين وألمانين وإيطاليين وغيرهم ممن

(١) مينينج وتسمى بالألمانية (منكن) أو ميونخ لجمل بلاد ألمانيا وهي تحت مملكة (بافاريا) الداخلة ضمن إمبراطورية ألمانيا أسست سنة ١٦٦٢ ميلادية وتشتهر بعمل القير أو بها مبان عمومية في غاية الإنتظام وكثير من المدارس وما يستحق الذكر دار كتبها التي تحتوى على نيف وأربعمئة ألف نسخة من الكتب المطبوعة وعشرة آلاف نسخة من كتب خط اليد ويبلغ عدد سكانها ٢٧٠ ألف نسمة.

(٢) المجر (المحرر).

كافة ممالك أوروبا الخاضعة لفرنسا فعبر نهر (دنيبر) في ٢٤ يونيو سنة ١٨١٢ ونهر (دنيبر) في شهر أغسطس التالي، وكانت الجيوش الروسية تسحب متقهقرة أمام الجيوش الفرنسية بدون قتال، كأنهم لا يريدون المداخلة عن وطنهم وما كانت هذه القهقري إلا حيلة أرادوا بها أن يطمعوا الفرنسيين في الدخول إلى داخل السهول الروسية ثم يقطعون عنهم خط الرجعة بلا تعب ولا نصب، ولقد نجحت هذه الحيلة وتوغل نابوليون في البلاد الروسية حتى وصل مدينة (موسكو) ودخلها عنوة بعد واقعة (موسكوا) التي كانت سبباً لتخليد اسم (الماريشال ن) ^(١) في التاريخ في ٧ سبتمبر سنة ١٨١٢، لكن آلى الروس على أنفسهم أن لا يسلموا المدينة للفرنساويين إلا بعد أن يحرقوها ولم يتيسر للفرنساويين حينئذ المكث مدة الشتاء داخل هذه المدينة ولما لم يكن في البلاد المجاورة لها ما يكفي مؤنة هذا الجيش الجرار لا سيما وأن الروس أحرقوا كافة مزارعهم وكانت المسافة بين موسكو والبلاد التابعة لفرنسا شاسعة ولم يتيسر لهم الإتيان بالثمن والذخيرة منها عزم نابوليون على الرحيل من روسيا والرجوع إلى فرنسا، فهلك السواد الأعظم من جيشه إما من شدة البرد أو من هجمات عساكر القوزاق عليهم ولم يعد إلى فرنسا إلا أقل من النصف.

وكانت هذه الواقعة أول أفول نجم نابوليون وفاتحة انكساره حتى لم يبق له بعدها قائمة وقد رقى المترجم أيضاً إلى رتبة باشجاويش بعد عودته من روسيا إلى رتبة ملازم ثاني في ٥ يونيو سنة ١٨١٣ بعد أن اشتهر في واقعة (بوزن) في ١٢ فبراير سنة ١٨١٣ واستحق الثناء من رؤسائه وطعن في هذه الواقعة برمح

^(١) ولد هذا الماريشال سنة ١٧٦٩ بقرية صغيرة ضمت إلى مملكة بروسيا سنة ١٨١٥ وكان ليوه صانع براميل ونطوع في جيش فرنسا سنة ١٧٨٧ على حين لم يبلغ منه ١٨ سنة وشهد أشهر الوقائع الحربية التي حصلت بين فرنسا ودول أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر وترقى إلى رتبة لواء (جبرال دي بريجاد) سنة ١٧٩٦ وإلى رتبة فريق في سنة ١٧٩٩ وذلك حين لم يبلغ من العمر إلا ثلاثين سنة وانتسب على الألمانين في واقعة الشنجن سنة ١٨٠٧ وعلى الروس في واقعة موسكو سنة ١٨١٢ ولذلك لقبه الإمبراطور نابوليون بلقب دوك دي الشنجن وبرنس دي لا موسكو ولما استقال نابوليون أول مرة وتولى لويز الثامن عشر منحه لقب (بردي فرانس) إلا أنه انضم إلى نابوليون عند عودته من جزيرة ألب ولذلك حوكم في مجلس عسكري بعد احتلال الإمبراطور في واقعة وترلو (١٨ يونيو سنة ١٨١٥) وحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونفذ عليه الحكم في ٨ ديسمبر سنة ١٨١٥.

طعنة كادت تكون القاضية ولقد اشتهر (سيف) بين أقرانه بالشجاعة والنخوة ولبات الجأش فكان لا يرهيه رئيس ولا أمير ولا الإمبراطور نفسه، لأنه كان سالكاً في طريق الواجب المطلوب منه لا يخشى لومة لائم ويحكي عنه حادثة غريبة تدل على قوة بأسه وزيادة طيشه وذلك أنه بعد وقعة (بوتزن) في ٢١ مايو سنة ١٨١٣ كتب اسمه في قائمة من استحقوا نيشان الشرف^(١) (ليجيون دونور) فناداه الإمبراطور أمام الصفوف ليقبله النيشان بيده تشريفاً له على أقرانه فلما حضر أمامه ناوله النيشان موبخاله على طيشه وعدم انقياده لأوامر رؤسائه فاحمر وجهه وقفل راجعاً إلى مركزه بدون أن يستلم النيشان فغضب الإمبراطور لذلك وقال لولا ما اشتهر به (سيف) من الشجاعة لبطشت به ولكن عفوت عنه وكفاه بعدم إعطائه هذا النيشان جزاء.

ثم امتاز أيضاً عن أقرانه حين دخل جيش الدول المتحدة إلى أراضي فرنسا في أوائل سنة ١٨١٤ بعدة أمور تدل على شجاعته وقوة جنانته وأنه لا يتأخر عن اقتحام الخطوب للدفاع عن وطنه شأن كل رجل حركته الحجة لمسقط رأسه واستفزته النخوة الوطنية وذلك أن قائد ألايه لما بلغه أن بعض عساكر وضباط القوزاق الروسيين محتلون قرية لا تبعد عن الموقع المعسكر هو فيه إلا ثلاثة فراسخ، أراد أن يستطلع حقيقة هذا الخبر وطلب أن أحد الضباط يعرض نفسه لهذا الاستكشاف فلم يجب طلبه إلا (سيف) فاستصحب معه بعض الفرسان وهجم على نقطة العدو وقتل بعضهم وأسر الباقي فاستحق بذلك رضا رؤسائه ومحبته ومدحهم له على ما شوهده منه وامتاز به بينهم حتى أن قائد هذه الفرقة هنأه على شجاعته أمام بقية الجيش ورقى (سيف) بذلك إلى رتبة ملازم أول في ١٣ مارس سنة ١٨١٤ ونقل إلى الألاي الرابع عشر وكلف بحمل بيرقه ولكن لم يلبث أن تبدل فرجه ترحاً وسروره حزناً بانتصار جيوش أوروبا على العساكر

(١) هو نيشان لوسيه بونفيرت في ١٩ مايو سنة ١٨٠٢ حين كان قسماً لولا قبل أن يصير إمبراطور ويقلب بنابليون الأول ولقد طرأت على هذا النيشان عدة تغيرات تبعاً لتغير الحكومات لكن لم يطل بالكلية لتطوق الأهلالي به لأنه ينكرهم بقتلهم الحديدة على أوروبا.

الفرنساوية ودخلهم مدينة باريس وإجبارهم نابوليون على الإستقالة ونفيهم إياه لأول مرة في جزيرة (إلبه) وسافر نابوليون في ٢٠ إبريل سنة ١٨١٤ مودعاً عساكره في حوش قصر (فونتيلو) وأعقب سفره دخول لويز الثامن عشر مدينة باريس التي لم يتمكن من الدخول إليها إلا بمساعدة الأجانب له.

فانتهى الحرب بذلك وأفاق الأهل من هم الحروب وما يتبعها من الكروب مع إن الفرنسيين كانوا يؤثرون استمرار القتال، ولو كان فيه فناءهم عن آخرهم، أولى من وطأة الأجنبي أرضهم ولكن للدهر حالات وللوقت ضرورات توجب الوطني لتحمل وجود الأجنبي في بلاده بصفة حاكم أو مالك معللاً نفسه بالحصول على الإستقلال السياسي قريباً كان ذلك أو بعيداً.

هذا ولم يرض (سيف) أن يبقى في خدمة حكومة تعضدها العساكر الأجنبية، لغاية في النفس لا خير تعود ثمرته على بلاده، كما كان يظن أحزاب^(١) لسويز الثامن عشر، فرجع إلى بلده (ليون) حيث كان أبوه وأقاربه مقيمين فكانوا يجتمعون به ويسلون أنفسهم عن هذه المصيبة بتذكر مجد فرنسا وما نالته من الفتوحات في زمن هذا الرجل الذي تحدث بذكره الركبان وخشى بأسه القاصي والدان حتى وافاهم خبر رجوع نابوليون من منفاه ونزوله إلى البر في خليج (جوان) بالقرب من مدينة (كان) في أول مارث سنة ١٨١٥ أي بعد تنازله عن أريكة الإمبراطورية بعشرة أشهر.

ولما شاع خبر عودته تجمع ضباط جيوشه المظفرة وطفقوا يهيجون الأهالي على حكومة لويز الثامن عشر ويذكروهم بمجد نابوليون وانتصاره على جيوش أوروبا بأسرها غير مرة ويقولون لهم أنه لم ينهزم فعلاً بل خانته بعض قواده الذين قابلوا نعمته بالكفران وخانوا وطنهم العزيز وساعدوا الأجانب على إذلال مواطنهم طمعاً في الدنيا وحباً في المال الذي سعوا في اكتسابه بدون مراعاة شرف ولا ذمة ولا حرمة وطن.

(١) هكذا في الأصل (المحرر).

وكان (سيف) المترجم من أعظم نصراء نابوليون في مدينة (ليون) فكان يدخل القهاوى واللياترات وكافة المجتمعات العمومية لتسيج الأهالي وإثارتهم على الحكومة المعضدة من أعداء الوطن والأمة ولم يكن ذلك منه طلباً لإقتناء الثروة والترقى إلى الرتب العالية بل حباً منه في استخلاص وطنه وتطهيره من احتلال الأجنبي فيه.

ولم يكن مع نابوليون عند نزوله على شواطئ فرنسا إلا تسعمائة رجل، ومع كون جنوب فرنسا من حزب البوربون، لم يخش نابليون من التوغل في البلاد مع قلة حرسه لفرط شجاعته وقوة بأسه حتى قرب من مدينة (جرينوبل) إحدى مدن فرنسا الحصينة فأرسل حاكمها عساكر الحامية لقتال نابليون وحاميته والإتيان به أسيراً إلا أن الجنود لما رأته تذكرت مجدها الأثيل فلم تجسر على مطاردته بل انضمت إليه وصافحته وصاحبه إلى مدينة (جرينوبل) وكان دخوله فيها في التاسع عشر من مارت.

فلما رأت حكومة البوربون الإسراع في تقدمه نحو مدينة (ليون) وظهر لها أن أغلب الضباط والقواد كارهون لها ومائلون إلى نابليون أرسلت إلى (ليون) الكونت (دروتوا) أخا الملك ليقود حاميتها المؤلفة من خمسة عشر ألف عسكري فاستعرضهم في ١٠ منه ولما رأى على وجوههم علامات الميل لنابليون ويسس من مساعدتهم سافر من (ليون) في صبيحة ١١ من الشهر وبعد سفره أعلن الجند الإنخياز لحزب الإمبراطور فدخلها في مساء اليوم نفسه ثم سافر منها في اليوم الثالث عشر منه قاصداً باريس الزهراء، ودخلها جهاراً بين صفوف الأهالي والجند في ٢٠ مارت بدون أن يصادف ما يعوقه في مرور من جنوب فرنسا إلى شامها.

ولما عين الجنرال (جروشى) قائداً عاماً للفرقة العسكرية في مدينة (ليون) وضواحيها وسمع بما أتاه (سيف) من المساعدة لنابليون، كافأه على ذلك بتعيينه

ضمن أركان حربه ورقاه إلى رتبة يوزباشي ولكنه لم يحظ بها، لأن الإمبراطور لم يلبث إلا قليلاً وهزمته جيوش انكلترا وبروسيا المتحدة في وقعة (وترلس) في يوم ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ وبعد هذه الواقعة التي خلدت اسم (ولنجتون)^(١) الإنكليزي دخلت الجيوش باريس ولم يسع نابليون إلا التسليم ليأسه من الظهور على أعدائه حيث لم يبق في فرنسا جيوش مدربة فركب في ١١ يوليو السفينة المسماة (بلوروفون) وقصد بلاد الإنكليز ووضع نفسه تحت حمايتهم، لكن خانه الدهر فسبق إلى النفي في جزيرة (سانت هيلينه) الواقعة في الأوقيانوس الأطلانطي في المنطقة الحارة ومكث بها ست سنوات إلى أن قضى نحبه في ٥ مايو سنة ١٨٢١.

هذا وبعد دخول البوربون في فرنسا عقب هذه الواقعة أمر (لويس) الثامن عشر بتشكيل مجلس حربي لحاكمة القواد والضباط الذين انضموا إلى نابليون حين أرسلوا لخاربه والقبض عليه فأقيمت الدعوى الحربية على تسعة عشر جنرالاً ومارشالاً وكان من ضمن هؤلاء وفي مقدمتهم المارشال (بي) الملقب ببرنس مسكوكوا نسبة إلى البلدة التي انتصر فيها نابليون على الجيوش الروسية وكان هذا النصر بسبب ما أظهره المارشال من الشجاعة والمعرفة في فنون الحرب.

وسب محاكمته أنه لما كان نابليون عائداً من منفاه الأول أرسلته حكومة البوربون لخاربه وأخذه أسيراً فسافر معترفاً لها بذلك لكنه لما تقابل معه تذكر

(١) ولد الدوك دي ولنجتون سنة ١٧٦٨ في إحدى مدائن لارندا من عائلة حديثة الثراء وتعلم الفنون الحربية في مدرسة (تجير) من أصل فرنسي ثم دخل الجيش الإنكليزي برتبة ملازم ثاني سنة ١٧٨٧ ثم أرسل إلى الهند مع شقيقه اللورد لسلي الذي عين حاكمها عاماً لها سنة ١٧٩٦ واشتهر في عدة وقائع حربية ثم عاد إلى انكلترا سنة ١٨٠٥ وانتخب عضواً في مجلس المصوم وتعين سكرتيراً لولا لحكومة لارندا وفي سنة ١٨٠٨ عين قائداً للجيش الإنكليزي الذي أرسل في بلاد البرتغال لحمايتها فتمكن من إجلاء الفرنسيين عنها ثم هزمهم في إيبانيا حتى أكرههم على إجلائها بعد عدة وقعات أهمها وقعة (هوريا) في ٢١ يونيو سنة ١٨١٢ ولأجلها رقي إلى رتبة مارشال الرفيعة وأعطى لقب دوك ثم ليجنار جبال (برينيه) وحاصر مدينة (تولوز) بفرنسا ولم يخطها لمنعتها ثم توجه إلى باريس حين دخلتها جيوش الدول فلول مرة وعين نائبا عن فكترا في مؤتمر فيينا الذي عقد لتسوية حالة أوروبا بعد سقوط نابليون ونما عهد نابليون من منفاه في شهر مارس سنة ١٨١٥ اعتزل الأصيل العسكرية وعاش معزواً ودخل في وزارات روبرت بيل غير مرة وتوفي سنة ١٨٥١.

نعمته ومصاحبه له في سائر الحروب ومشاركته إياه في غالب انتصاراته بل أشهرها، وأما له إليه عوامل الحجة التي كانت تجره نحوه من جهة، وميل العساكر التي تود الإنضمام إلى نابليون من جهة أخرى فانضم إليه بعسكره.

ولما بلغه الخبر بإصدار الأمر بالقبض عليه لم يصدقه حيث أن معاهدة ٣ يولية سنة ١٨١٥ أقرت بالأمان لكافة الضباط الذين انحازوا إلى نابليون ولم يجزم بأن حكومة متمدنة تقر على شيء ولم تنفذه، فلذلك لم يرح بلده مع أن إخوانه وخلانه عرضوا عليه البراح وبذلوا له جميع ما يلزمه من المال والرجال للخروج من أرض فرنسا والإلتجاء إلى حكومة أخرى فلم يجبههم لذلك وبقي حتى قبض عليه في يوم ٥ أغسطس سنة ١٨١٥ وفي أثناء سفره مخفوقاً بأنظار الشرطة إلى مدينة باريز لإيقاع الحكم عليه عرض عليه أيضاً بعض أصحابه أن يأخذوه عنوة من الخفر ويهربوه من فرنسا فمعتة نفسه الأبية أن يأتي هذا الأمر الذي ربما ينسب به إلى الجبن والنذالة فلما وصل إلى باريس وسجن بها ألف بعض الضباط عصبة قوية وكان المحرض عليها (سيف) وتشعبت فروعها في أكناف باريس قصد تخليص المارشال (في) من القتل فلم يقبل ذلك وآثر الموت على الحياة مع الهرب فحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونفذ عليه الحكم في يوم ٧ ديسمبر سنة ١٨١٥ فمات على شهامته وفرط شجاعته مأسوفاً عليه من كل وطني إلا من على بصرهم غشاوة.

وما يحسن ذكره هنا أنه أثناء المرافعة والمدافعة قام أحد المحامين المكلفين بالمدافعة عنه وطلب عدم اختصاص المجالس الفرنسية عموماً بمحاكمته لأنه ليس فرناسوياً لكون البلدة التي ولد فيها سلت عن فرنسا وألحقت بالمانيا فقام عند ذلك المارشال (في) وقال إن لم أزل فرناسوياً وإن أود الموت كذلك وأوتره على أن أعيش أجنبياً عن وطني الذي تربيت فيه واستظلت تحت ممانه ونلت الرتب العالية في الدفاع عنه.

وبعد موت المارشال (بی) ضاق بسیف الحال ولم يكن عنده ما يسد به رمقه لأنه أراد الدخول في عداد الجيش الذي ألف بعد حل الجيش الذي ساعد نابليون، فلم يجد لذلك سبيلاً ولم يقبل في مصالح الحكومة أيضاً لتشيعه للإمبراطور، فاشتغل آخر الأمر بالتجارة في الخيول والعربات فتجح فيها قليلاً ولكن لم يكفه ربحه من ذلك لما كان متعوداً عليه من كثرة النفقة والميل للملاذ، فتركها ودخل في إحدى العزب مديراً وكان ذلك في ١٠ إبريل سنة ١٨١٦ لكنه لم يرض بهذه الوظيفة لحقارها بالنسبة لما كان فيه أولاً من علو الرتبة والدرجة فعاد إلى تجارة الخيول ثانياً ولم يزل في هذه المهنة حتى نفذ ما كان عنده من المال وبلغ من حاله أنه لم يقدر على دفع أجرة منزله الذي كان يسكنه.

ولما ينس من بلوغ الثروة التي كان يسعى دائماً وراءها في باريس باع ما بقي عنده من العربات والخيول ورحل إلى مدينة (ليون) وأقام عند عمه مدة مختفياً خشية من مطالبة غرمائه له ومضايقتهم إياه فلما علموا بمكانه ذهبوا إليه وصاروا يطالبونه ويعنفونه ويهدّدونه بالمرافعة أمام المحاكم حتى ضايقوه مضايقة شديدة حملته على المهاجرة إلى بلاد إيطاليا وكان ذلك في أوائل سنة ١٨١٩ وأقام في مدينة ميلان عميلاً لأحد تجار مدينة ليون بشئ تافه هذا وفي أثناء هذه المدة بلغه أن شاه العجم يريد أن يستخدم بعض الضبط الأوروبيين لتنظيم جيوشه على الطراز الأوربي الجديد فرغب في ذلك ولكن رأى أنه لا يمكنه السفر إلى مثل هذه البلاد بدون توصية عظيمة فتخير في أمره ثم أرسل خطاباً إلى الكونت (دي سيجور) يطلب منه المساعدة في هذه المسألة.

فلم يمض إلا أيام قلائل حتى ورد إليه من الكونت خطاب يخبره فيه أن الأولى له العدول عن السفر إلى العجم والتوجه إلى مصر لوجود كثير من الفرنسيين بها تسهل عليهم مساعدته وأرسل يوصي به الفرنسيون المقيمين في القطر المصري ليقدموه إلى محمد علي باشا الذي كان آخذاً وقتله في عمل كل ما يعود على مصر التي اختارها وطناً له من الخير العميم والنفع الجزيل، وكان يقبل كل من

يساعده على إنفاذ مشروعاته من حيز الفكر إلى حيز العمل من أى جنس كان غير مراعى في ذلك شيئاً سوى مصلحة البلاد المصرية فإنه كان يستعمل الأجانب للوصول إلى هذه الغايات ويستعين بهم كآلات لتقدم بلاده في مدارج الكمال وتأسيس المدارس والمعامل والإسباليات وفتح البورش وحفر الترع لتسهيل الرى وغير ذلك. وكان من حسن إدارته أنه متى نشأ من المصريين رجال أكفاء يقومون بما تقدم حق القيام استغنى بهم عن الأجبيين وولى مكافهم من نبغ من المصريين.

* * *

وصول سليمان باشا إلى مصر:

وبمجرد وصول جوابات الكونت دى سيجور إليه (وكان من ضمنها كتاب مخصوص لمحمد على باشا) قام من ساعته قاصداً نهر الإسكندرية ومنه إلى القاهرة ولما وصل إليها تقرب إلى محمد على باشا بواسطة الفرنسيين المقيمين إذ ذاك بمصر وقدم إليه كتاب الكونت دى سيجور فقابلته بمقابلة خصوصية استفسر منه في خلالها عن حقيقة أمره حتى وقف منه على سبب مجيئه إلى مصر وبعد محاوره طويلة تفرس منه في خلالها الشجاعة والشهامة والصدقة والولاء عرض عليه أن يستخذه فقبل منشراح الصدر مستبشراً ببلوغ المأمول حيث نال ما لم ينله في فرنسا وإيطاليا بعد السعى المديد والعناء الشديد فكانت عاقبة أمره خيراً وعند حسن الصبر كثيراً ما ينال الصابرون.

وصادف مجيئه إلى مصر انتصار الجيوش المصرية على الوهابيين - كما تقدم في موضعه - ولا يخفى أن محمد على باشا وطد ملكه في القطر المصرى بفتح بلاد العرب بناء على طلب الباب العالي صاحب السيادة في هذه البلاد وكانت الصناعة والتجارة سالكتين سبل التقدم والفلاح لا سيما بعد إنشائه فوريقات في سائر أكناف البلاد فضلاً عن المعامل التي لم تزل آثارها باقية مشاهدة إلى الآن مهمة في زوايا النسيان وكانت القوة البحرية في غاية الاستعداد ولم ينقص

مصر في ذلك الوقت شيئاً إلا جيشاً مرتباً ومنظماً على الطراز الأوروبي الجديد، وكان قد شرع في ذلك مراراً قبل مجي سليمان باشا ولكن لم يتم مشروعه لمعارضة عساكر الترك والأرنؤد له، كما سبق ذكر ذلك في موضعه، ولكون السواد الأعظم من جيشه كان مركباً منهم بعد أن قتل جميع رؤسائهم في القلعة أول مارث سنة ١٨١١ لم يقو على إذلالهم وتنفيذ أغراضه بالرغم عنهم.

ولما تم له النصر على الوهابيين ولم يكن ثمة احتياج إلى مراعاة خاطرهم، عزم على تنفيذ مشروعه وهم لم يمانعوه ولم يعارضوه في التنفيذ حيث قل الكثير منهم في بلاد العرب فاستخدم (سيف) ليكون هو المنفذ لهذا المشروع لما تفرسه فيه من الشجاعة والمثابرة على الأعمال التي لا يردّها أعظم الموانع ولا أهول الوقائع مادية كانت أو أدبية، ولكي لا يشعر أحد بمقصوده أرسل (سيف) أولاً إلى جهات الحدود القبلية ليبحث عما يوجد هناك من معادن الفحم الحجري بناء على اعلام بعض سكان تلك الجهات، فعجب (سيف) من هذا التعيين لكونه لم يكن له أدنى إلمام بمثل هذه المسائل العلمية، لكن لم يتأخر عن الإمتثال لأوامر من أوقف نفسه لخدمته ظاناً أن وراء هذا التعيين أمور خفية لا بد أن تكشفها الحوادث والأيام.

فعاد من ساعته إلى القاهرة ليتها للسفر إلى الحدود منشراح الصدر قريبر العين لتحسن المستقبل أمامه ولكي يسهل عليه محمد علي باشا الأمر والإجراءات الإدارية اللازمة لصرف ما يلزمه من المال والميرة أرسل الأوامر الشديدة إلى سائر الجهات بإعطائه كل ما يلزمه بدون احتياج إلى الحصول على إذن خصوصي وبتجهيز كل طلباته بغاية السرعة حتى لا يكون ثمة مناع من سفره. ولما تم له جميع ما يلزمه في هذه الرحلة سافر من القاهرة في بحر شهر يوليو سنة ١٨١٩ في إحدى مراكب الحكومة الشراعية فوصل إلى مدينة أسبوط بعد ثمانية أيام لمساعدة ربح الشمال له وعدم حدوث أنواء عاقته عن السير وكان معه في هذه الرحلة أحد مأموري الحكومة المصرية ليكون معيناً له

في تنفيذ أوامره ومزيجاً عنه ما يعتريه في سبيل العقبات الشاقة، هذا هو ظاهر مأموريته، وفي باطن الأمر أنه يكون مراقباً عليه خشية من أن يكون مرسلأ من قبل إحدى الدول الأجنبية بمأمورية سرية لإكتشاف أمر، وليرى أيضاً كفاءته ومقدرته على العمل وهل يمكن أن تحال عليه مهمة عظيمة كتشكيل الجيش المصري وتدريبه على النمط الأفرنكي ولم يعارض (سيف) في استصحابه، بل سر من ذلك عازماً على الإستهانة به على معرفة طباع البلاد وإطلاعه على أخلاق أهلها حتى لا يحصل منه أدنى أمر مغاير لموائدهم وأحوالهم الوطنية والدينية.

ولم يزل سائراً حتى وصل إلى أسوان، حدود الحكومة المصرية وقتئذ وبعد أن شاهد في طريقه العجائب من آثار المصريين القدماء الموجودة على ضفتي النيل وبقايا مدينة طيبة التي كانت في ذلك الوقت مطمح أنظار السائحين لقرب عهد أوروبا بمعرفتها في أثر أعمال واكتشافات اللجنة الفرنسية العلمية التي أتت مصر مع بونابرت قائد الجيوش الفرنسية التي أغارت على هذه البلاد في أوائل هذا القرن إذ كانت العلماء تؤم مصر من سائر أنحاء أوروبا لحل رموز الكتابة الهيروغليفية (لسان قدماء مصر) التي بقيت معماة حتى قبض الله العالم الفرنسي (شامبوليون)^(١) لحل رموزها وفك عقودها وأزاح ظلماتها مع أن المصريين كانوا أحرى بذلك وأولى بما هنالك.

فلما دخل أسوان واستراح من تعب أسفاره شرع في البحث عن الفحم الحجري الذي أرسل لأجله ولم يتأخر بسبب اعتقاده الجازم أنه لا يوجد في مثل هذه الجبال الصوانية، بل كان جل بغيته أن يؤدي مأموريته بالصدقة والأمانة

(١) ولد العالم الشهير المصيرى شامبوليون سنة ١٧٩٠ وتعين مدرسا للتاريخ في مدينة جرينوبل سنة ١٨٠٩ ومن وقتها خطر بباله حل رموز الكتابة المصرية القديمة فاشتغل بها وقدم نتيجة لبحثه إلى المجمع العلمي (اكاديمي) وفي سنة ١٨٢٨ و ٢٩ ساهم ببلاد مصر لتتيم مشروع و بعد عودته جعل عضواً في الأكاديمي الفرنسية وتوفي سنة ١٨٢١ وله كتب يتلخص بمصر يتكلم فيه على الفراعة وقنماء المصريين وتاريخهم ودينتهم ولسانهم وكتابتهم ولقد أجرومية وقاموساً في لسانهم القديم وقد جعل له أهل بلده تمثالاً لبقاء ذكره وبعد موته تم إخوه تكليفه وطبعها.

ولم يأل جهداً في المرور على الحدود المصرية وما يكتنف أسوان من الجبال شرقاً وغرباً للبحث عن هذا المعدن الذي لا بد منه في تقدم الصناعة في مصر، ولو كان البحث بدون فائدة ولا جدوى ثم سافر من أسوان إلى مينا القصير الواقعة على البحر الأحمر مفتشاً في طريقه عما جاء للبحث عنه وقد أمكت قواه هذه الرحلة الأخيرة لعدم تَعَوُّده على الإقامة في البلاد الواقعة في المنطقة الحارة حتى اعتراه المرض بسبب شدة الحرارة وثقل عليه، حتى كادت روحه أن تزهق وتكون هذه الرحلة خاتمة أسفاره، ولكن لقوة بنيتة الأصلية أمكنه أن يقاوم المرض فاستراح أياماً حتى رجعت إليه قواه وقفل راجعاً إلى أسوان.

* * *

وفي أثناء هذه المدة أخذ الجيش المصري في العودة إلى مصر وذلك أن بطل مصر إبراهيم باشا بعد أن استأصل شأفة الوهابيين وأعاد الأمن إلى طريق الحجاج أراد أن يريح عساكره من الأتعاب والأوصاب التي كابدها أثناء هذه الحروب الماثلة التي استمرت عدة سنوات فترك مدافعه في جدة وأرسل أوامره إلى جزء من جيشه بالعودة إلى مصر براً على طريق ساحل البحر الأحمر ثم سافر معه من بقى من جيشه من جدة بجزءاً إلى القصير ومنها على طريق الصحراء إلى قنا ثم ركب النيل من قنا قاصداً العاصمة وكان أمراء الصعيد وأمور الحكومه يتلقونه أينما حل بالتبجيل والتعظيم، مفتخرين بعوده منصوراً على الفئة التي أعيت العساكر الشاهانية، وما الفضل في ذلك إلا له ولعساكره المصرية التي كانت هذه النصر مقدمة انتصاراتهم وفترحاتهم كما سيأتي إن شاء الله.

ثم وصل إلى الجزيرة في ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ وقابل والده في سراي شبيرا في يوم ١١ فتلقاه فرحاً به مسروراً ومفتخراً بما آتاه الله من الفوز والنصر على أعدائه بواسطة ابنه، وبعد هذه المواجهة العائلية أمر محمد علي باشا، كما تقدم آنفاً، أن تزين العاصمة عدة أيام متوالية فلم يتأخر أحد من سكان البلد عن القيام بأداء الزينة الواجبة عليها احتفالاً بهذا الشجاع الذي أعاد لمصر فخرها

الأليل وملاً الأصقاع بصيته وشهرته وشهرة الجيوش المصرية التي برهنت تحت إمرته على أقم قادرين على أن يدافعوا عن وطنهم مدافعة الأسود عن غاباتها لا بل ويفتحون ما جاورهم من البلاد إذا راعى رؤسأزهم الذمة والشرف وحسب الوطن العزيز ولم يؤثرها المنفعة الخاصة على المنفعة العامة.

ثم دخل شجاع مصر وقخرها إلى العاصمة من باب النصر بموكب حافل اجتمع فيه كل من بالقاهرة من الأعيان والقواد يتقدمهم إبراهيم باشا تحف فوق رأسه الأعلام التي اغتتمها من الوهابيين حتى وصل إلى القلعة بين صفوف الأهالي وأصوات النساء التي كانت تملأ الآفاق برنينها استبشاراً بقدوم موكبه الميمون وتعلو عليها أصوات المدافع التي كانت تطلق من القلعة أثناء مرور الموكب من شمال البلد إلى جنوبها، ولم يظهر محمد على باشا في هذا الموكب ليكون في الإستقبال لولده فقط، بل توجه إلى جامع السلطان الغوري يشاهد موكب ولده العزيز ويتمتع برؤيته محفوفاً بأعيان البلدة وتجارها، فيها من حفلة يعجز عن وصفها الواصفون وتقصر عن تسطيرها الأقلام ثم اشتهر بعد ذلك إبراهيم باشا وتحدث بذكر أعماله الركبـان. وإنما أعدنا ذكر الإحتفال برجوعه لأن في الإعادة ثمرة وإفادة.

ولنرجع إلى المترجم (سيف) فنقول أنه عاد إلى أسوان^(١) وأخذ في التفتيش عن الفحم الحجري فعثر على بئر غاز أرشده إليها العرب القاطنون بين القصر وأسوان وكتب عنها تقريراً مبيناً فيه فوائد استعمال الغاز في الإستصباح بدل الشمع والزيت وأنه أبسر من غيره ثمناً ولو التزمت الحكومة استخراج له عاد إليها منه ربح عظيم، فلما وصل إلى أسوان لم يجد البيك السدي كان معيناً لمصاحبه فإنه رجع إلى مصر لمقابلة إبراهيم باشا غير مفكر فيما عين لأجله وكذلك لم يجد في البلدة أحد من الأعيان فلما رأى أن الكل هرعوا إلى العاصمة

(١) لسوان قل ياهوت في معجمه بالضم ثم المسكون ووجدت بخط لي سعيد السكري سوان بخير همة.

رجع هو أيضاً ليقابل من اشتهر صيته في الآفاق مؤملاً أنه ربما يجد عنده وظيفة أو مأمورية يظهر فيها معارفه العسكرية والحربية.

* * *

رجوع سيف إلى القاهرة والابتداء في تنظيم الجيش:

لما عاد المترجم إلى العاصمة قابله محمد على باشا بالبشاشة والترحاب ولم يسأله عن مأموريته ولا عن نتيجه بل قدّمه إلى ولده إبراهيم باشا وقال له أنه ضابط من جيش فرنسا وعكته أن يثق به في سائر أعماله ويستعين بمعارفه في جميع مشروعاته، فأنزله إبراهيم باشا من الإكرام والإعتراف منزلاً رحيماً، وأسرّه بما كان في عزمه وعزم والده من تشكيل جيش جديد مدرب على الحركات العسكرية والأمور القانونية على وفق الطراز الأوربي، ليتمكن باستخدامه من إتمام ما يقصده من الغزوات والفتوحات وأن ذلك هو غاية مرغوبه ولولا معارضة العساكر الباشوزق له والأرنؤد لما كان فيهم من القوة لحصل ذلك المشروع، ولكن الآن وقد ضعفت شوكتهم وقل عددهم فيمكنه تميم هذا المشروع الجليل الفائدة الكثير العائدة لعجزهم اليوم عن المعارضة في ذلك، لا سيما مع وجود الجيش المنصور في العاصمة بعد ما اشتهر به من الأعمال في بلاد العرب، ثم شرعاً في تدبير وسنّ ما يلزم لذلك من القوانين والتنظيمات وبعد أن أتم كل ما يلزم ابتداءً في تنفيذ هذا المشروع وعين سيف بوظيفة ضابط (أغا) معلم للجيش.

ومجرد أن شاع خبر تعيينه تلمر ضباط الباشوزق وتأمروا على معاكسة هذا الأجنبي الذي أتى لتنظيم وتغيير ما تعودوا عليه من عدم النظام والإخلال بشئون وظائفهم وسعوا في الفتك به للتخلص من أعماله التي يرون أنها تعود عليهم بالضرر على زعمهم، غير ناظرين إلا إلى المصلحة الخصوصية التي يهدرون في سبيلها كل منفعة عمومية، ولولا عزم محمد على باشا ونجته وثباتهما

على تنفيذ مشروعاتهم المفيدة فائدة حسنة رغم أنف كل مقاوم ومعاند، لنجحوا في مشروعاتهم السليمة.

ولم يلبث المترجم أن أخذ في تعليم العساكر حتى أتم تعليم فرقة واستعرضها في ميدان الرميلة أمام القلعة بحضور محمد علي باشا وجميع أعيان البلد وكثير من المعارضين لهذا المشروع المعتقدين عدم نجاحه، وإنما أتوا بأنفسهم ليتحققوا نجاحه من عدمه، فلما رأوا أن المشروع قد أخذ في النجاح صاروا من جهة يتفكرون الأهالي منه ويفهمونهم أنه لو نجح هذا المشروع لكان سبباً في أخذ أولادهم وتغريهم عن أوطانهم وتصير الخدمة العسكرية جبرية على كل شاب مصري سواء كان مزارعاً أو من أهل العاصمة، ومن جهة أخرى يحرضون العلماء ويلقون في أذهانهم كلاماً ما يفهم منه الحث على عدم تنفيذ هذا المشروع وليسون عليهم الأمر ويروهم أن هذا المشروع ربما يكون سبباً لتدخل الأجانب في مصر خصوصاً في الإدارة العسكرية وأن ذلك مخالف للقرآن الشريف والشرع الحنيف.

فصار العلماء يلقون هذه الأوهام في أذهان تلامذتهم وهم ينشرونها بين العامة فازداد بذلك الكلام في هذه المسألة ولكن لم يزعزع هياج العلماء والقواد وتذمرهم شيئاً من أركان ثبات محمد علي باشا، لكنه توقياً مما عساه يقع مما لا تحمد عقباه صار يحضر التمرينات بنفسه كل يوم وولده إبراهيم باشا وبقية أعضاء عائلته وحاشيته. ويحكى أن الأمير إبراهيم باشا كى يكون قدوة للعسكر ويعودهم على تحمل مشاق النظام العسكري والطاعة لرؤسائهم طاعة عمياء في كل ما يؤمرون به انتظم في سلك العساكر الذين يتعلمون فاختد بندقية ووقف أمام الصف فلما رآه (سيف) أمام الصف وبخه على ذلك وقال له إن كنت تريد التعلم فاتبع أحكامه وقف في آخر الصف مع أترابك فامتثل وهو كاره ليظهر بذلك التحمل للحاضرين معه من الجند ويعلمهم أن التحمل هو الطاعة وهى

أول الواجبات المفروضة على الجندي وبدونها لا يستقيم نظام الجيش واستمر التعليم عدة أيام على هذا النوال.

وأما التلزم فكان أخذاً في الإزدياد يوماً عن يوم حتى خيف أن هذه الفتنة تسرى إلى العسكر فإنها لو وصلت إليهم لكانت الحاسمة والقاسمة لهذا المشروع، فجمع محمد على باشا مجلساً خاصاً للتروى والمشاورة في اتخاذ الطرق المؤدية إلى إتمامه بدون تشويش ولا حصول فتنة تؤدي إلى سفك الدماء فقرّر رأيهم على أن يرسل سيف وفرقه إلى أسوان في الصعيد ليتم تعليمهم هناك، وبعد ذلك ينظر فيما يكون إجراؤه وكانت تلك الفرقة مؤلفة من ثلاثمائة أو أربعمائة شاب من المماليك الخاصة بمحمد على باشا، وكان جلهم من الجراكسة وما جاورهم ممن لم يعرفوا من النظامات العسكرية شيئاً بل هم متعودون على الحروب بدون انظام في جباهم الشائخة التي يكسو بعضها الثلوج الدائمة وكانوا حسان الصور أقوياء أصحاء سريعى الحركات أخفائها مطيعين لأوامر سيدهم في كل ما أمرهم به بدون أدنى معارضة وقد اختارهم محمد على باشا ليكونوا أول فرقة نظامية لما يعهده فيهم من الاستعداد والنباهة حتى إذا أموا تعليمهم صاروا رؤساء ومعلمين لغيرهم ممن يراد انتظامه من أولاد المصريين.

فسافر بهم سيف إلى أسوان ليكون بعيداً عن العاصمة وعن دسائس المعارضين للنظام الجديد وعن غواية العاوين وفساد المفسدين، واشتغل بتعليمهم هناك الحركات العسكرية على النمط الأوربي وما يلزمها ويتبعها من ركوب الخيل والضرب بالسيف إلى غير ذلك وكان دائماً يلقي في نفوسهم حب هذه المهنة الشريفة ويذكر لهم ما حدث لنابليون وكيف ارتقى إلى أن صار امبراطوراً على فرنسا واستولى على أغلب عواصم أوروبا وكيف أن سائر القواد الذين ساعدوه على ذلك كانوا من أولاد الفقراء وتقدموا بجهنم واجتهادهم وحصلوا على هذه الرتب العالية، لينشطهم ويث في قلوبهم الحمية العسكرية والخوة الحربية ليكونوا مثلاً للعساكر الذين سيكونون تحت إمركم في المستقبل.

ولقد أثر كلامه هذا في بعضهم ولم يؤثر في البعض الآخر الذين كانوا يفضلون المعيشة ضمن الخدم على الأتعاب والتمرينات العسكرية غير ناظرين لما ينالون في المستقبل فأبغضوه وآمروا عليه وهما يقتله تخلصاً منه ظانين أنهم لو قتلوه ربما يرجع محمد على باشا عن عزمه ويردهم إلى خدمته الخاصة فيقضون عمرهم بين أسافل الخدم وأدنياتهم لكن لحسن حظ المترجم أخبره أحد محبيه منهم بذلك فأسرها في نفسه إلى صباح الغد حتى إذا كان معهم في ميدان التمرين خاطبهم بما غي إليه وقال لهم إن القتل غدراً وخيانة هو من أكبر الكبائر وأشنع الرذائل وأقطع القبايح الذي لا يقدم عليه أحد في جيوش أوروبا بل إذا أهان أحد آخر استدعاه للمبارزة (الدويلو) جهاراً ويعرض حياته في الدفاع عن شرفه ثم ختم كلامه بأن قال إن كنت أهنت أحداً أو أسأت إليه عن غير قصد فليبارزني إما قتلته أو قتلتني فيهتوا جميعاً ولم يجسر أحد منهم على مبارزته من هيئته وشدة فراسته وتعجبوا من قوة جنانه وثبات جأشه.

ولكن لم^(١) يزدحم كلامه هذا إلا كرامة له وبغضاً فحنقوا عليه وعزموا على قتله متى سنحت الفرصة وبعد مضي عدة أيام بينما هو يمرهم على إطلاق البنادق وضبط النيشان أراد أن يتحقق من نظامهم فركض جواده حتى وصل أمام العسكر وبعد إجراء جميع الحركات اللازمة لتعير البنادق أمر بإطلاقها على هدف كان قد أقامه ونصبه لهم وكان هذا الهدف مرتفعاً عنه ببعض أقدام فبدلاً عن إطلاق البنادق على الهدف صوبوها نحوه وأطلق الجميع بنادقهم قاصدين قتله، لكن لطول أجله لم يصب بواحدة منها فغضب لذلك غضباً شديداً وهجم عليهم بجواده ولم يهجم بل طفق يضربهم بكراباج كان بيده على رؤسهم ووجوههم موجهاً لهم على عدم إتقان النيشان وبعد أن فرقهم في كل جهة دون أن يجسر أحد على معارضته أمرهم بالانتظام ووقف أمامهم راكباً جواده وبعد أن انتظم عقد اجتماعهم نادى عليهم بإطلاق النار عليه فبهت الجند وبعد أن ترددوا رموا بنادقهم على الأرض وأسرعوا نحوه يقلبون رجله في الركاب

(١) لنفنا كلمة (لم) ليستقيم المعنى (المحرر).

طالبين أن يعفو عنهم ويغفر ما كان منهم وأقسموا بأن لا يعودوا لمثل ذلك بل يطيعونه إطاعة محضة فتبسم وصفح عن ذنوبهم بشرط أن يمتثلوا له في كل ما يأمرهم به مما لا يخالف الذمة والشرف وقال لهم أن المستقبل هو لكم وأنكم ستكونون رؤساء الجيش المصرى عن قريب فأثرت فيهم هذه الأفعال والأقوال تأثيراً حسناً ولم يقع بعد منهم ما يجل بالنظام العسكرى حتى صاروا في غاية الطاعة لرئيسهم.

دخول سيف في الديانة الإسلامية:

وبسبب هذه الحادثة اشتهر المترجم وذاع صيته، حتى صار لا يجمله أحد في القطر المصرى عموماً وفي حاشية محمد على خصوصاً، وانتقل خير ذلك إلى أوروبا فنشرته الجرائد هناك وصارت بحث لا يتكلم إلا بها في الأندية والجمعيات العمومية وكانت هي باكورة أعماله، ومن وقتئذ طلع نجم سعده في أفق البلاد المصرية في ظل حامى حماها ومعلّى كلمتها المغفور له محمد على باشا لكن بقيت عقدة مانعة من وجود الإخلاص القلبى والولاء الصحيح بينه وبين عساكره، وهى اختلاف الدين، وهذا أمر لم يفكر فيه المترجم لعدم تدنيه بدين دون آخر فكان في الحقيقة لا دين له إلا ما يسمونه بالدين الطيعى وهو الاعتقاد بالخالق والإيمان به وبقدرته ونعيمه وعذابه ورفض أقوال الأنبياء جميعاً واتباع الذمة والشرف في كل الأمور، وأهل هذا الرأى قوم يدّعون أن الأديان لم توجد أو أوجدتها العقلاء إلا لتكون رادعة للإنسان عن وقوعه في الخطورات وارتكابه المنكرات والإضرار بالناس وما دام للإنسان رادع ووازع من نفسه وذمة، فلا حاجة له باتباع أوامر هذا الدين أو اجتناب منهيات ذاك.

لكن المترجم منعاً لما عسى أن يكون باقياً في قلب عساكره من الضغائن المسببة عن اختلاف الدين وموافقة لهم على أفكارهم وعوائدهم اعتنق الدين الإسلامى ودان له بواسطة أحد البيكوات الحجين له وتزياً بزي الترك الذى كان شائعاً وموجوداً وقتئذ في البلاد المصرية، ومن يومئذ سُمى بـسليمان أغا،

وسنذكره من الآن بهذا الاسم تاركين الاسم الأفرنكي، وكان دخوله في الدين الإسلامي ظاهرياً فقط بدليل حضوره الصلاة التي أقيمت على روح والدته حين سفره إلى ليون كما سيجي، فلما أسلم ازدادت محبة عسكره له وإطاعتهم إياه وأقبلوا حينئذ على تعليمه بإخلاص النية وصفاء الطوية وأكبوا على تمريناته العسكرية حتى حاكوا بعد قليل من الزمن أحسن الجيوش الأوروبية نظاماً وشجاعة وإقداماً.

٥- فتح السودان

وكان العزيز محمد على باشا فى أثناء هذه المدة يدبر حيلة لشن الغارة على بلاد النوبة وفتحها لإتصال أسباب التجارة بينها وبين مصر، ولجمع جيش من سكانها المشهورين بالشجاعة والإقدام، وكان له قصد آخر فى إثارة هذه الحروب وهو استئصال شأفة من بقى من عساكره الأرتود وغيرهم من الأخلاط والتخلص من شرهم والتخلص من كيدهم، فإنه كان لا يعول إلا على المصريين الذين ألفت محبة فى قلوبهم لما رفعه عنهم ودفعه من جور الممالك وتعتديهم عليهم وظلمهم التراكم لهم ونشره لواء الأمن بين ظهرانهم وسعيه أثناء الليل وأطراف النهار فيما يعود عليهم بالنجاح والفلاح، ولقد كان لديه فرصة مناسبة لدخوله السودان بخيله ورجله وهى التجاء بعض الممالك بعد قتل أغلبهم فى القلعة إلى مديرية دنقلة خارجاً عن الحدود المصرية حتى اتخذوها حصناً حصيناً لهم، ولأجل أن يثير خاطرهم أرسل لهم أحد أعوانه ليدعوهم للرجوع إلى مصر والإقامة فيها بشروط أهمها أن لا يدخلوا الحدود المصرية إلا بعد الإذن لهم بذلك وإرسال أحد الضباط لياتى بهم إلى العاصمة وأن لا يأخذوا شيئاً من المصريين أثناء مرورهم فى أرض مصر، كما كانت عليه عادتهم، بل يكون الضابط الذى يرافقهم هو الذى يقوم بجميع ما يلزم لهم من الميرة وغيرها، وأنهم إذا أتوا القاهرة يقيمون فى جهة مخصوصة، ومنها أيضاً أن يتنازلوا عما كان لهم من الإمتيازات والحقوق وأن لا يطلبوا ما أخذ منهم بحق أو بدونه بعد مذبح القلعة من عقار أو أثاث وغير ذلك، فأبى الممالك تلك الشروط الصارمة كما كان يتوقعه محمد على باشا ولم يكتفوا بآبائهم بل تسددوه بالدخول إلى الحدود المصرية وإيقاد نار الوغى وإدارة رحاها.

فبمجرد وصول جوابهم إلى الوالى عزم على فتح النوبة لإذلالهم وقطع دابرهم وأمر بحشد الجيوش فى جهات مصر القديمة للزحف على السودان وجعل هذا الجيش تحت إمرة إسماعيل باشا ثالث أولاده، وكان إسماعيل باشا

المذكور متصفاً بالشجاعة بارعاً في ضروب القتال لكن أنى له أن يماثل أو يشابه أخاه إبراهيم باشا الذى قهر العرب الوهابيين ودوَّخهم، حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة مع كون العرب مشهورين بالبسالة وشدة البأس وهم الذين فتحوا معظم البلاد في صدر الإسلام ولولا ما وقع بينهم من انفصام عرى الاتحاد وتفرق الكلمة لملكوا سائر الأقطار وتغلبوا على جميع ما فيها. أما السودانيون فهم قوم متوحشون لا علم لهم بفنون القتال عزل لا سلاح لهم إلا الرماح ولا علم لهم بقوة نيران البنادق والمدافع إذ لم يسمعوها بما قبل ذلك الوقت ولا ايقى لهم من مفذوفاتها إلا جلودهم أو الدرق المصنوعة من جلد حصان البحر، فشتان بين هذه الأمم المتبربرة والعرب الذين كأنهم لم يخلقوا إلا للقتال ومع ذلك فقد تمكن إبراهيم باشا من قهرهم وكبح جماحهم.

وكان هذا الجيش الذى كان تحت قيادة إسماعيل باشا مؤلفاً من ثلاثة آلاف وأربعمائة راجل وألف وخمسمائة فارس واثني عشر مدفعاً وخمسمائة من عرب العبادية تحت رياسة شيخهم عابدين كاشف الذى وعده المرحوم محمد على باشا بأن يوليه على دنقلة بعد فتحها.

فلما اجتمع الجيش في جهة مصر القديمة أرسلت العساكر المشاة وباقي الميرة والذخيرة إلى أسوان على طريق النيل وأما الخيالة والمدفعيون فسافروا إليها عن طريق البر وكانت المقدمة تحت قيادة محمد بيك الدفتردار صهر الوالى.

وأما إسماعيل باشا ومعيته فسافروا من القاهرة في ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٠، وبمجرد وصوله إلى أسوان اجتاز هو ومن معه الحدود المصرية ودخلوا أرض دنقلة وكان قد احتلها الدفتردار وجيوشه المؤلفة من خمسمائة فارس ولم يعارضهم أحد من المماليك في حال سيرهم بل أدخلوا البلاد ورحلوا إلى مدينة (شندى) فلم يقبلهم ملكها، ولما وجدوا أن بلاد السودان قد أغلقت في وجوههم وأقم لا يمكنهم الرجوع إليها لإقتفاء الدفتردار أثرهم أيسوا من الحياة وتفرقوا بين القبائل المتبربرة فمات أغلبهم جوعاً وصار السودانيون يسلبون

أسلحتهم وملابسهم حتى انقطعوا عن آخرهم غير مأسوف عليهم لما تركوه في مصر من قبح النسرة وسوء السرية ولما ارتكبوه فيها من السلب والنهب مما سبق ذكره.

وقد ظن النوبيون أن المصريين يرجعون إلى بلادهم بعد تشتت شمل الممالك، ولذلك لم يستعدوا للقاتهم ولا محاربتهم بل استمروا على اختلافهم الداخلية فانهز المصريون هذه الفرصة لإحتلال بلاد دنقلة حتى دخلوا هذه المدينة وحينئذ شكل فيها إسماعيل باشا حكومة منتظمة باسم أمير المؤمنين، لا باسم محمد على، لأنه لم يكن والياً إلا على مصر من قبل دار الخلافة العظمى.

ثم خرج بجيشه إلى مدينة (شندى) فاعترضه في الطريق النوبيون الذين كانوا قد جمعوا شتات قواهم واتحدوا للدفاع عن وطنهم، ومع ذلك لم يجد دفاعهم شيئاً أمام القوة المصرية لأنها منتظمة مسلحة بالأسلحة النارية والمدافع القهرية بل اضطروا إلى القهقري بعد ما دافعوا عن وطنهم دفاع الأبطال ومات أغلبهم شهداء وطهم العزيز، فاقفى إسماعيل باشا أثر الباقيين حتى فرقهم أيدي سباً ولم يجد بعد هذه المقاومة العظمى معارضاً في طريقه فتقدم بخيله ورجاله، ومدافعه تقدمه وألقى في قلوب السودانيين ما ألقاه من الرعب حتى وصل إلى مدينة بربرة^(١) فألقى فيها بعض قتابل ليتحقق من عدم وجود من يدافع عنها فدخلها وكان دخوله بموكب حافل في ٨ خلت من شهر مارث سنة ١٨٢١. وفي ٨ مايو من هذه السنة دخل مدينة (شندى) وهي واقعة في منتصف الطريق بين بربر والخرطوم على البر الشرقي للنيل وفيها استسلم إلى إسماعيل باشا من يدعى (شاويش) أحد أمراء بربر ودخل مع قومه في عداد العساكر المصرية ليأمن بذلك على روحه وماله ولينتقم من باقي الأمراء الذين كانوا معادين له.

(١) مدينة واقعة على شرق النيل وتبعد مسيرة يوم عن مصب نهر (عبرا) ومنها تسافر قوافل التجار إلى سواكن الواقعة على البحر الأحمر وإلى وادي حلفا الواقعة على حدود مصر.

وبعد ذلك تقدم في داخلية السودان حتى وصل إلى ملتقى النهرين الأزرق والأبيض وأسس هناك مدينة الخرطوم لما لهذا الموقع من الأهمية التجارية والحربية لسهولة الوصول منه بواسطة النيل إلى مصر والإمكان إرسال الجيوش منه لفتح السودان الشرقي حتى الحبشة حيث يخرج نهر (عبرا) والنهر الأزرق أو لفتح السودان الجنوبي حتى خط الإستواء بركوب النهر الأبيض، وبعد أن حصّن هذه المدينة وجمع فيها المؤن والذخائر الكافية ترك فيها بعض عسكره لحمايتها وسافر ببقية جيشه لفتح بلاد (ستار) الواقعة بين النهر الأزرق ونهر (عبرا) ففتحها وخلع أميرها واحتل تحتة عنوة ثم أراد أن يستريح ويريح جيشه لما كابده من الأتعاب والأوصاب وتحمل المشاق في هذه البلاد الحارة لا سيما وكان قد فشا في عسكره المرض وأهلك كثيراً منهم.

هذا ولم يجد إسماعيل باشا ما حمل والده على فتح السودان وهو تبر الذهب وإنما وجد بعض رمال يمكن أن يستخرج منها ذهب لكن الذي يحصل منها لا يفي بما ينفق لإستخراجه، ولما لم يجد مرغوبه استعاضه بأسر كل الشبان السودانيين القادرين على حمل السلاح وإرسالهم مصفدين بالسلاسل والأغلال إلى أسوان ليندرجوا في سلك العساكر المنتظمة الذين كان يمرّهم سليمان أغا المتقدم ذكره، فزاد عدد الوارد منهم بعد من يموت منهم في الطريق إما بالأمراض الناشئة عن تغير حالتهم وطبيعتهم من المأكسل والمشرب أو لعدم موافقة طقس البلاد لهم ازدياداً عظيماً حتى اضطرّ سليمان أغا إلى طلب مساعدين له على القيام بواجبات وظيفته وكتب بذلك إلى محمد علي باشا فأجاباه وعين معه ضابطين فرنساوين آخرين ومن يومئذ أخذ جيش أسوان المنتظم في التقدّم يوماً عن يوم في سبل الفلاح والنجاح.

ولم يقدر إسماعيل باشا مع علو همته وشدة سطوته على منع الأمراض عنهم، بل هاجمته بقوة عظيمة حتى أبادت أغلب عساكره، وكان هذا حاملاً له على العدول عن فتح بلاد كردفان وكان قد عزم على فتحها بعد أن أتم فتح (ستار)

والتزم بالإقامة فيها حتى يأتيه من مصر ما طلبه من المدد والمؤن وكان جنسه حينئذ في غاية الضعف مادياً لقتلهم، وأدبياً لفتور عزيمتهم بإقامتهم بين قبائل معادين لهم ولا يمكنهم المدافعة عن أنفسهم لو ثاروا عليهم وهاجمهم قبل مجئ المدد إليهم.

سفر إبراهيم باشا إلى السودان:

وبقى إسماعيل باشا مشغول البال زائد البال لزيادة الوفيات في جيشه ولكون أغلب الباقين مرضى بالمستشفيات ولا يثمر فيهم علاج لتسلط اليباس عليهم. واستمر على هذه الحال حتى أتاه المدد وما طلبه من المؤن فسر بذلك ومما زاده سروراً قدوم أخيه إبراهيم باشا إلى ستار لمساعدته على إتمام فتح السودان وتوطيد الأمن به مع أنه كان يؤدّ الإنفراد في مثل هذه المهمة بدون مشاركة أحد له فيما يكتسبه من أنواع الفخر وعلو القدر. ولما انتشر في الجيش خبر قدوم إبراهيم باشا وعسكره انبث فيهم روح جديدة وشفى كل مريض بلا علاج لما استولى عليهم من الفرح والإنشراح وذهب عنهم اليباس والحمول وسرت في عروقهم الرغبة في القتال وما يتبعه من كسب الغنائم.

اغتم إبراهيم باشا وأخوه هذه الحركة لتنفيذ مشروعاتهما وقسما الجيش إلى فرقتين بعد أن تركا حامية قوية في مدينة (ستار) إحداهما تحت قيادة إسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على البحر الأزرق إلى حدود الحبشة والأخرى تحت قيادة إبراهيم باشا لفتح بلاد كردفان ودارفور وبعد أن أتى ما يلزم لهما من الاستعدادات جمعاً الذخيرة والمؤن وتوجه كل منهما لوجهته فقام كل منهما بما عهد إليه أحسن قيام ونشر علم التمدن في هذه الأصقاع واستبق كل منهما لخيرات ما سبق إليه وقام بأداء ما يجب عليه، وانبث الراحة في هذه البلاد المتبررة التي أرخى التوحش عليها سدوله وضرب الجهل بين أهلها أطنابه. فلما اعتراها التعب من المشاق الشديدة أرسل إلى والدهما يطلبان منه العودة إلى الأهل والوطن وكان ذلك في شهر يوليو سنة ١٨٢٢ فلم يقع طلبهما هذا عند

والدهما موقع الإستحسان وأمرهم بالإقامة في السودان حتى ينظما فيه حكومة ثابتة لا يخشى عليها من طوارق الزمان وبواعث الخدثان، وأثر المنفعة العمومية على المحبة الوالدية فيمثل هؤلاء الرجال تسهل المسالك وبضدّهم تزول الممالك، فلبثا بعد ذلك شهرين في أقاصى هذه البلدان ثم سافر إبراهيم باشا إلى مصر توطأ مستصحباً معه بعض الجند.

وأما إسماعيل باشا فمكث بعد أخيه عدة أسابيع لترتيب أمور هذه المملكة الواسعة المفتحة حديثاً وبعد ما دبر أمورهما أرسل بعض الجند ومعهم أسرى الزنج إلى مصر على طريق البر واستعد للسفر من طريق البحر قبله في أثناء ذلك أن أهالى دنقلة وبربر وما جاورهما أخذوا يتآمرون على معاكسة الحكومة المصرية لما انتشر بينهم من الأخبار الكاذبة والأراجيف الملققة التي كان يشها بينهم ذروا الأغراض الفاسدة مما يتعلق بانكسار المصريين في (ستار) وبلاد البحر الأبيض فشدوا أزرهم وتكاثروا وتجمعوا حوالى بربر وشندى وهجموا على قوافل الأسرى التي أرسلها إسماعيل^(١) باشا إلى معسكر أسوان قبل مبارحته السودان وهددوا من كان معهم من العساكر حتى تخلصت الأسرى من أيديهم ورجعوا إلى شندى فرحين مسرورين بما أوتوا من النصر والظفر على جيوش المصريين.

موت إسماعيل باشا:

لما وصل هذا الخبر المشنوم إلى إسماعيل باشا قام من ساعته ومعه باقى الجيش قادماً مدينة شندى وكان ملكها رئيساً لهذه الثورة فوصلها فجأة ودخلها بدون أن يقاومه أحد أو يعارضه معارض حتى احتلها مع عسكره ثم أمر بإحضار ملك شندى أمامه، فلما مثل بين يديه أخذ يرميه بأنواع الشتم والسب حتى اشتد غيظه، وزاد بصفعه على وجهه فلم يقدر أن يقوه بينت شفة، بل أسرها له في نفسه وعزم على الإنتقام منه، وأما إسماعيل باشا فعفا عنه بشرط أن يدفع غرامة

(١) الصواب إبراهيم باشا (المحرر).

قدّرها خمسة آلاف بيتو يدفعها في مدة خمسة أيام وألفان من الرقيق فامتثل لذلك ملك شندى وقبل هذه الغرامة ظاهراً مصمماً على الأخذ بالثأر.

ثمّ أولم لإسماعيل باشا ومن معه من كبار القوم وليمة في قصره ودعاهم إليها فأجابوا دعوته وتوجهوا إلى منزله غير عائلين بما تكنّ لهم صدور أعدائهم من المكاييد، فبينما هم على الطعام إذ أمر الملك أعوانه بأن يجمعوا حطباً كثيراً وقشاً وتبنياً وغير ذلك من المواد الجافة السريعة الإلتها ب، وأمرهم أن يضعوه حول البيت فلما فرغ الأضياف من تناول الطعام وتأهبوا للخروج والذهاب إلى معسكرهم، أضرم الأعداء النار فيما جمعه حول المنزل من المواد الإلتها بية فلم يحض إلا هنيهة حتى اقتد المنزل وما فيه من الأثاث وصار كشعلة مسن نار ولم يتيسر لإسماعيل باشا ورفقائه الخروج لشدة النار وإحاطة جنود الملك بهم من كل جهة فسدّت في وجوههم المسالك حتى ماتوا حرقى ولم يتيسر لمساكرهم أن ييسطوا لهم يد المساعدة ويخلصوهم من هذه الميئة الشنعاء لإنقضاض بساقي جنود السودانيين عليهم وذبحهم إياهم، فلم ينبج منهم إلا من تمكّن من الهرب تحت جنتح الظلام وأستار الليل.

فلما بلغ محمد علي باشا نعي ولده تأثر جداً وحزن على فقده زمناً طويلاً لا سيما وكان قد توفي قبله ولده طوسون باشا ومع ذلك لم يلهه حزنه عن النظر في أمور حكومته والسعى في إتمام مشروعاته خصوصاً ما يتعلق بتنظيم الجيش مع ما صادفه في طريقه من العقبات التي كادت أن تحول بينه وبين نجاح مشروعه لولا ثباته ومثابرته على العمل وعدم تأخره عند حدوث مانع أو طروء صعوبة بل كان يلقى الصعوبات بقلب ثابت لا تزغزه العواصف ولا ترهبه القلاقل ولما جرى بحجة إسماعيل باشا محرقة إلى مصر احتفل بدفنها احتفالاً عظيماً ظهر به ميل المصريين للعائلة الحاكمة ومشاركتها لها في فرحها وحزنها وسرائها وضرائها.

ولم يكن يشوب تلك الحجة الخالصة والألفة الصادقة إلا مسألة إدخال الشبان المصريين في العسكرية وهو الأمر الذي تسبه المصريون من عهد سقوط دولة الفراعنة وإغارة الأجانب على مصر وحكمهم إياها حتى جهل المصريون في هذه الأحقاب العديدة والقرون المديدة أن لهم وطناً يلزمهم الدفاع عنه والسعى في كل ما يعود عليه بالسعادة والرفاهية لعلمهم أنهم ليسوا آمنين على أرواحهم وأولادهم وأموالهم وأعراضهم من ظلم من أتى إليهم وطراً عليهم من الأجانب بين عجم ويونان ورومان ومسلمين على اختلاف عائلاتهم بين عباسيين وفاطميين وأيوبيين وترك وجركس وممالك مختلفي المشارب والمذاهب متحدين على امتصاص دم المصري واسترواف ثروته واستخدامه واستعباده إلى غير ذلك مما يضيق عنه هذا الكتاب.

هذا وقد اتخذ العساكر الألبانيون (الأرنؤد) اشتغال محمد على باشا بموت ولده والإحتفال بشأنه، فرصة ووسيلة لتحريض الأهالي لا سيما المزارعين الذين هم أكثر المصريين عدداً إن لم يكونوا كلهم على مخالفة محمد على باشا حتى إن بعض البلاد امتنعت عن إدخال أولادهم في العسكرية وأهانوا المأمورين المكلفين بجمعهم ولولا حكمة محمد على باشا لتفاقم الأمر وعظم الخطب ونال الألبانيون بغيثهم من تقويض أركان حكومته ودك دعائمها.

هذا ولما كان الجيش الجارى تنظيمه بأسوان بمعرفة سليمان أغا ورفقائه قد بلغ درجة عظيمة في حسن النظام وصار بحيث يمكن الإعتماد عليه والإستناد إليه، أراد محمد على باشا أن يجعله ركناً لدولته فأرسل إلى سليمان أغا أن يحضر مع جيشه إلى الخانقاه (الختكا) فحضر وكان جيشه مؤلفاً من خمس وعشرين ألفاً ما بين مصري وسوداني وهو منقسم إلى ستة أليات ضباطهم وصف ضباطهم من الأورباويين ومن ممالك محمد على باشا الذين كانوا أول من تدرب على التعليمات العسكرية.

ولما حضر الوالى مناو راقم في ميدان الخانقاه وشاهدها ازداد بما سرورا وأنعم على سليمان أغا برتبة أميرالاي مع لقب بيك وجعله (أميرالاي) للأولاد السادس وأقطعه أرضاً واسعة وأمواً كثيرة مكافأة له على إتمام هذا المشروع وإخراجه من حيز الفكر إلى حيز الفعل، ثم أمر بإلغاء الجيش غير المنتظم (باشبورق) ورسم بأن من يريد الدخول في الجيش الجديد من الألبانيين يقبل وإلا يطرد من الحكومة المصرية ويرجع إلى وطنه.

أما سليمان بيك فأخذ من يومئذ في إصلاح أطيانه وأمواله وبنى له قصراً جليلاً على النيل في مصر العتيقة وفرشه بالأثاث العربي وأحاطه بالبساتين والمروج حتى صار من أحسن أماكن مصر وأهمجها وأعلاها، وصار يؤمه كل من دخل مصر من الفرنساويين فيلاقون من رب البيت ما تقر به أعينهم ويسر به خاطرهم وينشر به صدرهم من إكرام الوفادة ولطف اللقاء.

هذا ولما وصل خير غدر ملك شندى بإسماعيل باشا إلى محمد بيك الدفتردار الذى كان إذ ذاك ببلاد دارفور قتل راجعاً إلى بلاد النوبة ليأخذ بثأره فأحرق القرى بعد قتل سكانها بين رجال ونساء وأطفال ولم يترك النوبة وشندى إلا بلقياً لا يسكنه إلا بنات آوى والوحوش الضارية والطيور الكاسرة لأكل جثث القتلى التى أفسدت الهواء بما تصاعد منها من الروائح الكريهة ومع هذا كله لم يتمكن الدفتردار من قتل الملك ولا القبض عليه ولم يقف له على أثر بعد أن بذل جهده في التفتيش والبحث عليه في جميع أنحاء السودان.

* * *

٦- حرب اليونان

ثم إن محمد على باشا لم يبق له شاغل بعد ترتيب الجيش المنتظم واستتباب الأمن في ديار السودان بمهمة صهره محمد بك الدفتردار ونشر لواء العدل والمساواة في داخلية الحكومة، إلا نشر التمدين وأسبابه بين الأهالي فأخذ في فتح المدارس التي هي أساس التمدين والعمران في كل الحكومات والممالك لتعليمها الشباب ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات نحو أنفسهم والعائلة والوطن وبث روح التعاضد والتساعد بين أفراد الأمة وحب الاتحاد والارتباط اللازمين لنجاح أى مشروع كان، ثم وجه التفاته إلى إصلاح مجرى النيل وإقامة الجسور لمنع الغرق وشق الترع والجداول لمنع الشرق، وتأسيس الورش والمعامل لإيجاد الصناعة في القطر والاستغناء بها عن المصنوعات الأجنبية وحصر ثروة البلاد في أيدي أهلها الذين هم أولى بها من غيرهم من الأجانب الذين جل بغيتهم جمع الأموال وحوزها، والإثراء بأى طريق كان غير ناظرين إلا لمنفعتهم الخاصة ومنفعة بلادهم تاركين منفعة البلاد التي يظلمهم سماؤها ويروى غليلهم ماؤها، لكن لا لوم عليهم في ذلك ولا تتريب لكونهم أجنيين عن البلاد.

وبينما هو مشغول بهذه الإصلاحات آمن على داخلية حكومته لعدم وجود منقص من جيش الألبانيين، وخارجيتها لوجود الجيش المنتظم الذى يمكنه به أن يصلح به كل مهاجم مع مساعدته بسفنه الحربية العديدة المسلحة بالمدافع على الطراز الذى كان مستعملاً في ذلك الوقت، إذ ورد إليه خبر تعيينه والياً على ولايتي كريد وموره بشرط إرسال قوة كافية لإخماد ثورة اليونان الثائرين للحصول على الإستقلال السياسى المستدعى لطرح سلطة الدولة العلية.

نستطرد هنا إلى الكلام على الثورة اليونانية بشرح وجيز قبل التكلم على حرب موره فنقول:

من عهد فتح العثمانيين بلاد اليونان لم يحصل من اليونانيين ما يخل بالراحة بل أذعنوا لحكم الأتراك بعد مقاومة يسيرة وامتثلوا الأحكام بالقوة واستمر هذا السكون إلى سنة ١٨٢٠ حتى انتشرت في أوروبا مبادئ الثورة الفرنسية المبنية على ثالث الحرية والمساواة والإخاء على أثر حرب نابليون التي اشتد فيها بأسه ولم يمنعه تغلب الجيوش الأوروبية عليه وإرجاعهم فرنسا إلى حدودها التي كانت عليها قبل الثورة، من غرس مبادئ الثورة في كل بلد دخلها أو مر بها، فبنت وشت وامتدت فروعها إلى سائر أنحاء أوروبا حتى وصلت إلى اليونان فنبهتهم للمطالبة بحقوقهم وعرفتهم أن لهم حقاً في المجتمع السياسي وبنت فيهم الشوق إلى أن يكونوا إسوة بسويسرا مثلاً.

لكن لما علم أغنياء الأمة اليونانية أن السواد الأعظم من أبناء جنسهم قد طمس على أعينهم الجهل وأن أساس الحرية هو الإستارة بنراس العلم، إذ به يعلم الإنسان أن له حقوقاً يطالب بها كما أن عليه واجبات يطالب بها الغير، أخذوا أولاً في إرسال أولادهم إلى الممالك الأوروبية ليتحلوا بالعلوم والمعارف وليكونوا رؤساء الأمة ودعاة حريتها في المستقبل ثم ألفوا عدة جمعيات لنشر العلم بها بين سائر طبقات الأمة من وجه، ولبت روح الوطنية بينهم من وجه آخر، وألفوا جمعيات أخرى سياسية وجعلوا مراكزها في روسيا أو في النمسا وأهم هذه الجمعيات الجمعية السرية المسماة جمعية (هينري)^(١) فإنما تألفت في مدينة ويانا سنة ١٨١٥ وقد قيل إن الإسكندر الأول قيصر روسيا كان هو المخرض عليها تنفيذ الوصية بطرس الأكبر من الإستيلاء على القسطنطينية لكن حال دون نفاذها محافظة انكلترا خصوصاً وأوروبا عموماً على التوازن السياسي بين قوى الدول.

(١) كلمة يونانية معناها جمعية أخوية أطلقت على جمعية أسسها اليونان في مدينة ويانا تحت ليلها قصداً لنشر المعارف بين اليونان ظاهراً وللتمييز في استخلاص الأمة اليونانية من حكومة العثمانيين بالعلن وبغير سرية حتى سنة ١٨٢١ وهي المصيبة في حصول اليونان وتحصيلهم على الإستقلال ونشر رؤسائها الموسيو (كيبودستريا) و(فيلانتى) وسبأى لكلام عليهما.

وكان كل من يدخل هذه الجمعية يقسم على أن يبذل روحه وماله في سبيل الحصول على الإستقلال السياسي والحفاظ على السر في كل ما يتعلق بهذا المشروع أو بضمن نجاحه، فكانت هذه الجمعية أشبه شئ بجمعية الكاربوناري التي انتشرت أثناء ذلك في كافة الممالك اللاتينية، فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال، ثم تشعبت فروع هذه الجمعية في أنحاء الدولة العلية التي لها يونانيون حتى بلغ أعضاؤها في أوائل سنة ١٨٢١ نيفا وعشرين ألفاً أقوياء على حمل السلاح ومستعدين للقيام عند أول إشارة تصدر من رؤسائهم. وكان من أسباب المساعدة على انتشارها اشتغال الدولة بمحاربة على باشا والى "يانينا" الذي ثار عليها طلباً في الإستقلال والإستيلاء على الجزء الغربي من تركية أوروبا، ولكنه لم ينجح في مشروعه لمضايقة خورشيد باشا له وحصره إياه في قصره الكائن بجزيرة في وسط بحيرة بالقرب من يانينا ومع ذلك لم يستسلم من أول وهلة بل دافع مع من بقى من رجاله حتى أصيب بعدة جراحات وخر قتيلاً فأمر خورشيد باشا بحرق رأسه وإرسالها إلى دار الخلافة وكان ذلك في ٥ فبراير سنة ١٨٢٢.

ولقد انتهز اليونانيون اشتغال عساكر الدولة بمحاربة على باشا المذكور وأيقنوا أن هذه فرصة لهم فرفعوا راية العصيان وانتشر القتال بينهم وبين عساكر الدولة العلية فلم تشرع الدولة في قمع عصيانهم إلا بعد قتل على باشا ثم أرسلت إليهم قوة عظيمة تحت قيادة خورشيد باشا قاهر والى يانينا فكانت له عليهم الغلبة أولاً ثم انقلبت عليه الدائرة فانهمز في واقعة (ترومبيل) في شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ فلما تبدد جيشه أثر الموت على أن يعود إلى دار الخلافة مهزوماً بعد ما نال من الشهرة فاتحراً مسموماً.

وما زاد هذا الإنكسار أهمية حرق الدونانمة التركية في جزيرة صاقس وذلك أنه بعد انتصار العسكر العثمانيين مجزاً على مراكب اليونان الحربية واستيلائهم على جزائر صاقس وساموس، صادف ذلك حلول عيد الفطر فينما العثمانيون

في فرح وحبور غير ملتفتين إلى سفنهم انتهز اليونانيون هذه الفرصة وأحرقوا الدوناغة التركية عن آخرها ومات فيها ثلاثة آلاف بحري وقبودان الدوناغة وكان ذلك في ١٨ يونيه سنة ١٨٢٢ وبقي الحرب بعد ذلك بينهم مجالاً إلى سنة ١٨٢٤.

فلما رأى السلطان محمود الثاني ما حصل من الأهوال في هذه الحروب السقي قتل فيها أعظم قواده البرية والبحرية ونفدت في سبيلها الخزينة السلطانية وخشى من أن اشتغال محمد على باشا بما كان يجريه من الإصلاحات الداخلية ربما يكون سبباً لحصوله على الإستقلال وتمكنه من مثل ما وقع من على باشا وإلى يانينا، أصدر فرماناً بتاريخ ٦ مارت سنة ١٨٢٤ مشعراً بتعيين محمد على باشا وإلى مصر والياً على كريد وموره وكلفه بإخضاع اليونان وإدخالهم تحت الراية العثمانية بعد مجازاتهم على ما ارتكبوه من كفران نعمة الدولة العلية السقي لم تعارضهم منذ استيلائها على بلادهم في شئ من ديانتهم ولا عوائدهم بل عاملتهم بالإحسان إليهم وأن ما حصل لهم من الأمور المغايرة لخواطهم إنما هي من بعض الموظفين فكان الأجدر بهم أن يرفعوا شكائهم إلى الباب المهابوي بدلاً من رفعهم راية العصيان ونبلهم طاعة أولى الأمر وراء ظهرهم، اتباعاً لذوى المقاسد الذين يسعون دائماً في إحداث القلاقل والأراجيف المزعجة في داخلية المملكة العثمانية لغرض يقصدونه أو لسبب ينالونه لا لمنفعة تعود على من يغرونهم على المخالفة والعصيان.

فلما وصل محمد على باشا خبر تعيينه والياً على هاتين الولايتين حار في أمره وصار يضرب أحاساً لأسداس ولم يدر ما يصنع ولا أى الأمرين يختار أيقبل ما عين إليه ويتكفل بعهدة هذه الحروب التي أعيت الدولة العلية مع جلالة قدرها وعظم شأنها وأدائها الغريبة وقوّما العجيبة أو يأبى التعيين فيغتم أخصامه بذلك فرصة إقناع السلطان بأنه ينوى الإستقلال كوالى (يانينا).

فجمع أعضاء عائلته وكبار حكومته وتروى معهم في أحب الأمور فقرّر رأيهم على قبول المأمورية والإستعداد إلى السفر قبل أن يتفاهم الأمر ويعظم الخطب في بلاد اليونان ويتسع الحرق على الراقع، لكن حدثت في هذا الوقت حادثة أوجبت تأخير سفر الإرسالية وهي أن أحد الحجاج المغربيين عند عودته من مكة نزل بالقصير وأخذ يحرّض الناس على عصيان محمد على باشا، لما أتاه من محاربة الوهابيين الذين لم يقوموا على زعمه إلا لنصرة الدين وأقنع سدّج العقول ممن اجتمع عليه بأن محمد على باشا خرج بذلك عن النصوص الشرعية وصار من الواجب على كل مسلم محاربته مجازاة له على محاربته الوهابيين وقهره إياهم، فتبعوه على ذلك وواقفوه وسار بهم قاصداً مدينة قنا وازداد عدد تابعيه ممن لقيه من العرب الذين انضموا إليه قصداً للنهب والسلب فوصل (قنا) بجيش عظيم أوقع الرهبة في قلوب سكان تلك المدينة فتبعه أغلبهم وسار بهم إلى مدينة (اسنا) وصادف وصولهم إلى المدينة وجود بعض من العساكر المصريين مسافرين إلى السودان، فأراد حاكم البلدة أن يفرّق بهم جموع العصاة فقاتلهم قسلاً ثم انضموا إليهم تخلصاً من السفر إلى السودان حيث كانوا مكرهين عليه.

فلما بلغ محمد على باشا هذه الأخبار المشوّشة للأفكار وكان إذ ذاك مشغلاً بتجهيز جيشه للسفر إلى بلاد اليونان اضطرّ أن يرسل إلى جهة الصعيد الألاى السادس تحت قيادة سليمان بك فتوجه إليهم وحاربهم هو ومن معه من العساكر الأبطال وهجموا عليهم حتى شتوهم في أنحاء الجهات ثم اقتفوا أثرهم حتى أوصلوهم إلى الصحراء فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ولقد برهن سليمان بك في هذه الواقعة على كفاءته واستعداده وأن العسكرى المنتظم يمكنه أن يقاوم عدداً عظيماً من غير المنتظمين وهذا هو الأمر الذى زاد محمد على باشا تمسكاً بالنظام الجديد.

وبعد استتباب الأمن في جهات الصعيد اهتم بالتجهيزات العسكرية وجمع سبعة عشر ألفاً من العساكر المشاة وهم الألاى الثالث والرابع والخامس

والسادس وأربع بلوكات من البلطجية وسبعمئة فارس تحت إمرة من يدعى حسن بيك وعدة من مدافع القلاع والمدافع الخفيفة، وكان هذا الجيش تحت قيادة إبراهيم باشا فأقلع من ميناء الإسكندرية هو وعسكره في ١٠ يوليو سنة ١٨٢٤ ومعه ستون سفينة حربية غير السفن الحاملة للعساكر وخيلها ومهماقها قاصداً جزيرة (رودس) ليجمع هناك مع دوناتمة الدولة العلية فوصلت الدوناتمة المصرية إلى جزيرة (رودس) قبل وصول الدوناتمة العثمانية والسبب في هذا التأخير أنه حال سير الدوناتمة العثمانية قابلها الأميرال اليوناني ومعه خمسون سفينة حربية صغيرة وبعض حراقات أحرق بها سفينتان عثمانيتان أحدهما بما ٣٢ مدفعاً والآخرى ٥٤ مدفعاً وأخذ عشرون زورقاً من زوارق الحمل بما فيها من المؤن والذخائر، ولما لم يتيسر للأميرال العثماني مقاومته أقبل بجراجه من وجه العدو والتجأ إلى إحدى مدن آسيا الصغرى ثم أرسل أوامره إلى الدوناتمة المصرية بالحضور إلى هذه الجهة لمساعدته على اليونانيين فلم يسع إبراهيم باشا إلا بتلبية طلبه وكان اجتماع الدوناتمتين في يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٨٢٤ وبعد قدوم المدرعات المصرية أطمأن جاش الجيوش العثمانية وهذا روعهم وقد بهم العجب والاندحاش مما وجدوا عليه الدوناتمة المصرية من الاستعداد والنظام الذي لم يروا مثله عندهم وشهدوا لمنشئها بعلو الهمة وحسن التدبير ومزيد السياسة وطول الباع وسعة الإطلاع.

هذا واجتماع الدوناتمتين المصرية والعثمانية تألفت منهما قوة عظيمة بحرية لم يسبق وجودها في بحر اليونان أثناء هذه الحروب لكن لم توقع هذه القوى المجتمعة الرعب في قلوب البحرية اليونانيين لتدريجهم على الحروب البحرية ومعرفتهم بمسالك البحار ومفاوزها، بل جمع أميرال العدو سفنه الصغيرة السريعة السير وأتى بها في ٥ سبتمبر سنة ١٨٢٤ لمهاجمة الدوناتمات المتحدة، وكانت تتقدمه الحراقات فلما قربت سخر منها المصريون لصغرها ولم يدر بخلداهم أنها تحمل النار في جوانبها وتحرق كل ما تلمسه من السفن، كبيرة كانت أو صغيرة، أما العثمانيون فلمكابدهم غير مرة نيران هذه الحراقات وما تجلبه من

الضرر لجأوا إلى الفرار وولوا الأديار فتبعهم العدو بحراقاته حتى لحقهم وتمكن من احرام النار في السفينة الحاملة قبطان باشا وفي حصة مراكب أخرى فمجزز العثمانيون عن إطفاء النار وقصروا في إطفائها وإخاد سعيها فتركوا سفنهم تستمر ناراً ونزلوا في الزوارق قاصدين فرض الأناضول ليتخلصوا من كيد هذا العدو الذي لم يقدرُوا على مقاومته لشجاعة اليونانيين وتعريضهم أنفسهم للتهلكة لإحراق سفنهم ولو أفضى ذلك لإحراق السفينة ومن فيها ولا يخفى ما في ذلك من الخطر لأن قابوذان الحرقاة ملتزم بأن يكون بجلاء سفينة العدو ويربط فيها سفينة بخطاطيف من الحديد بعد وضع النار في البارود الموجود بها والمعلق على جوانبها ثم يزل هو ومن معه إلى زورق صغير ويلجأ إلى الفرار حين يكون عسكر العدو مشتغليين بإطفاء النار والمهرب فراراً من الموت حرقاً.

هذا ما كان من أمر الدوناعة العثمانية وأما إبراهيم باشا فإنه ولو فقد مساعدة العثمانيين له فلم يخطر بباليه الهرب من أمام العدو قط، بل قابل سفنه بنيران المدافع المحكمة الطلقات حتى أمكنه أن يتخلص من شرهم ثم أقبل قاصداً بلاد (موره)، ولكن لسوء حظه لم يتيسر له إنزال عساكره إلى البر لمعاكسة العدو له لاسيما وقد أحرق العدو بالقرب من جزيرة (كريد) إحدى سفنه وأخذ منه خمس سفن جسيمة فيها ألفا عسكري برى ولما لم يتمكن من إنزال عساكره رجع إلى جزيرة (رودس) وبعد أن استراح وأراح عساكره أقبل منها قاصداً جزيرة (كريد) وترك سليمان بيك مع فرقته لحماية (رودس).

وفي هذه الأثناء وقع الخلاف بين رؤساء دوناعة العدو وهياج عساكره البحرية لعدم صرف مرتباتهم وأبوا استمرار القتال ورجعوا إلى اليونان لإجراء ما فيه الحصول على متأخر ما هياقم، فمجرد وصول الخبر إلى إبراهيم باشا بذلك أرسل تورا إلى سليمان بيك يستقدمه إليه من رودس فوصل إليه ثم أقبلع من (خانيا) مينا جزيرة (كريد) وجد في السر واجتهد حتى وصل إلى مينا (مودون) وأنزل عساكره إلى البر قبل أن يشعر بقدمه أحد وكان ذلك في ٢٦

فبراير سنة ١٨٢٥. ولما وصل إبراهيم باشا إلى بلاد (موره) رأى العثمانيين في أسوأ حال من الضنك والضيق لتغلب اليونانيين عليهم في كل المواقع البرية والبحرية ولم يكن ذلك بقوة اليونان فلو لم يوجد أمام العثمانيين إلا هم لأهلكوهم عن آخرهم وألزموا من بقى منهم بعد الحرب بالدخول تحت جناحهم وسلطتهم، كما كانوا قبل ذلك وما ساعدتهم على مقاومة العثمانيين والإستظهار عليهم في عدة مواقع مهمة إلا أسعاف الأوروبيين لهم بالمال والرجال وإن كان هذا عن غير رضا دولهم ظاهراً، فتألف في جميع أرجاء أوروبا جمعيات كثيرة دعيت بجمعيات محبي اليونان وأرسلت إليهم كثيراً من المؤن والذخائر بل وتطوَّع كثير من مشاهير أوروبا وقوادها مثل (وشنطون) نجل محمر أمريكا الشهير واللورد بيرون^(١) الشاعر الإنكليزي وغيرها من فحول الرجال للدفاع عنها، ووهبوا أنفسهم لخدمة الحرية في أي مكان سعى أهله في الحصول عليها وما زاد في استمالة الشبان الأوروبيين إلى الدخول في سلك العسكرية اليونانية ما أذاعه وأشاعه في ربوعها من المكاتبات والقصائد الحماسية الحجة في ذلك كل من (فكتور هوغو) و(كازيمير ديلافين).

وبعد ظهور اليونانيين على العثمانيين وقع الخلاف والشقاق بين رؤس الثورة لحب كل منهم الإستقلال برأيه، ولكن متعهم نزول إبراهيم باشا وجيشه ببلادهم لأنه لما نزل اتحدوا على مقاومته والدفاع عن وطنهم.

هذا ولما وصل الباشا المذكور إلى بلاد اليونان لم يكن مع العثمانيين إلا ميناء (مودون) التي نزل بها ميناء (كورون).

^(١) ولد (بيرون) سنة ١٧٨٨ وتطعم في كلية (كليردج) ونجح في الشعر من سفره لكنه تشتهر بفتح المدينة وتزوج سنة ١٨١٥ ولما تزوجته بعد سنة قنار عليه الرأي العام فخرج من تكثرنا وسماح في بلاد البلجيكي وموسيرا وإيطاليا واشترك في جمعيات إيطاليا الميرية التي تشكلت لجمع الوحدة الإيطالية ولما لم ينجح في معامه سفر إلى بلاد اليونان ووقف حياته على استخلاصها من حكومة الأتراك وشهد أشهر موقعها وتوفي سنة ١٨٢٢ في وقعة ميمسولجي.

حصار ناوارين:

لم يلبث إبراهيم باشا بعد نزوله (مودون) أن رتب عساكره وأصدر الأوامر اللازمة وخرج مع نخبة جيشه وألأى سليمان بك في اليوم الثاني من مارت سنة ١٨٢٥ وقصد مينا (كورون) برأً ليخلصها من محاصرة اليونانيين لها فتمكن بانتظام عساكره من الانتصار على العدو وإدخال المدد والمؤن والرجال إلى البلد المحصورة ثم أرسل في ٢٣ مارت الألأى الثالث والرابع لمحاصرة مدينة (ناوارين) فحاصرها المصريون وضايقوها بالحصار رغم أنف اليونانيين الذين قساموهم مقاومة عظيمة الأهوال، وعند ذلك قام إبراهيم باشا مع بقية جيشه من (مودون) قاصداً (ناوارين) لتعزيز الجيش المحاصر فهاجمه في طريقة فرقة من اليونان يبلغ عددها ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل كانت آتية لمساعدة (ناوارين)، فهزمها الباشا وأسر قائدها وشتت جمعها أدراج الرياح وبالجملة فقد قاومت حامية المدينة وهجمت غير مرة على الجيش المحاصر ولولا انتظام المصريين لنال اليونانيون مرابهم بالغلبة، لكن إبراهيم باشا بما عهد فيه من ثباته الذي لا تزغره هجمات الأعداء ولا تروعه شجاعتهم وقوة جأشهم ذلل هذه الصعوبات وشدد الحصار على المدينة برأً وبحراً وكادت حاميتها تستسلم لولا مساعدة حظها لما بقدم تسعة آلاف من شبان اليونان قصد تخليصها من محاصرة المصريين وقهرهم وإرجاعهم من حيث أتوا.

وقبل وصول هذا الجيش بعشرة أميال معهم إبراهيم باشا يتغنون بنشيدهم الوطني فلم يعبأ بهم بل ترك جزءاً من جيشه لإستمرار الحصار وتركيب المدافع القوية حول المدينة وقابلهم بعساكره على مقربة من البلد فهجموا عليه بقوة وشجاعة لكن بدون انتظام وأما هو فأمر عساكره بالثبات مكانهم بدون إطلاق النار حتى إذا قرب العدو منهم أطلقوا بنادقهم دفعة واحدة ليلقوا في قلوبهم الرعب وهجموا عليه بالسلاح الأبيض على هيئة صفوف منتظمة فلما صار العدو على بعد نحو مائة متر قابله المصريون بالنيران الصابتة كالشهب المنقضة وهجموا عليهم هجوم الأبطال فلم يمض إلا قليل زمن حتى قتل أغلب عساكر

العدو وفر الباقون منتشرين في أنحاء اليونان، ومن وقتئذ أقل نجم ساعدهم وغربت شمس استقلالهم بعد إشراقها وأيقنوا أنه لو لم تمد لهم أوروبا يد المساعدة وتنصرهم بمساعدها فلكوا عن آخرهم إن لم يقبلوا العودة إلى ما كانوا عليه قبل ذلك ولقد ربح المصريون من هذه الواقعة غنائم كثيرة وأخذوا عدة من الأسرى، وكان فيهم كثير من الضباط والقواد الذين كان عليهم المعول في الشدائد المهمات بل وسائر الملمات.

ولقد شهد الأعداء للمصريين بالانتظام والثبات لما شاهدوه أمام نيرانهم ومما يزيد المصريين فخراً أنهم لم يرتكبوا القذائع في هذه الحروب وكانوا يحسنون المعاملة للأسرى ولا يقتلون من سلم نفسه إليهم وألقى سلاحه بين أيديهم، وكانت أطباء الجيش المصري تضمد جراح الأسرى وتعولهم كما تعول جرحاهم إتباعاً لأوامر إبراهيم باشا التي أصدرها إلى جيوشه واستمال بصنعه هذا قلوب اليونانيين إليه ولولا ما حصل بين العثمانيين واليونانيين من جهة وتحريض ذوى الغايات من جهة أخرى لفاز إبراهيم باشا بمأموله ونشر لواء الأمن في أنحاء اليونان، ولكن آلى محبو الفساد على أنفسهم إلا استمرار القتال بين الفريقين لنيل مآربهم غير ناظرين إلى ما يترتب عليه من سفك دماء البراء وترميل النساء وتيتيم الأطفال.

وكانت هذه الواقعة فاتحة انتصار المصريين وبها أمكنهم تميم الحصار برّاً على مدينة (ناوارين) لكن لما كانت تلك المدينة واقعة على البحر وكان يأتيها المدد والمؤن كلما نضبت علم إبراهيم باشا أنه لا يتيسر له إذلالها إلا إذا احتل جزيرة صغيرة واقعة في مدخل الميناء ليتمكن بواسطة ما يضعه فيها من المدافع من قفل مدخل الميناء ومنع المدد عن الوصول إليها أما هذه الجزيرة فكانت ذات أهمية عظيمة عند اليونان وكانت تحميها نيران قلاع البلد فلذلك كان دخولها من أصعب الأمور الشاقة، إن لم يكن مستحيلاً ومع ذلك فقد صمم إبراهيم باشا على احتلالها بعد أن أجمع هو وأركان حربه في مقدمتهم سليمان بك على أن

الإستيلاء على مدينة (ناوارين) مستحيل ما دامت هذه الجزيرة في يد الأعداء فندب إبراهيم باشا سليمان بك لهذه الخطة المهمة المحفوفة بالأخطار وكلفه بأخذ الاستعدادات اللازمة للإستيلاء على هذه الجزيرة وأطلق له الحرية الكاملة في العمل وكان ذلك في أوائل شهر مايو سنة ١٨٢٥.

فانتخب من العساكر كل من اشتهر بالشجاعة والإقدام وفاز على أقرانه بمزايا التعليم التام وحسن الانتظام ثم سافر من (مودون) بحراً قاصداً (ناوارين) فلما رأى العدو هذه القوة قادمة عليه حصل له من الرعب ما حصل واستعد للدفاع وحصّن الجزيرة وعزّز حاميتها بنخبة الشبان وكان من ضمن المدافعين عن هذه الجزيرة الكونت (سانتاروزا) أحد بلغاء الطليانين الذي وقف نفسه وحياته لمساعدة اليونان على الإستقلال ابتغاء مرضاة الحرية والأميرال اليوناني (سومادوس) الذي نزل إلى البر مع مائتين من عسكره لتعزيز حامية الجزيرة وتقويتها.

وبمجرد وصول السفن المصرية على مقربة من قلاع العدو، ابتدر بإطلاق المدافع عليها من سائر القلاع لكن لم تزعزع هذه النار القوية قلوب المصريين ولم تشهم عن عزمهم بل جاوبت مدافعهم مدافع العدو ونزلت العساكر البرية في الزوارق تحت نيرانه.

فلما كان ظهر ذلك اليوم تمكن سليمان بك ومن معه من الدخول إلى البر وبعد تبادل إطلاق البنادق قليلاً من الطرفين، هجم المصريون وفي مقدمتهم سليمان بك على استحكامات العدو هجوم الأسود ودخلوها عنوة واستمر القتال إذ ذاك بالسلاح الأبيض ودافع اليونانيون دفاع الأبطال لكن لم تفدهم شجاعتهم شيئاً، بل تغلب المصريون عليهم بحسن انتظامهم وبديع صنعهم وبعد قليل كانت لهم الغلبة ورفعوا العلم المصري على هذه الاستحكامات التي كان يظن العارفون أن أخذها بعيد جداً لحصانة الموقع من أصله ولزيادة حفظه

بالقلاع المسلحة بالمدافع الضخمة من جهة، ولقرب نيران قلاع البلد إليه من جهة أخرى، فكان المهاجم له تحت نيران قلاع الجزيرة وقلاع البر المتبادلة.

وبعد هذه الواقعة اشتهر صيت المصريين في جميع أنحاء اليونان وانتقل بسرعة عظيمة إلى بلاد أوروبا فاضطربت لذلك جمعيات محبي اليونان وأيقنوا أن كل ما بذلوه من مال ورجال قد ذهب سدى أمام صفوف العساكر المصرية، وأنهم إن لم يستميلوا لهم الرأي العام الأوربي وتجتمع الدول الأورباوية على مساعدة اليونان مساعدة مادية لا أدبية فقط أقل نجم اليونان ووقعوا تحت سلطة المسلمين كما كانوا مذعنين أنه لا يليق بل لا يجوز أن تكون أمة مسيحية تحت وطأة المسلمين. ولعمري أن ذلك لمناف لمبادئ التمدن والحرية التي من دعائهما عدم النظر إلى دين زيد أو اعتقاد عمرو بل النظر إلى أعمال كل منهما بقطع النظر عن المعتقد فكهم شاهدنا في التواريخ القديمة والحديثة أن المسلمين أحسنوا معاملة رعاياهم من المسيحيين وغيرهم وقد رأينا أن الحروب قد استمرت أجيالاً بين الكاثوليك والبروتستانت ولم تنزل قائمة في روسيا بين الأرثوذكس ومن عداهم من الطوائف المسيحية وغيرها. ومع كل فليس الغرض من هذا الكتاب الخوض في هذا الموضوع الذي لو أردنا فتح بابيه لملأنا مجلدات ضخمة بالتاريخ مشحون بما ارتكبه مسيحيو أسبانيا (الأندلس) ضد المسلمين في عصر الملكة (إزابلا).

هذا ولقد قتل في هذه الواقعة كثير من الفريقين وكان من قتلَى اليونان الأميرال (تسومادوس) الذي أثر الموت على النجاة هرباً كي لا يرى وقوع بلاده في يد المصريين والكونت (سانتاروزا) الإيطالي وغيرها من أبطال اليونان والتجأ إثنان منهم وهما (استارفوس) و(ساهنيس) مع كثير من العساكر إلى كنيسة هناك وجما فيها كمية عظيمة من البارود ثم أحرقاه فسقط البناء عليهم وهلكوا عن آخرهم وجرح من الجيش المصري أمير الإي المشاة السادس وهو سليمان بك ولزم القراش مكرها ولم يمكنه بذلك استمرار القتال.

وكانت نتيجة هذه الواقعة الشهيرة حصر مدينة (ناوارين) براً وبحراً وأما سفن العدو التي كانت في المينا فإنما تمكنت من الهرب إلا اثنتين وقعتا في يد المصريين مع من فيهما من جرحى العدو وأما اليونانيون فلم يزالوا على قوتهم في القتال براً وبحراً وتمكن (ميوليس) القائد البحري في يوم ١٧ مايو سنة ١٨٢٥ مع حرقاته (سفن صغيرة) من الدنو من ميناء (مودون) وأشعل النار في السفن الراسية خارج المينا وفرّ هارباً فامتدت النار إلى باقى الدوناغة ولشدة الهواء استحكمت حتى تعسر اطفأؤها ولم ينج من كان فيها إلا بجهد عظيم وعناء شديد وما زاد في الطين بلة أن الهواء حمل الشرر إلى داخل المدينة حتى أحرق جزءاً منها وانهبت مخازن البارود (الجيخانة) فأدى ذلك إلى هدم كل ما جاورها من المساكن وهلك من فيها.

ومع كل فإن هذه الحادثة الهائلة لم تؤثر شيئاً في عزيمته إبراهيم باشا شجاع مصر وفخرها بل كان مشدداً للحصار على مدينة (ناوارين) وصدة هجمات العدو، وهزم كل من جاء لمساعدتهم سواء كان على طريق البر أو البحر وفي إحدى المناوشات العديدة أسر مطران (مودون) الذي كان يحض الأهالي على مقاومته ومحاربته وأسر غيره من دعاة الثورة، لكنه أحسن معاملتهم وأكرم وفادتهم، ولما أيقنت حامية البلد أن لا مناص لها من الموت أو التسليم لعسر مجي المدد لهم من الخارج بل لعدم إمكانه بالكلية لتشديد الحصار وتيقظ المصريين دائماً، طلبت من إبراهيم باشا أن تسلّم إليه المدينة مع قلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة بشرط أن يضمن لهم حياتهم فأذعن لمطالبهم وانقاد لمرغوبهم ودخل المدينة في السادس عشر من شهر مايو سنة ١٨٢٥ وقد كان لهذه الواقعة تأثير مهم في قلوب اليونان، إذ أيقنوا بالفشل والخيبة لكنهم آلوا على أنفسهم أن يدافعوا في سبيل الحصول على الحرية والاستقلال السياسي ولو يموتون عن آخرهم فداء الوطن وشهداء الحرية.

فتح مدينة كلاماتا:

وبعد سقوط (ناوارين) جمع (بيترويك) خمسة آلاف مقاتل من سكان الجبال المشهورين بالشجاعة والبأس وتحصن في مدينة تدعى (كلاماتا) وسورها بأسوار منيعة وحصنها بالتحصينات المحكمة فذهب إبراهيم باشا لخاربه واحتل في مسيرته مدينة (أركاديا) المشهورة بخصب أرضها واعتدال هوائها وسائر البلاد الواقعة على البحر واحتل أيضاً كل الطرق المارة بين الجبال لتوصيل الأدوية بعضها ببعض وقبل أن يصل إلى (كلاماتا) لحقه سليمان بك وكان قد تماثلت جروحهم ولم ينتظر تمام شفائهم بل خرج من الإسبالية وقصد الجيش ليشهد وقعة (كلاماتا) فوصل الجيش إلى هذه البلدة ودخلها بعد قتال شديد دافع فيه اليونانيون دفاع الأبطال، لكنهم لم يقووا على الثبات أمام هجمات المصريين بل ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار بعد أن خضبوا الأرض بدمائهم وأقعموا الأدوية بجثثهم التي ذهبت قريبة للوحوش والطيور.

وبعد ذلك دخل إبراهيم باشا جميع القلاع الصغيرة والبلدان والقرى المحصنة وهدم أغلبها وقتل أو أسر حامياتها فلم يبق لليونانيين بعد هذه الوقائع قائمة ولم يجسروا على مواجهة المصريين في الحروب المنتظمة بل التجؤا إلى جبالهم وعمدوا إلى حرب التمادي معتمدين على شموخ جبالهم وعدم تمكن الجيوش المنتظمة من صعودها والوصول إليهم.

فتح تريولتسا:

ولما لم يجد إبراهيم باشا ما يعوقه عن السير إلى الأمام شرع في اجتياز جبل (تايجيت) الفاصل بينه وبينه وادي (لكونيا) الذي به مدينة (تريولتسا) مقر الحكومة الثورية لعلمه أنه لو دخلت هذه المدينة في قبضته كان ذلك من أكبر دواعي تقويض أركان الثورة اليونانية ولم يبق بعد ذلك ملجأ للثائرين إلا الجبال.

ولأجل تميم هذا المشروع المهم واجتياز مضائق هذه الجبال الوعرة السلوك الصعبة الصعود قسم إبراهيم باشا الجيش إلى طابورين جعل أحدهما تحت قيادة نفسه ووجه أولهما على طريق (أركاديا) والثاني على طريق (ليوناردى) فصادف طابور إبراهيم باشا في مسيره عند مضيق (كورشيكور) الثائرين الشهيرين (كولوكروني) و (بتراكو) ومعهما عدد عظيم من سكان هذه الجهات قصد اعتراضه في طريقة وإرجاعه القهقري فقهروهم وقتل منهم نيفا وخسمائة مقاتل ورئيسهم (بتراكو) ثم دخل مع جيشه مدينة (تريبولتسا) في ٢٣ يونيو سنة ١٨٢٥ فوجدوها خالية من السكان إذ أخلاها ساكنوها وحاميتها وأضرموا النار فيها قبل خروجهم وآووا إلى الجبال لعلها تعصمهم من نيران المصريين، حيث لا عاصم اليوم لهم منها إلا الطاعة والإذعان والرجوع عن مخالفة الدولة العلية التي لولا سعاية أولى الأغراض والفساد لما أمكنهم الخروج عن طاعتها.

وبعد أن حصن البلد داخلاً وخارجاً ووضع فيها حامية كافية لصدة هجمات الأعداء ليكون آمناً عليها من غوائل الزمان وطوارق الحداث خرج منها بعض جيشه في ٢٥ يوليو سنة ١٨٢٥ قاصداً وادي (ارجوس) فهزم طليعة من الأعداء يبلغ عددها ثلاثمائة مقاتل تحت أمرة (إبيلانتي) وبعد ذلك أمر بمحصد الغلال المتردعة في هذا الوادي الحصيب ونقل سائر اغصولات إلى (تريبولتسا) ثم في يوم ٧ يوليو سنة ١٨٢٥ وصل إلى وادي (لاكونيا) وكان معه سليمان بيك وألأيه ونفر قليل من السوارى فاعترضه في طريقه فرقة من الأعداء يبلغ عددها ثمانية آلاف متحصنين في بعض المعازل فرتب إبراهيم باشا عسكره على هيئة قول (طابور) وهجم على حصون الأعداء بالسلاح الأبيض فهزمهم وأخرجهم من استحكاماتهم وكانت نتيجة هذه الواقعة أن صار كل إقليم (موره) في قبضة إبراهيم باشا إلا مدينة (توبلي) وبينما هو يستعد لحصارها إذ ورد إليه خطاب من رشيد باشا قائد الجيوش العثمانية الذي كان إذ ذاك محاصراً مدينة (ميسولونجي) منذ عدة أسابيع بلا فائدة ولا عائدة لوقوع هذه البلدة على خليج (لبيانته) ودوام ورود المدد لها بحراً وعدم تمكن الدونامة العثمانية من

حصرها لوجود (مولى) القائد اليوناني البحري وحراقاته التي كثيراً ما سببت خسائر فادحة لسفن الدولة يطلب منه المساعدة على فتح هذه البلدة التي أعياه أمرها فأرسل لوالده بمصر يخبره بهذا الأمر ويطلب منه إرسال المدد فأرسل له الألى السابع والثامن من الجيش المنتظم وبعض فرق من الأرؤد من حامية كريد.

فتح مدينة ميسولوجي:

وفي أثناء هذه المدة ورد إلى إبراهيم باشا أمر بمساعدة رشيد باشا وفرمان مؤذن بتعيينه وزيراً لولاية (موره) فقام من ساعته مع عشرة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان ولم يترك في (موره) ومينائها إلا ما يكفي لحمايتها ثم سافر بحراً قاصداً مدينة (ميسولوجي) فلما وصل إليها هاجمها متبعاً مشورة رشيد باشا، فلم ينجح ورجع منهزماً فاتبع بعد ذلك في حصار هذه البلدة الخطة التي سلكها في حصار (ناوارين) بأن شدد الحصار عليها براً واستولى على الجزائر الواقعة في فم المينا وبنى فيها قلاعاً حصينة، فأغلق بذلك المينا وأتم الحصار براً وبحراً حتى لم يعد من الممكن وصول المدد إليها بأى صفة كانت، ثم أرسل إلى حامية المدينة يطلب منها أن تستسلم بدون حرب ولا قتال لتحقيقه أن امتناعهم لا يجديهم نفعاً، فلم يقبلوا ذلك منه وصمموا على عدم التسليم ولو ماتوا عن آخرهم.

ثم أرسل أهل المدينة إلى القائد (كرايسكا كى) وكان على مقربة من المدينة يعلمونه بأنهم عزموا على الخروج في ليلة ٢٢ إبريل سنة ١٨٢٦ بجميع سكان البلد من رجال ونساء وأطفال وطلبوا منه أن يهاجم المصريين في وقت معلوم ولكن لسوء حظهم لم يقو (كرايسكا كى) على مهاجمتهم لما كان به من المرض الشديد، ولم يشعروهم بذلك فظنوا أنه قد أجاب طلبهم وخرجوا في الوقت المعلوم من اليوم المعهود وهم في غاية السكون مستترين تحت جناح الليل، فلما أحس بهم إبراهيم باشا وعسكره قابلهم بنيران البنادق وأوقع بينهم القتل

فرجعوا إلى المدينة بدون انتظام واتبع المصريون أثرهم حتى دخلوا المدينة وأعملوا في أهلها السيوف والبنادق وأبلوا في قتالهم بلاء حسناً. ولقد جمع أحد رؤساء اليونان ما ينيف عن ألفين ما بين شيوخ وأطفال ونساء في إحدى الكنائس حتى إذا وصل المصريون هدم الكنيسة بلغم من البارود كان قد صنعه وأعدّه لهذه الغاية فهلك هو ومن معه عن آخرهم.

هذا ولقد تمكن بعض حامية المدينة من اختراق صفوف المصريين والأتراك بعد قتال عنيف وآووا إلى أحد الجبال المجاورة بعد أن قتل أو جرح ثلاثة أرباعهم ولما علم هؤلاء الشجعان أنه قد استولى اليأس على قلوب رؤس الثورة بعد سقوط مدينة (ميسولونجي) كتبوا إليهم في ٧ مايو سنة ١٨٢٦ أن لا يخافوا ولا يحزنوا ولا يقنطوا من مساعدة الله فإن يد الله مع محبي الحرية والذابين عنها وأنهم لم يزالوا ولن يزالوا مستعدين للدفاع عن استقلالهم إلى آخر رمق من حياتهم.

ولقد حدث في أثناء هذه المدة أمران مهمان أحدهما موت اسكندر الأول إمبراطور روسيا فجأة، وتولية الإمبراطور نقولا خلفاً عنه. ولانيهما قتل السلطان محمود العثماني لجيش الإنكشارية في ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦ اقتداء بما فعله محمد علي باشا بمصر مع المماليك، ليتخلص من شرهم ويبرأ من كيدهم ويظهر ملكته من هذه الفئة الباغية التي اشتهرت في سائر أنحاء المملكة العثمانية بعدم الانتظام وارتكاب أنواع المنكرات فضلاً عن الرذائل بدون أن يجسر أحد على معارضتهم أو يقوى على مقاومتهم، وكثيراً ما عصوا السلاطين العثمانيين وخلعوه من مناصبهم بل وقتلوه وغير ذلك مما لا دخل له في موضوع هذا الكتاب.

ثم أعقب سقوط مدينة (ميسولونجي) سقوط باقي مدن موره ويقال أن ما قابله إبراهيم باشا من الصعوبات أمام (ميسولونجي) أحدث تغييراً مهماً في طابعه، فبعد أن كان يعامل اليونانيين بالرفق واللين ويمنع الإيذاء عن أسرهم

ويكرم مئوهم صار يعاملهم بالقسوة والشدة ويأمر بقتل الأسرى أولاً فأولاً وغب كل ما يمرّ عليه من البلدان قبل حرقها وغير ذلك مما لا يسلمه العقل، ولعل هذه أمور أشاعها بعض أصحاب الغاية لمقاصد وأغراض يريدون التوصل إليها والحصول عليها بإلقاء الفتن ودس الدمائس في داخلية البلاد للتدخل في أمورها مما لا يخفى على رجال الدولة العلية الذين حنكتهم التجارب، ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول:

فتح العثمانيين مدينة أثينا:

أنه بعد سقوط مدينة (ميسولونجي) انفصل الجيش المصري عن الجيش العثماني فعاد الأول إلى ولاية (موره) وقد نسب إليه البعض من ارتكاب القذائع مالا يمكننا ذكره لعدم ثبوته، وأما الثاني فقصد مدينة أثينا وحاصرها ولم يكن فيها إذ ذاك ما يصد هجمات العثمانيين فأسرع (كرايسكاكي) والكلونيل (فابغيه) الفرنساوي إلى هذه المدينة المهددة ومعهما سبعة آلاف عسكري يوناني وتمكنا من الوصول إليها قبل أن يشدد رشيد باشا الحصار عليها وبعد مناوشتين خفيفتين وقعتا بالقرب من المدينة في ١٠ وفي ٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٦ إلتمز رشيد باشا بإخلاء بيرا وما جاورها أما (فابغيه) فاخترق صفوف المحاصرين ودخل المدينة بألف وخمسمائة مقاتل واحتل قلعة (أكروبول) التي تعهد بالدفاع عنها، وكان اللورد (كشران) قومنداناً للسفن الحربية اليونانية والجنرال (شرش) رئيساً للجيش البرية وهما انكليزيا الجنس وكان السبب في تقليدهما هذه الوظائف الرئيسية مع وجود شجعان اليونان الذين اشتهروا في هذه الحروب من أولها، هو عدم اتفاق رؤس الثورة ووجود الغيرة والحسد بينهم وهو الأمر الذي أفضى إلى تقليد رئاسة الجمهورية اليونانية إلى الكونت (كابودي استريا)^(١).

^(١) ولد هذا الرجل الشهير في جزيرة كرفو ببلاد اليونان وتوصل بمهارته وحفته إلى أن صار وزيراً أولاً للرومية في عهد إسكندر الأول ثم انتخبه اليونانيون رئيساً لجمهوريتهم سنة ١٨٢٧ ومات مقتولاً سنة ١٨٣١.

وفي يوم ٤ يونيو سنة ١٨٢٦ هاجم اليونانيون عساكر العثمانيين ولسولا موت (كرايسكاكي) لفاز اليونانيون بالغلبة ثم في ٦ منه اتفق رأى رؤس جيش اليونانيين على معاودة الهجوم على صفوف العثمانيين ولكنهم لم يتحدوا في العمل ولم يساعد بعضهم بعضاً ومضى تفرقت الكلمة تفرقت القلوب ولذلك لم يتجسّدوا فيما عزموا عليه ولم يتمكن اللورد (كشوان) والجنرال (شرش) من الإلتجاء إلى سفنهم إلا بكل صعوبة أما الجند فهلكوا إلا قليلاً منهم وبعد ذلك اتفق الجنرال (شرش) مع رشيد باشا على تسليم المدينة، وأمر الكولونيل (فايغيه) بإخلاء قلعة الأكروبول وتسليمها إلى العثمانيين لكن اضطره نفاذ المؤن وتذمر العساكر لإخلاء القلعة وتم بذلك استيلاء العثمانيين على مدينة أثينا تحت حكومة اليونان الآن.

ولم يبق بعد ذلك لليونان في أنحاء بلاد مورّه إلا ثلاث قلاع أما المال المتحصل من القرض الذى أبرم في مدينة لوندرة ومن تبرعات محبي الحرية فقد نفذ أغلبه في الشقاكات الداخلية وما ترتب عليها من الحروب وسفك الدماء.

تداخل الدول:

بينما إبراهيم باشا يستعدّ لفتح ما بقى في يد اليونان من القلاع إذ تداخلت أوروبا لاسيما فرنسا وانكلترا والروسيا بين الفريقين وطلبت من اليونان والباب العالي توقيف الحركات العدوانية حتى يتم الإتفاق على أمر مرضى مختار لمدى الطرفين، فأبى الباب العالي ذلك وأمر قوّاده باستمرار القتال على ما كانوا عليه ولقد انتهزت روسيا هذه الفرصة واستعانت بدولتي فرنسا وانكلترا على إلقاء الباب العالي إلى إتباع المعاهدات فتهدّوه وتوعده بالقتال، إن لم يقبل مطالب روسيا فبعد محاولات ومناقشات طويلة أمضى الباب العالي في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٢٦ على اتفاق (إكرمان) الذى من شروطه أن يؤيد كل ما جساء في

معاهدة بوخارست^(١) ويبيح لسفن الروسيا المرور من بوغاز البوسفور إلى البحر المتوسط في أى وقت شاءت ومنها استقلال إمارتى الإقلاق والبغدان (رومانيا) واستقلال الصرب مع حفظ الحق للباب العالى في وضع حامية عسكرية في مدينة (بلغراد) وثلاث قلاع آخر ولم يذكر في هذه المعاهدة شئ في شأن اليونان واستقلالهم لإيجاد سبيل للتداخل في مسئلتهم وحسمها طبق مرغوبهم.

هذا ولنأت على ذكر هذه المسألة تفصيلاً فنقول أن (دوك ولنجتون) وزير خارجية انكلترا إذ ذاك وهو القاهر لنابليون كما سبق، وكونت (نسلرود)^(٢) وزير خارجية الروسيا كانا قد اتفقا عقب اجتماعهما في شأن بطرسبورج على التداخل بين الدولة العلية واليونان وإنالة الأخيرة استقلالها طوعاً أو كرهاً فحرراً بلاغاً للباب العالى في ٢٦ مارت سنة ١٨٢٦ بالنيابة عن دولتيهما وبتعصيد فرنسا، وقدموه بالإشتراك إلى السدة السلطانية طالبين به استقلال اليونان استقلالاً إدارياً لا سياسياً، بحيث يكون تعيين الحكام والمستخدمين فيها بمعرفة أهلها تحت ملاحظة الباب العالى وأن يدفع اليونانيون خراجاً معيناً للدولة العلية، وأن المسلمين المقيمين في بلاد اليونان يهاجرون منها ويعطون عوضاً عما يكون لهم بما من المال والعقار. فرأى الباب العالى هذه المطالب فادحة ورفضها رفضاً كلياً، فعند ذلك اتفق كل من فرنسا وانكلترا والروسيا بمقتضى معاهدة أمضيت في مدينة (لندن) في أوائل يوليو سنة ١٨٢٧ على إلجاء الباب العالى إلى

(١) لما شرع نابليون الأول امبراطور فرنسا في محاربة الروسيا سنة ١٨١٢ كانت الروسيا تقتل مملكة المويدي جارتها شمالاً والدولة العثمانية جارتها جنوباً فلأجل أن تتمكن الروسيا من جمع كل قواها لمحاربة فرنسا سعت جدها في إبرام الصلح بينها وبين محاربيها فلمضت اتفاق الصلح مع المويدي في ٥ ابريل سنة ١٨١٢ ومع الدولة العثمانية في ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ ولكون التوقيع على هذا لوفاق حصل في مدينة (بوخارست) سميت هذه المعاهدة باسم المدينة المذكورة.

(٢) هو ميخائى روسى ولد سنة ١٧٨٠ بمدينة (لميون) عاصمة البرتغال حيث كان والده سفيراً واشتغل هو أيضاً بالسياسة فعين بمفكرة الروسيا بباريس سنة ١٨٠٧ واشترك في كافة المخابرات السياسية لتي سبقت وأقيمت سقوط نابليون الأول وكان من كبر المماعدن على مكافحة لحزب الحرية في جميع أرجاء أوربا فكفاه الإمبراطور الإسكندر الأول بتعيينه وزيراً للخارجية فوجه اهتمامه إلى التداخل بين الدولة العثمانية وبين محمد على باشا كما سيجي وبمسماه تم الإتفاق بين الدول ما عدا فرنسا على إرجاع المصريين إلى حدودهم الأصلية وشهد حرب القرم الذي كلفت الدائرة فيه على الروسية وسعى كثيراً في الصلح الذي تم بباريس سنة ١٨٥٦ وتوفي سنة ١٨٦٢.

قبول تداخلهم في مسألة اليونان، فأصرّ الباب العالي على عدم قبول تداخلهم فأرسلت الدول الثلاث المتحدة سفنها الحربية إلى مياه اليونان.

واقعة ناوارين البحرية:

لما علم محمد علي باشا بتدخل الدول الأجنبية أرسل إلى ولده بموره الدونامة المصرية حاملة أربعة آلاف عسكري وكانت السفن المصرية والعثمانية حاملة ألفين ومائتي مدفع وتسعة عشر ألف شخص واصطفت داخل ميناء ناوارين على هيئة نصف دائرة يرتكز أحد طرفيها على قلعة البلد والآخر على قلعة جزيرة (سفا كتيرو) الواقعة عند مدخل الميناء التي كابده إبراهيم باشا وسليمان بك الغناء الشديد والتعب المديد في الإستيلاء عليها كما ذكر ذلك في محله. أما الدونامة المتحدة فكانت أضعف من الدونامة الإسلامية من حيث عدد المدافع لكنها كانت أقوى منها بكثير بالنسبة إلى المئات وانتظام الجند وسرعة الحركات وكانت السفن الفرنسية تحت إمرة الأميرال (ريفي) والإنكليزية تحت قيادة الأميرال (كودرنجتون) وكان قائد سفن الروسا الأميرال (هيدين) لكن كانت السفن المتحدة تحت إمرة الأميرال الإنكليزي لتوحيد الرياسة وعدم تفرقة الكلمة، واختير هو دون غيره لكونه الأقدم في الدرجة.

ثم دخلت الدونامة المتحدة إلى الميناء واصطفت للقتال دون أن يجسر أحد الطرفين على تحمل المسؤولية بالإبتداء بالعداوة ومع ذلك لم يمض نصف ساعة حتى انتشب القتال بينهما بدون إعلان حرب كما هي عادة الأمم المتقدمة، ولا سبب يوجب العدوان بين الطرفين إلا إغراء الروسا للدولتين الأخيرتين على تدمير الدونامة التركية المصرية، وكان يقصد الفرنسيون بذلك الفخر والشرف بعد ما ألم بهم سنة ١٨١٥ ولم يرغب الإنكليز أن تفرد فرنسا بهذا العمل خوفاً من زيادة نفوذها في هذه الجهات فكان الراجح في هذه الحروب البرية الروسا فقط كما سيحي.

والسبب في اشتعال نيران القتال كما نشره ثقات المؤرخين هو أن أحد الحراقات التركية اقترنت في أثناء المناورات الابتدائية من إحدى البوارج الإنكليزية فأرسلت هذه لها ظابطاً في زورق يطلب منها البعد عنها فانطلقت إليها وتقدم إحدى عساكرها بغذارة كانت في يده، فأطلق العسكري التركي على الضابط الإنكليزي بنديقيته فقتله فانتشبت حينئذ القتال بالبنادق بين هاتين السفينتين ثم أطلقت إحدى البوارج التركية مدفعاً أصابت طلقته مقدم السفينة الفرنسية (سرين) ولم تصب أحداً فعند ذلك أطلقت هذه السفينة مدافعها على السفن التركية فانتشبت القتال بين الطرفين بحال هائلة، حتى لقد عدت هذه الواقعة التي كانت نتيجتها تخريب أغلب الدونامة التركية والمصرية من أكبر الوقائع البحرية وأهمها وكان ذلك في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ ويدعى الأوروبيون أنه لم يكن قصدهم حصول الحرب والقتال بل كان قصدهم الوحيد إلزام الدولة العلية بمنح اليونان الإستقلال وإيقاف القتال بأى وجه كان ولو أدى ذلك إلى الحرب.

أما إبراهيم باشا فكان في داخل بلاد (موره) لإتمام نشر الأمن والسكينة بها فحين بلغه خبر تخريب سفنه في واقعة (ناوارين) عاد إلى هذه البلدة وأبرق وأرعد لكن لم يجده ذلك نفعاً ولذا اختار خطة الدفاع عن خطة الهجوم وتحصن في مينائي (كورون) و(مودون) وما جاورهما وأمر سليمان بيك بالبقاء في (تريبولتسا) وكان قد عين حاكماً لها ريثما تأتيه أوامر جديدة. ولما وصل خبر هذه الواقعة إلى دار الخلافة أرسل الباب العالي إلى الدول الثلاث المتحدة بلاغاً يطلب به عدم التداخل بينه وبين رعاياه اليونانيين وأن يدفعوا له عوضاً عن السفن التي فقدت في الواقعة المذكورة ويعتبروا له عما وقع منهم، فعند ذلك أعلنت روسيا بحرب الدولة العلية وبارزتها عدة وقائع كان الحرب فيها سجالاً بين الطرفين، ثم كانت الغلبة للروسيا وانتهت الحرب بالتوقيع على معاهدة (أدرنة) وسنأتى على ذكرها في محلها وفي هذه الأثناء تمكن اليونانيون بمساعدة

الدول الأدبية، ومساعدة فرنسا المادية، إذ أرسلت لمساعدتها جيشاً عظيماً تحت إمرة الجنرال (ميزون)، من استرجاع أهم مواقعهم الحربية.

ثم في ٣ أغسطس سنة ١٨٢٨ اتفق محمد على باشا والى مصر مع الدول المتحدة على إخلاء (موره) بشروط وهي: أولاً أن والى مصر يتعهد بإعادة من أسر من اليونان وغيرهم في واقعة (ناوارين) وبتحرير من بيع منهم للأهالي، ثانياً أن الأميرال الإنكليزي يتعهد بإرجاع من أسر من المصريين وكذلك السفن التي أخذت أثناء الحرب، ثالثاً أن الجيوش المصرية تخلى (موره) في أسرع وقت وينقلهم أمير مصر إلى الإسكندرية على سفته، رابعاً أن السفن المصرية في حالتي ذهابها وإيابها تكون مخفورة بسفن فرنساوية وإنكليزية، خامساً أن اليونانيين المقيمين بمصر بإختيارهم لا يجبرون على تركها ماداموا غير مكرهين على البقاء فيها وكذلك من يريد أن يعود مع المصريين بدون إكراه ولا إجبار، سادساً يجوز لإبراهيم باشا أن يترك في (موره) عدداً من العساكر لا يزيد على ألف ومائتين للمحافظة على (مودون) و(كورون) و(ناوارين) و(بتراس) و(كستل تورنيز) أما باقي النقط الآخر فلا بد من الجلاء عنها بدون إهمال.

رجوع إبراهيم باشا إلى مصر وانتهاء حرب اليونان:

فلما عرض هذا الوفاق على إبراهيم باشا أخذ الفيظ منه كل مأخذ لما رأى من أن تعبه لم يعد عليه بأقل نفع ولم يمكنه الإمتناع لتهديد سفن الدول له بحسراً وجيش فرنسا برأ، فأصدر أوامره لسائر الفرق التي في داخل بلاد اليونان بالسير إلى الثغور للرجوع إلى مصر ولسليمان بيك وكان مقيماً بالأيه في مدينة (تريبولتسا) بترك المدينة بعد هدم قلاعها وأسوارها، فأخلى المصريون سائر البلاد تدريجاً ودخلها الفرنسيون بدون معارضة ولا ممانعة إلا (بتراس) فدخلها الجنرال (ميزون) عنوة بعد مقاومة خفيفة.

هذا ولندكر تميمًا للفائدة ما فعلته الدول الأوروبية لتحرير اليونان بعد رجوع إبراهيم باشا إلى مصر فنقول أن الدول الثلاث المتحدة وهى فرنسا والروسيا وانكلترا عقدت مؤتمرًا في مدينة (لندن) في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٨، ودعت الدولة العلية لإرسال مندوب يتوب عنها ويقوم مقامها فيه فلم يقبل الباب العالي إرسال مندوب خوفًا من اعتبار ذلك إقرارًا على ما أتته هذه الدول من مساعدة اليونان. أما مندوبو الدول الثلاث فاجتمعوا بلوندره في اليوم المعين وقرروا استقلال (موره) وجزائر (سيكلاده) وتشكيلها على هيئة حكومة مستقلة تحت أمير مسيحي تنتخبه الدول وتكون تحت حماية وضمانة الدول الثلاث، وتدفع للباب العالي مبلغ خمسمائة ألف قرش في كل سنة.

لكن لم يعترف الباب العالي صاحب السيادة بهذه المعاهدة واستمر القتال في بلاد اليونان لإرجاعها إليه، فأعلنت روسيا الحرب عليه وبعد قتال شديد فاز الروس بالنصر والتزم الباب العالي بالتوقيع على معاهدة (أدرنة) في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩ التي كان منها إباحة الملاحة للروسيا من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط والاعتراف باستقلال اليونان.

* * *

٧- حرب الشام

عادت بقايا الجيش والدونامة المصرية إلى نهر الإسكندرية متوجهة بالنصر المبين والفوز العظيم لا عار عليها إذ ألزم إبراهيم باشا بإخلاء بلاد اليونان بعد أن فتحها ونشر لواء الأمن في جميع أحوالها والعودة إلى مصر بعد أن فني معظم رجاله في هذه الحروب والمناوشات، وكيف يتسنى لولاية هي بالنسبة إلى الدول الأوروبية كل شئ أن تقاوم حكومتى فرنسا والمجلترا فضلاً عن مساعدة الحكومة الروسية لهما؟ أيلحق مصر والدولة العلية عار إن هزمتا في واقعة (ناوارين) البحرية التي سبق لنا شرحها والدونامة التركية لم تكن لتقاوم دوناتقى أعظم الدول الأوروبية بحراً وبراً؟ وكيف يمكن للجيوش المصرية أن تقاوم قوة لم تقو الدولة العلية مع ماها من القوة العالية والعظمة السامية على صدها هجمات؟ لعمرى إن مجرد وقوف قوة مصرية محصنة أمام إحدى هاتى الدول العظام ليكسبها فخراً جليلاً ونبلاً جزيلاً وشفراً أثيلاً، ولو خرجت من هذا الموقف الحرج مكسورة، لاسيما وأن المصريين لم يتعودوا منذ استيلاء العائلات الأجنبية على بلادهم، أعنى منذ نحو أربعة آلاف سنة أن يبذلوا أرواحهم بل ولا أموالهم للمدافعة عن استقلال وطنهم فما بالك لو دعوا لبذل الأرواح في نيل الشرف والسمة كما كان سبب الحرب في بلاد اليونان، تالله أن تغلب المصريين على اليونانيين المشهورين بالبسالة والشجاعة في مواقع شتى وفتحهم بلادهم لمن أكبر البراهين على ما للمصريين من قوة البأس ولبات الجأش في الحروب، سيما لو علموا أن ذلك يعود على وطنهم بأقل فائدة وأيسر عائدة. وباجملة فلا يمكننا أن نقول أن حرب اليونان لم تفد مصر شيئاً فإنها ولو لم تعد عليها بفائدة مادية فقد أفادتها فائدة أدبية ألا وهي تدريب عسكرها وبحريتها على أبواب القتال وفنون الحرب لأن اقتحام الأخطار وبذل الأرواح يغرسان في الجندي برأياً كان أو بحرياً، حب الشرف والمخاطرة بالروح في سبيل نيله لاسيما إذا رأى من رؤس وضيابطه سيرة حسنة في الشجاعة والنظام العسكري فإنه وأن تسوفى أو

استشهد كثير من العساكر المصرية واغتسم أو أحرق أكثر سفنها الحربية في واقعة (ناوارين) فإن ما بقى فيه كفاية لتدريب من يضم إليه من الشبان لما اكتسبه في مواقع القتال من التجربة واتقان هذا الفن الذى عليه المعول ومسار حماية الوطن وحفظ أهله، فلذلك لم تقترهمة محمد على باشا بل ازدادت عزيمته بعد حرب اليونان فأخذ في تميم نظام جيشه واستعداد دوائجته ليعيد ما فقد في هذه الحروب الهائلة.

ولما انشرح صدره لما سمعه من نجله إبراهيم باشا من حسن نظام الجيش الفرنساوى والدونائجات الأورباوية أمر بإنشاء آليات من السوارى الذين يحملون المزاريق ويلبسون الزرد والدروع على هيئة جيش فرنسا، واستدعى من يسمى المسيو (دى سريزى) لتنظيم الدونائة والموسيو (بوسون) لتعليم العساكر البحرية وأعطى كلا مهما رتبة بيك وكان الطبيب (كلوت بيك) في ذاك الوقت باذلاً جهده في إيجاد الإستلاليات وتحسينها للزومها عند الضرورة.

وأما سليمان بيك فكان في هذه الأثناء بينه وبين إبراهيم باشا بعض حزازة ربما كان سببها حسد الحاسدين ووشى الواشين، لأنه كيف يظن أن إبراهيم باشا ينكر ما لسليمان بيك من الأعمال المشكورة فضلاً عن أياديه في تنظيم الجيوش المصرية على نظام حسن لأنها لم تكن مؤلفة قبل إلا من أوباش الأرئود وأخلاق الترك الذين كانوا لا بغية لهم إلا السلب والنهب ونشر الفساد بين العباد بما كانوا يقتربونه من أخرومات على رؤس الأشهاد كتهب الأموال وسبى الفتيات والنساء زيادة عن خطف الولدان لإرضاء شهواتهم البهجة بدون رادع يردعهم أو قانع بقمعهم عن ارتكاب الآثام إلى غير ذلك مما يأتى القلم تسطره.

أما جيوش سليمان بيك فكانت مؤلفة من أبناء البلاد الذين يعود عليهم نعيمها وشقاؤها ويلزمهم الدفاع بمالهم وأرواحهم عنها لأنها وطنهم ولا يخفى أن حب الوطن من الإيمان وكل إنسان يجب عليه حب اتساع وطنه لأنه كلما ازداد ازدادت الخيرات ونمت البركات. وكان سليمان بيك هو ناظم عقدهم

وموسى بردهم ولم يكتف بتعليمهم وتعليمهم بل بث فيهم روح الإنتظام وحب الشرف لكن أبى الحاسدون إلا إيقاع النفرة بينه وبين نجل سيده الكريم إبراهيم باشا حتى هجره مدة من الزمان ولم يسلمه قيادة الجيش التي كان هو أحق بها من غيره واستمر هذا النفور إلى أواسط سنة ١٨٢٩، حتى تداخل بينهما محمد على باشا وأزال ما كمن في صدر ولده من البغضاء من جهة سليمان بك مؤكداً له أنه هو أول معضد للجيش ولا يمكن الإستغناء عنه، فلذلك صفح إبراهيم باشا عنه وقلده وظيفته في الجيش فعادت المياه إلى مجاريها.

* * *

هذا ويسوؤنا أن نقول أن مصر مع كونها قد تقدمت في زمن المغفور له محمد على باشا عما كانت عليه في زمن الممالك مالياً وعسكرياً، لكن لم يصب الفلاح من هذا التحسين إلا كثرة الضرائب وأعمال السخرة لإتمام الأعمال العمومية التي لم تعد بالقائدة على فلاحي ذلك الوقت بل على من أتى بعده فكانه غرس ليحيى غيره، ولكثرة الضرائب هاجر بعض فلاحي الوجه البحري إلى جهة الشام والأقطار السورية انقياداً لإغراء بعض أمراء هذه الجهات وهما منهم أن من يلتجئ إلى هؤلاء الأمراء تكرم وقادته وتحسن مقابلته لكن لسوء حظهم لم ينالوا ما كانوا يسعون وراءه من طلب المنافع الزائدة والخيرات الوافدة ومهاجرة هؤلاء كانت هي السبب في إضرار النار واشتعال الحرب بين والى مصر وعبد الله باشا الجزائر والى سورية ثم بين مصر والباب العالي.

وبيان ذلك أن محمد على باشا طلب من عبد الله الجزائر أن يرّد إلى مصر كل من هاجر منها خوفاً من ازدياد عدد المهاجرين لو وجدوا سورية بلداً آمناً يمكنهم الإقامة فيه مع عدم دفع الضرائب الثقيلة مثل ما يدفعونه في مصر لجمع الأموال اللازمة لأعمال الترع وإقامة الجسور وسائر الأعمال العمومية الأخرى، فأما عبد الله الجزائر فأبى ذلك ولم يرض به، فاغتاظ لذلك محمد على باشا وعزم على إرجاعهم بالقوة ومما زاد في غيظه أن له الأيادي البيضاء والنعم

الجزيلة على الجزار فإنه توسط بينه وبين الباب العالي في سنة ١٨٢٢ لإرضاء السلطان عنه حين أراد الجزار إدخال مدينة دمشق في دائرة ولايته رغم أنف الدولة العلية وآل ذلك إلى أن قهرته العساكر الشاهانية حتى ردت على عقبه، بعد ما قتلت وأسرت غالب جيشه ولم يرض عنه الباب العالي إلا بتوسط محمد على باشا وبشرط أن يدفع ستين ألف كيسة غرامة فدفع عنه والى مصر جلها إن لم يكن كلها.

وفي سنة ١٨٣١ ورد كتاب الجزار إلى محمد على باشا بعدم إجابته إلى ما طلبه فأخذ في زيادة عدد الجيش وجمع المؤن والذخائر والحيل اللازمة لنقلها ونقل العساكر المشاة بين مصر والشام، وبينما هو مشغول بجمع رجاله إذ دهمت مصر داهية دهماء وهو تطرق الوباء إليها نعوذ بالله منه وانتشر بسرعة غريبة بين الأهالي وأنفار العسكر.

ولما لم يكن إذك ما لدينا الآن من الوسائط الصحية المانعة لإنتشاره وكثرة أذاه فترك بالعباد فتكاً ذريعاً حتى قيل أن عدد من توفى من المصريين في شهرى أغسطس وسبتمبر ينيف على مائة وخمسين ألف وكان عدد سكان القطر حينئذ لا يزيد عن ثلاثة ملايين^(١)، ولما اضمحلت وطأة الكوليرة رجع محمد على باشا إلى الاستعداد لأجل محاربة الجزار فلم يكن إلا قليل حتى سافر من مصر إلى العريش الواقعة على الحدود الشامية ست ألياء ومشاة وأربعة خيالة ومعهم أربعون مدفعاً صغيراً وعدة من مدافع الحصار الضخمة مع ما يلزم من المؤن والذخائر وكان معهم المياه لعدم وجود ما يطفى لهيب العطش في هذه الرملة المحرقة الفاصلة بين مصر والشام فقد قاسى الفرنسيون في اجتيازها أنواع آلام العطش وقت سفرهم لخاربة البلاد الشامية سنة ١٧٩٩.

(١) ذكر المسيو (فكس مقجان) في كتابه على تاريخ مصر أن عدد السكان كان في سنة ١٨٠٠ حين احتلال الفرنسيين مليونين ونصف ولا يخفى أن مصر استمرت في حروب داخلية وخارجية من ذلك العهد إلى التاريخ الذي نحن بصده فتقديرنا عدد السكان في سنة ١٨٣١ بثلاثة ملايين يكون أقرب للحقيقة من تقديره بكثير من ذلك.

حصار عكا:

وفي هذا الوقت سافر إبراهيم باشا قائد الحملة مع حاشيته بحراً، تحفزه الدونائة المصرية في أكمل نظام وأحسن ترتيب وأبدع شكل وأغرب وضع حتى وصل مدينة (حيفا) وكانت قد احتلتها العساكر المصرية قبل قدومه بعد أن فتحوها في طريقهم (غزة) و(يافا) و(بيت المقدس) و(نابلس) ثم جعل مقره (حيفا) وجع فيها الميرة والذخيرة وابتدأ في محاصرة مدينة (عكا) براً وبحراً فكان يحصرها من جهة البحر عدة من البوارج الحربية المسلحة بالمدافع الكبيرة ومن جهة البر ثلاثون ألفاً من العساكر المنتظمة وابتدئت أعمال الحصار في ست وعشرين خلون من شهر نوفمبر سنة ١٨٣٩ وأما عبد الله الجزار فلم يعا بهذه الإستعدادات لوثوقه بمنعة المدينة لقوة أسوارها وقلاعها المحيطة بها من كل جهة، لا سيما وأنه لم يمكن (بونابرت) فتحها فدخل في نفسه الغرور بذلك ولإعتقاده أن الباب العالي لا يتركه بدون مساعدة، وكان كذلك، فإن الباب العالي أرسل لوالى مصر مندوبين يأمرانه أن يكف عن محاصرة عكا وأن يخلى البلاد الشامية، ويهددانه بتدخل الباب العالي لو لم يكف عن عدوانه، لكن لم يصغ محمد على باشا إلى تهديداتهم لعلمه أن الباب العالي لا يمكنه تحقيق هذا الأمر لإشتغاله إذ ذاك بمحاربة الروسيا ألد أعدائه، لكنه أظهر لهما الإمتثال وكتب سراً إلى ولده إبراهيم باشا بمضايقة المدينة وتشديد الحصار ليضطر أهلها إلى التسليم قبل وصول العساكر السلطانية إليهم لو أرسلت الدولة العلية جيوشها إليهم لإلزامه القهقري.

وأما مدينة (عكا) فلم تكن من المنعة بالمكان العظيم الذى كان يظنه الجزار لأن عدم نجاح (بونابرت) أمامها إنما كان لمعاكسة الدونائة الإنكليزية له وقطعها المواصلات بين الشام ومصر من جهة، وأخذها مدافع الحصار التى أرسلها قائد الفرنساويين على طريق البحر من جهة أخرى، لتعذر إرسائها براً لوجود صحراء العريش وعدم استيفاء لوازم النقل وكذلك تأخر إبراهيم باشا عن دخولها لم

يكن ناشئاً عن منعها بل لعدم وجود مهندسين محكين بالجيش لإرشاد المدفعيين إلى الجهة التي يلزم توجيه نيران المدافع إليها لأن الشجاعة في مثل هذه الأحوال لا تكفى على حدّها، بل للعلم فيها مدخل لا ينكر. ومما كان يزيد في ارتباك الجيوش المصرية وعدم تفرغهم لمحصنة المدينة معاكسة سكان لبنان لهم ومهاجمتهم إياهم في مناورات صغيرة متعددة وقد زادت قوتهم حين وصلهم خبر قدوم العساكر الشاهانية لمحاربة الجيوش المصرية وإلزامها بالعودة إلى مصر.

انتصار المصريين بقرب حمص:

كان الباب العالي قد تمكن في هذه الأثناء من جمع عشرين ألف مقاتل وأرسلها لمحاربة والى مصر تحت قيادة عثمان باشا والى حلب فزحف بالفعل هذا الجيش الحرّار قاصداً (عكا) ومستصباً في طريقه كل ما لاقاه من عساكر وأعراب ودروز، سواء كانت منتظمة أو غير منتظمة ولما بلغ هذا الخبر قائد الجيوش المصرية جمع مجلساً عسكرياً من نخبة ضباطه الوطنيين والأجانب للترؤى في أحسن الطرق لرد هجمات العثمانيين فقرّر رأى هذا الجمع على رفع الحصار مؤقتاً وإرسال الجيوش إلا قليلاً لحفظ خط الرجعة إلى (عكا) لمهاجمة الجيش العثماني في طريقه والإنقضاض عليه بغتة وتفريق شمله قبل أن يأتيه المدد فقبل إبراهيم باشا هذا المشروع وجعل نفسه رئيساً عاماً على الجيش ووكل أمر الترتيبات اللازمة لسليمان بك فلما عهد إليه هذا الأمر جمع ستة آلاف من نخبة عسكره وعدداً كثيراً من المدافع القوية وتقدّم على طريق دمشق لمحاربة الأتراك وفي هذه الأثناء لما علم عبد الله باشا الجزائر بتضعف قسوة المصريين عقب سفر نخبته ونخبة قوّاده إلى دمشق خرج من المدينة وهاجم المحاصرين فظهر عليهم وأخذ الكثير من مدافعهم وقتلهم بها، لكن إبراهيم باشا لم يعبأ بهذه الغلبة بل جدّ في طريقه لمقاتلة العثمانيين حتى إذا عاد بالنصر شدّد الحصار على (عكا) وفتحها عنوة.

ثم وصل إلى مدينة (جَمَص) حيث التقى في ضواحيها مع جيش عثمان باشا وكان هذا الجيش مؤلفاً من فرسان العرب والأكراد فأحاطت بالعاكر المصرية إحاطة الهالة بالقمر حتى كان يحيل للناظر أن الجيش المصرى لا يلبث أن يتفرّق أيدي سباً، ولكن قام حسن نظامه ومهارة ضباطه وشجاعة عساكره مقام كثرة العدد وأغنت عن وفرة العدد وذلك أن سليمان بك رتب العسكر على هيئة صفوف منتظمة ووضعت وراءها بطاريات المدافع حتى لا يراها المهاجم فانخدع القائد التركى بهذه الحيلة وهجم بكل قوته على الصفوف المصرية فلم تردّ هجومهم بل ثبتت مكانها إلى أن صارت العساكر التركية على مسافة قليلة، فتقهقر المصريون خلف المدافع وأطلقت هذه قنابلها فكسحت كل من بالسهل من مشاة وركبان، وبعد ذلك اقتفى أثرهم المشاة المصريون عدوا وأبلوا فيهم بلاء حسناً وأعملوا فيها السيف والرمح إلى أن أوصلوهم إلى مقر العاصى حيث غرق كثير من الأتراك أما عثمان باشا وباقى الضباط فاحتسوا في مدينة (خَمَاه) وكانت هذه الواقعة فاتحة الفتوحات الشامية وباكورة النصر على الجيوش التركية كما سيجى مفصلاً إن شاء الله تعالى.

فتح مدينة عكا:

ثم صار إبراهيم باشا حتى احتل بعلبك بجيشه بعد أن أبقى في جميع الطرق من العسكر ما يلزم لحفظ خط الرجعة ومكث هناك مدة خوفاً من رجوع العثمانيين إلى الكرة، ولما علم أن عثمان باشا أرسل إلى الباب العالي يطلب المدد وأنه لا يأتيه إلا بعد شهرين أو أكثر إذا أسرع في إرساله ولم يعقه عائق يوجب السبط رجوع إلى مدينة (عكا) وجدد الحصار عليها بكل شدة براً وبحراً بمساعدة العرب والدروز والمارونية الذين أتوه بأنفسهم طوعاً بعد أن ظهر على الأتراك، وكذلك الأمير بشيراً أكبر أمراء لبنان وأعظمهم شأنًا، أتى إلى معسكر إبراهيم باشا وطلب الدخول تحت حمايته.

وأخذ الحصار حينئذ وجهة أخرى واستمر إطلاق المدافع القوية بغاية الدقة والإتقان والإحكام ولم يزل الإطلاق مستمراً حتى قُسم السور وفتحت فيه فتحتان متسعان وفتحة لثة صغيرة وحينئذ لم يتردد إبراهيم باشا في مهاجمة المدينة وأخذ في وضع الاستعدادات اللازمة وعين يوماً للهجوم وكان يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ وعند الصباح انقضت الجيوش المصرية على الفتحات الثلاث فاستولت على اثنتين منه وترددت قليلاً أمام الثالثة فبادر إبراهيم باشا وتقدم بجزء من جيشه الإحتياطي لمساعدة هذا القول، فدبت فيهم الحمية العسكرية وساروا عدواً حتى وصلوا إلى الفتحة المذكورة وصعدوا إلى السور واستمر القتال هناك بالسلح الأبيض بينهم وبين ما بقي من الحامية إلى المساء، فاستسلم الباقون وألقوا سلاحهم وأخذ في هذه الواقعة عبد الله الجزار أسيراً وأرسل تسواً إلى مصر فأكرم محمد علي باشا مثواه وأحسن لقياه.

ولما انتشر بمصر خبر فتح (عكا) لا سيما وقد أعيت (بونابرت) الحيل في أخذها، زينت المدينة عدة أيام متواليات وكان البشر إذ ذاك يتلأل على وجوه المصريين ويعلن بما ملأ قلوبهم من الفرح والسرور، إذ لم يعهد من ابتداء تولى العائلات الأجنبية على مصر أنها انتصرت مثل هذا الانتصار الذي توسم المصريون به التقدم والنجاح تحت ظل العائلة الخمدية العلوية وطفقوا يدعون الله أن يديم لهم محى مجد مصر ويطلبون منه سبحانه أن يحفظ الذي أحيانا منها موقها حتى يستمر مشروعاته وينيلها استقلالها الإداري تحت رعاية الدولة العلية الإسلامية.

انتصار المصريين بقرب حلب:

كان لسقوط مدينة (عكا) في أيدي المصريين موقع عظيم في قلوب العثمانيين فاضطرب الباب العالي وخشى من تعاظم الخطب وازدياد مطامع المصريين فأراد تلافى الأمر قبل اتساع الخرق على الراقع، فأمر بحشد الجيوش والكتائب وجمع بكل عناء وتعب ستين ألف مقاتل وأرسلهم بخاربة إبراهيم باشا تحت قيادة حسين باشا مبدد الإنكشارية ولقبه بلقب (مردار أكرم) وهب له ولاية مصر

وولاية (كرت) لكن سوء حظه لم يساعده على دخول مصر لحسن حفظها كما سترى.

فقدّم حسين باشا المذكور بجيشه مع البطء والتواني حتى إنه لم يصل إلى مضائق جبال (طوروس) إلا في أوائل شهر يوليو وكان لم يرد البعد عن مدينة (أنطاكية) خشية من ملاقات إبراهيم باشا ومن معه من أسود مصر، بل أرسل محمد باشا والى حلب مع مقدمة الجيش وأمره أن يتحصن في مدينة حمص. هذا ولم يخف على إبراهيم باشا أن انفصال معظم الجيش العثماني عن مقدمته وكونه على مسافة بحيث يتعذر عليه الإسراع في مذيء المساعدة إليها إذا مست الحاجة لذلك، من أكبر الغلطات العسكرية وأعظم الهفوات الحربية بل تنبه لذلك وأراد انتهاز الفرصة وضرب المقدمة أولاً ثم محاربة حسين باشا وجيشه ثانياً، فتوجه بسرعة نحو دمشق ودخلها بدون عناء وترك فيها حامية قليلة ثم أخذ يجذّ ويجتهد في السير نحو مدينة حمص حتى وصل أمام معسكر محمد باشا والى حلب بثلاثين ألف مقاتل قبل أن يشعر به أحداً واستعد للزال فلم ير قائد الجيوش التركية مندوحة عن القتال وأخذ في الاستعداد والتأهب له.

وأما إبراهيم باشا فإنه سلم قيادة الجند إلى سليمان بك لما شاهد منه من الحنكة والدراية فقسم الجيش إلى ثلاثة صفوف متوازية وجعل يمينه مرتكزاً على صحراء وشماله على بحيرة صغيرة ووضع جنوده الحياطة في الجناحين وثلاث بطاريات طويلة في الأمام وأربعاً خلف الجيش لتتقدم عند الضرورة وبعد ما أتم هذه الترتيبات ابتداء بإطلاق النيران من البطاريات الأمامية.

أما محمد باشا والى حلب قائد الجيوش التركية فلم يرتب جيشه إلا على صفين فقط ولا يخفى ما ينشأ عن ذلك من ضعف نار المشاة ولم يحسن ترتيب الطوبجية لأنه فرّقها ووضع بين كل أشرطة من المشاة مدفعاً واحداً فكان عدم الاحتياط في ترتيبها سبباً في إضاعة قوتها ثم ارتكب غلطة أخرى أعظم من الأولى، وهي وضع جناحه الأيمن في نقطة بحيث يتعذر عليه الخروج منها

بسرعة لمساعدة الجناح الآخر أو القلب وهذه النقطة كانت محاطة بترعة وبركة وطريق عام فلما رأى سليمان بك هذه الترتيبات وعلم أن جناح الترك الأيمن في حيز العدم وجه كل قوته نحو الجناح الأيسر والقلب فصوّب إليهما مسدافع بطارياته الأمامية وفي أثناء إطلاق القنابل ذهب ببطارياته الاحتياطية وبعض من الخيالة وساروا بميل حتى وصلوا إلى طرف الجيش من جهة اليسار وهناك هجم بمدافعه وخيله فشنت شمل الجناح الأيسر والقلب وفرّقهم أيدي سباحين، كسان الجناح الأيمن لا يقوى على التحرك من مكانه فانحزم الجيش التركي ورجع محمد باشا وما بقي من جيشه إلى مدينة حلب، ووجد بالقرب منها حسين باشا مع بقية الجيش.

وكانت هذه الواقعة في ٩ يوليو سنة ١٨٣٢ وبلغ عدد القتلى من الترك ألفين والأسرى ثلاثة آلاف وكانت الغنيمة فيها للمصريين اثني عشر مدفعاً وكثيراً من الذخائر والخيام فتقهقر محمد باشا إلى حلب حيث التقى بحسين باشا وجيشه ولما أراد حسين باشا الدخول في مدينة حلب ليتحصن فيها منعه سكانها خوفاً من انتقام إبراهيم باشا منهم فاضطرّ حسين باشا أن يتقهقر ليلتحصن عن مكان حصين يمكنه فيه أن يوقف سير المصريين ويصدّهم عن بلاد الأناضول واستمرّ في رجوعه حتى وصل جبال (طوروس) الفاصلة بين الشام والأناضول وتحصن في مضيق هناك بقرب من مدينة تدعى (بيلان) حيث جمع شتيت قسواه مع الإحتياطي من جيشه. وهذا المضيق هو الطريق الوحيد بين بلاد الشام والأناضول وهو مشهور في التاريخ لمرور الإسكندر المقدوني منه في الجبل الرابع قبل المسيح حين زحف بجيشه لفتح بلاد الشام ومصر لمرور الإفرنج حين أنشأ على طريق قسطنطينية في زمن الحروب الصليبية لفتح بيت المقدس.

واقعة بيلان:

في أثناء هذه المدة تقدم الجيش المصري بغاية السرعة حتى وصل مدينة حلب فدخلها في يوم ١٧ يوليو سنة ١٨٣٢ بدون أن يجد أدنى مقاومة من الأهالي

وترك بها جزءاً من المهمات العسكرية وخفراً قليلاً من الجند ولم يزل مجتهداً في طلب العدد ومرسلاً في أثره طلائع الجيش حتى عثر على حسين باشا مع جيشه متحصنين في جبال (طوروس) حيث أقيمت القلاع الحصينة على قمم الجبال حتى صار الممر صعباً فوصل إبراهيم باشا مع جيشه يوم ٢٩ يوليو من هذه السنة إلى معسكر الجيش التركي فاندلش من مناعة الممر لكن لم يلبث أن جمع مجلساً حريباً مركباً من كبار ضباط الجيش وتداولوا الرأي في الطريق التي يمكن بها الاستيلاء على هذا المضيق بدون أن يعرض جيشه إلى مدافع العدو المركبة على قمم الجبال فبعد أن استكشفوا مواقع العدو والنقط التي نزل بها وتحققوا أنه يوجد قمم أعلى من هذه القمم استقر رأي هذا المجلس على الإسراع في احتلال هذه القمم العليا بدون تأخير حتى يتمكن الجيش المصري من إطلاق بنادقه ومدافعه على الجيش التركي الذي يكون إذ ذاك في موضع حرج فصدرت الأوامر إلى العساكر المصرية بالصعود واحتلال القمم المذكورة بدون أن تستريح من التعب وما ذاقوه من التعب ورفع المدافع الضخمة مع الغناء والمشقة إلى هذه القمم الشاحخة.

وعمجد ما تمت هذه التجهيزات الابتدائية صوب المصريون نيرانهم على العدو من أعلى إلى أسفل فوقع الفشل في الجيش التركي ولم يدر كيف يقاوم عدواً تصله مقذوفاته ولا يمكنه أن يجاوبه بمثلها، ولم يمض كثير من الزمن حتى تقهقر الأتراك وتركوا المعادل والحصون وأرادوا التزول إلى الوادي فقابلتهم سوارى المصريين بالسيوف وأخذوا في ضربهم حتى تفرق شملهم واغتنم المصريون في هذه الواقعة خمسة وعشرين مدفعاً وألفين من الأسرى وكثيراً من الذخائر والتجأ كثير من الترك إلى ضواحي مدينة اسكندرون للهرب على الدونائمة لكن لسوء حفظهم كانت الدونائمة قد سافرت فلما علم المصريون بذلك اقتفوا أثرهم وتبعوهم إلى اسكندرون حيث لحقوهم في اليوم التالي وطردوهم من المدينة وغنموا منهم أربعة عشر مدفعاً وحملاً غفيراً من الأسرى.

وكانت هذه الواقعة هي الطامة الكبرى والخيبة العظمى لحسين باشا وجيشه ويقال أن حسين باشا ترك جيشه ليلاً واختفى حتى لم يوقف له على أثر خوفاً مما يلحقه من العار بسبب الخذاله أمام جيوش أحد أتباع الدولة العلية وفراراً مما يحكم عليه به من العقاب والقتل بسبب ذلك واختلف الناس في كيفية فراره على أوجه شتى فقال فريق أنه فر على مركب يونانية بعد أن اتخذ كل ما كان معه من ماله الخاص ومال حكومته لكن غدر به ربان السفينة و اغتال ماله وألقاه ومن معه على جزيرة صغيرة من جزائر الأرخبيل حتى أهلكهم الجوع فيها وقال فريق أنه اختفى في إحدى قرى الأناضول وأمضى فيها ما بقى من عمره في عيشة بسيطة كأحد أفراد الرعية ولم يرد الظهور بعد ذلك، وكل هذا رجم بالغيب أما الحقيقة الحققة فلا يعلمها إلا موجد الكائنات وبارئ السمات سبحانه جل جلاله وعظم سلطانه.

واقعة قونية:

ثم إن إبراهيم باشا اجتاز بعد ذلك جبال (طوروس) وجاوز حدود بلاد سوريا ودخل ولاية (أطنة) ولكن لم يرغب التقدم إلى الأمام بل بذل جهده في تنظيم ما فتحه من الولايات بعد أن أدخل في دائرة فتوحاته مبدائن انطاكية وطرسوس وأطنة وأقام مع جيشه في هذه المدينة إلى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٣٢ ثم انتقل بحمله ورجله إلى الأمام لمقابلة الجيش التركي الجديد الذي أرسله السلطان لمحاربته لأنه لم يكن من عاداته أن يدع العدو يهاجمه بل كان هو يقابله في سيره ويهجم عليه من حيث لا يشعر فضلاً عن أن يوقع في صفوفه الفشل وكان هذا الجيش مؤلفاً من جميع الشعوب المكونة للدولة العلية ولا رابطة بينها من الروابط التي يتحرك بها الجيش حركة واحدة كرجل واحد لأن الدولة العلية لم تتمكن من التآليف بين قلوب رعاياها حتى تكون منهم أمة واحدة عثمانية بل لم يزل كل شعب محافظاً على تقاليده وعوائده ولا تجمعهم مع باقي الشعوب إلا جامعة الخضوع لسلطان واحد ذي بأس ويطش.

ومن المعلوم أن تباين الشعوب واختلاف أهوائهم ومشاربهم لا تزيله قوة السلطة ولا قدمة من أصل وأن كانت تحمد ناره وتكسر أوارده. ألا ترى أن السلطة التى تجمع هذه الأضداد وتؤلف بينهم بحسن إياالتها وتلمّ شعث ما بينهم من تنافر الجنسية واختلاف المشارب إذا أحسوا منها وهناً أوقصوراً فى القوة والثروة طمحت أبصارهم وتشوفت نفوسهم إلى مبارزتها بالعداوة وأسرع كل شعب إلى بنى جلدته وأهل مشربه، وحسبك دليلاً على ذلك معاهدة برلين وما اشتملت عليه من استقلال بعض الشعوب وانضمامها إلى إحدى الدول الأوربية.. ولتقتصر على ذلك خوفاً من الخروج عما نحن بصددته ونرجع إلى ما كنا فيه فنقول:

كان هذا الجيش تحت قيادة رشيد باشا الذى اشترك قليلاً مع إبراهيم باشا فى محاربة (موره) وخصوصاً أمام مدينة (ميسولوجى) وامتاز بعد ذلك فى محاربة من يدعى مصطفى باشا والى (اشقودره) ببلاد الأرناؤد ولما اجتمع هذا الجيش العرمرم بمدينة (استانبول) استعرضه السلطان بنفسه وضم إليه ست أليات من المشاة المنتظمة مع إضافة عدد وافر من المدافع حتى بلغ عدده ستين ألف مقاتل ثم تقدم رشيد باشا إلى بلاد الأناضول لصدّ هجمات إبراهيم باشا عمن مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة العلية. وكان إبراهيم باشا قد تقدم حتى وصل مدينة (قونية) وجعلها مقراً لأعماله الحربية ومركزاً للذخائر والمؤن وبث طلائع جيشه، إلى سائر ضواحي البلد وتفقد بنفسه كل النقط المهمة واستعرض جيشه فوجد من حسن نظامه ما انشرح منه صدره وقرّ به عيناً وأمل الظفر على رشيد باشا كما انتصر على حسين باشا، وما النصر إلا من عند الله.

وفى ١٨ ديسمبر من سنة ١٨٣٢ وصلت مقدمة الجيش التركى تحت قيادة رؤف باشا إلى شمال مدينة (قونية) وكانت هذه المقدمة مؤلفاً أغلبها من الجيوش غير المنتظمة، فناوشهم إبراهيم باشا ليحقق قوة انتظامهم ودرجة ثباتهم ولما آنس منهم الضعف أراد أن يظفر بهم ويفرق شملهم ويشتت جمعهم قبل وصول

الجيش فلم يقبل رؤف باشا الحرب لتحقيقه من علم الثبات أمام الأسود المصرية فانقضى يوما ١٨ و ١٩ في مناوشات خفيفة كانت نتيجتها أخذ بعض مدافع وبعض أسرى من الأتراك. ثم في صبيحة يوم ٢٠ من الشهر انتشر خبر وصول رشيد باشا وجيشه إلى مقربة من (قونية) وحينئذ تحقق الكل أن هذه الواقعة ستكون خاتمة الحرب وأنه لو انهزمت العساكر التركية، خيف على الدولة العلية من تقدم المصريين نحو القسطنطينية وعجز ووصول رشيد باشا أخذ يتأهب للقتال فرتب جيشه المركب من ستين ألف مقاتل على أربعة صفوف وجعل الخيلة لوقاية الخلف والاجنحة، لكنه ارتكب الخطأ الذي كان سبباً في الخذلان حسين باشا أمام حلب، وهو تفريق المدافع بين كل أورطة وأخرى وتشتيت قواها وتفريقها حتى لا يعود لتراها تأثير ومن البديهي أن نفس الأسباب تشأ عنها نفس المسبات.

وأما إبراهيم باشا فلم يكن معه إذ ذاك إلا ثلاثون ألف مقاتل مدربون على فنون القتال وحضروا كل الوقائع الحربية التي حصلت بين الترك والمصريين من ابتداء الحرب، مع أن الجيوش التركية كانت مؤلفة من أحداث مختلطى الأجناس مختلفى الملل ومع ذلك لم يسبق لأغلبهم اقتحام نيران الحرب ومشاهدة أهوالها، ومما قوى في قلوب المصريين الأمل في الفوز والانتصار ثقتهم برؤسهم وتعدد النصر لهم المرة بعد المرة في سائر الوقائع التي شهدوها، "وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين".

وبعد أن انتظم كل من الجيشين تقدم الجيش التركي إلى الأمام، أما المصري فمكث في مكانه لا يبدى حراكاً وكان الضباب الكثيف الكثير الموجود في سر الأناضول خصوصاً في مثل هذا الشهر سادلاً أستاره على الجيشين وغمياً كلا منهما عن أعين الآخر ولذلك لم يبدأ إبراهيم باشا بالضرب كي لا يعرف العدو مكانه، أما رشيد باشا فبمجرد وصوله على مسافة خمسمائة متر ابتداءً بإطلاق البنادق والمدافع فعلم إبراهيم باشا وسليمان بك ترتيب جيش العثمانيين

وتفريق مدافعهم، ثم شاهد سليمان بك المشاة التركية انفصلت بسبب الضباب عن الخيالة فأمر في الحال المشاة من المصريين بالدخول بين الفريقين ليستحيل اجتماعهما ورجوعهما إلى ما كانا عليه من الإلتزام والانضمام ولقد أوقعت هذه الحركة العسكرية الرعب والفرع في قلوب الأتراك فوقفوا مبهوتين يقذفون رجلاً ويؤخرون أخرى إلى أن فاجأت الخيالة المصرية الخيالة التركية وأعملت فيها السيف حتى بددتها ووجهت المدفعية المصرية قنابلها على المشاة التركية فأهلكتها ودمرتها.

ولما رأى رشيد باشا أن لامناص من الإهزام أراد أن يستقفل في الحرب ففرل بنفسه في وسط المعركة يقاتل كجندى ولكن لم يفز ببقيته بل وقع أسيراً في أيدي المصريين فجازا به إلى إبراهيم باشا فأحسن وفادته، ولما انتشر خبر أسره وقع الفشل في صفوف الأتراك فولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وفاز المصريون بفوز لم يسبق له مثيل في تاريخهم واغتصموا من هذه الواقعة نيفاً ومائة مدفع وكثيراً من الدخائر وأسروا عشرة آلاف عسكري كان من ضمنهم كثير من القواد العظام والضباط الكرام.

وكان لهذه الواقعة تأثير مهم في قلوب سكان الأناضول وصار المصري أو من يتبعه مهيباً معظماً أينما حل ولما يؤيد ذلك ما روى أن شخصاً يدعى محمد أغسا دخل مدينة أزمير ومعهُ أربعة رجال واستولى عليها باسم إبراهيم باشا وطرد حكامها واستبد فيها بأمره ولم يقدر أحد من السكان ولا من غيرهم على إخراجهم، لكنه ما لبث أن اضطرت العساكر الشاهانية إلى الهرب وإخلاء المدينة أما إبراهيم باشا فلم يرد أن يزيد شواغله باحتلال (أزمير) لما يترتب عليه من سلخ جزء من جيشه وإرساله إليها فأنكر معرفة محمد أغسا المذكور وبذلك زالت هذه المسألة الغريبة التي ليس لها أدنى أهمية حرية ولكن أوردناها اثباتاً لما وقع في قلوب الأتراك من بأس المصريين ومهابتهم.

تداخل الدول:

ولقد اضطرت لذلك الدولة العلية فخشيت من تقدم إبراهيم باشا مع جيشه وأوجست خيفة من سوء العاقبة ولما لم يبق لها من الجيوش المنتظمة ما تعترضه به في طريقه استعانت بالسياسة الأوروبية فتدخلت الدول العظام في المسألة لتسويتها بحل مرضى للطرفين خشية من دخول إبراهيم باشا اسلامبول واستفحال أمره وأما الروسية فانتهزت هذه الفرصة للتدخل بالفعل بين الدولة العلية ورعاياها المصريين فأرسلت سفنها إلى شواطئ الأناضول الشمالية لمنع تقدم إبراهيم باشا نحو القسطنطينية وأنزلت إلى البر برضا الباب العالي نيفاً وخمسة عشر ألف نفس من جيشها لمحاربة إبراهيم باشا إذا اقتضى الحال. وكان ذلك منها لما خشيت من أنه لو استولى محمد علي باشا على تحت الدولة العلية لم يتيسر لها حينئذ تنفيذ وصية بطرس الكبير فتدخلت فرنسا وانكلترا وعارضتا الروسية في نزول عساكرها في أرض الدولة العلية وبعد محادثات طويلة التزم الروسيون بسحب عساكرهم إلى الحدود، وتوصلنا أيضاً إلى إبرام الصلح بين السلطان محمود ومحمد علي باشا بأن يعطى ولاية مصر مدة حياته ويقلد ولايات كريد والشام وقسم أطنه.

وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة (كوتاهيه) نسبة إلى البلد التي كان إبراهيم باشا بها وقت الاتفاق ولم يتجاوزها إتباعاً لأوامر الدولة وصدرت إرادة السلطان الشاهانية بذلك في مايو سنة ١٨٣٣ وبعد ذلك أخلى إبراهيم باشا بلاد الأناضول وإجتاز جبال (طوروس) عائداً إلى الشام حيث أخذ في تنظيم البلاد ونشر أسباب الراحة والأمن بين العباد.

أما الباب العالي فأجاب إلى هذه المطالب إتباعاً لمشورات الدول الأوروبية عموماً، وفرنسا وانكلترا خصوصاً، فلأنما بذلنا جهدهما في إقناع الباب العالي بمصالحة تابعه، بدون تدخل الروسية دخولاً حربياً فإنه أمر لا يؤمن أن يعود على تركيا بما لا ترضاه فقف للباب العالي ذلك ظاهراً وأخذ في الاستعداد سراً

في تدريب الجيوش وتجهيز العدد والعدد لردّ ما سلب من أملاكه كما سيجي ذلك مفصلاً.

هذا أما روسيا فتمكنت في مدة نزول عساكرها بأرض الدولة من إبرام معاهدة مع الباب العالي تدعى معاهدة (أنكاراسكله سي) كان من أهم شروطها أن كلا من المتعاقدين يتعهد بالذب والمدافعة عن الطرف الآخر عند حصول خطر داخلي أو خارجي له ومنها غير ذلك من الشروط التي لا تخلو من الإذلال والإحجاف ولكن بمساعدة المقادير لم تنفذ شروط هذه المعاهدة مطلقاً لإحتجاج الدول الأوروبية عليها ولتنبه الباب العالي إلى مضارّها.

وأما إبراهيم باشا وسليمان بك فأخذوا ينظمان البلاد الشامية تنظيمًا إدارياً وسياسياً وحريةً وعسكرياً حتى ساد الأمن في ربوعها وانتشرت السكينة في أنحائها وأمن على النفس والمال من أن تعث بها أيدي الظلم والإعتساف، وراجت التجارة واتسع نطاقها وكثرت المعاملات بين الشام والبلاد الأوروبية وازدادت الصادرات والواردات ضعفي ما كانت عليه قبل ضمها إلى مصر وثمت المحصولات. وصار كل إنسان واثقاً بأنه يحصد ما يزرع بدون أن يشاركه العرب أو تقاسمه فيه الحكام، كما كان حاصلًا قبل حلول إبراهيم باشا ثم أمر إبراهيم باشا بزرع كثير من شجر التوت اللازم لإزدياد محصول الحرير، فغرس نحو مائة ألف شجرة، وغرس في ضواحي مدينة أنطاكية أشجار الزيتون وتغطت جبال سوريا وهضابها بكروم العنب لتصدير الخمر، فزهت البلاد الشامية وأينعت وعادت إلى بعض ما كانت عليه في أعصر الفتيقين والرومانين وتحقق اللقاءات أمّا لو استمرت تابعة لمصر لصارت من أخصب بقاع الدنيا وأكثرها زراعة وتجارة. وفي هذه الأثناء أنعم العزيز محمد علي باشا على سليمان بك الفرنسي بلقب باشا مكافأة له على خدمته الصادقة أثناء هذه الحروب، لكن لم يستمر أمر البلاد الشامية في قبضة محمد علي باشا إذ لم يأل الباب العالي جهداً في استرجاعها إليه فأخذ يستعدّ براً وبحراً ويتروى مع الدول في الطريق

المؤدية إلى إرجاع الشام إليه، خصوصاً قسم أطنة الواقع خلف جبال (طوروس) لأن المصريين ياحتلال مضائق هذه الجبال يمكنهم الإغارة على بلاد الأناضول في أى وقت شاءوا.

عصيان أهل الشام أول مرة:

استمرت الشام على هذا التقدم إلى أوائل سنة ١٨٣٤ فأصدر محمد على باشا أوامره المشددة إلى نجله إبراهيم باشا باحتكار جميع أصناف الحرير لجانب الحكومة وبضرب جزية جديدة على كل الأهالي بدون تمييز بين الجنسية أو الديانة وبتهيز عدة آليات من سكان البلاد الشامية، ومما زاد أهل الشام انحرافاً عن محمد على باشا أمره بقرع السلاح من جميع الأهالي لأنهم من شعوب غير مؤتلفة وديانات مختلفة وعادات ليست بمشقة ولذلك لا ينقطع الشقاق من بينهم، الأمر الذى يقضى غالباً على استعمال السلاح لاسيما وأن البلاد الشامية تحفها من جهة الشرق صحارى رملية يسكنها بعض قبائل العرب الرحل الذين لا طريق لتكسيهم ولا سبيل لتعيشهم إلا السلب والنهب والتعدى على القرى الواقعة على حدود الصحراوات، وربما توغلوا في داخلية البلاد لهذه الغاية المشؤمة والسجية المذمومة، فلذلك صارت الأسلحة النارية وغيرها من ضروريات السكان ولوازمهم للدفاع عن أنفسهم والذود عن أولادهم والذب عن أموالهم، فالزامهم بعدم حمل السلاح بمثابة جعلهم هدفاً لسهام تعدى الغير عليهم وهم عزل ولم يدبر بخلداهم أنه بحسن إدارة إبراهيم باشا وسهره على راحة الأهالي، صار لم يخش من هؤلاء العرب على تكدير كأس الراحة العمومية وأن إبراهيم باشا لما عرف به من الشجاعة وحسن السياسة كان كفواً للذود والدفاع عنهم وإذا تقرر ذلك فقد صار حمل السلاح مضراً بالهينة لعدم الإحتياج إليه للدفاع عن المال والنفس واستعماله حينئذ لا يكون إلا في المخاصمات الخصوصية بين أفراد الطوائف المختلفة، ولما كان لواء الأمن منشوراً والعدل منشوراً صار أمر نزع السلاح ضرورياً لاستتباب الأمن وتوطيد أركانه بين هذه الأمم مختلفى الديانات والمذاهب والأجناس والعقائد،

لكن اتخذ المفسدون هذا الأمر ذريعة لإلقاء المفاسد بين الأهالي وتوغير صدورهم من الإدارة المصرية التي لم يروا في باقي الولايات مثلها في الإنتظام والعدل بين الرعية وأفهموهم أن محمد علي باشا لم يأمر بهذا الأمر إلا ليستعبدهم ويقتصب أملاكهم وأموالهم بعد تجريدهم من السلاح.

فلما وصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم باشا وكان إذ ذاك في مدينة (يافا) لم يتردد في نشرها بين القبائل وفي سائر الأيالات مشدداً في تنفيذها بدون إمهال ولا توان، متوعداً من يبدى أدنى معارضة بصارم العقاب وشديد الجزاء فتأثر لذلك كل الأهالي ما بين صغير وكبير وشريف وحقير وأخذوا في التعصب ولما لم يجدوا ثمة لتعصبهم ورأوا أنه لا بد من نزع السلاح من أيديهم طوعاً أو كرهاً عزموا على الإمتناع وشق عصا الطاعة وساعدتهم على ذلك أرباب الغايات وأطمعوهم في المساعدة مادياً وأدبياً إذا اقتضاها الحال فصغوا لوسوسة هؤلاء الشياطين وغواية الغاوين.

وابتدأت الثورة بجوار البحر الميت (بحيرة لوط) وعلى شواطئ بحر الأردن بجوار مدينة أورشليم^(١) (بيت المقدس) وأعلن قبائل هذه الجهات أنهم لم يدعوا ولم يمتثلوا قط لأوامر الباب العالي فكيف يتبعون أوامر والي مصر الذي هو تابع له، وأنهم يريدون المحافظة على استقلالهم ولو كان في ذلك هلاكهم عن آخرهم وكان ذلك في شهر إبريل سنة ١٨٣٤.

فلما وصل إلى إبراهيم باشا خبر عصيانهم قام لوقتته مستصحباً معه فرقة من جيشه وسار قاصداً وادي الأردن لمعاينة العاصين وجدّ في سيره حتى وصل مدينة أورشليم قبل أن يبلغهم خبر قيامه من (يافا) فاستدعى إليه أعيان القوم وأكابرهم فمثلوا بين يديه وسألهم عن سبب توقفهم في الإمتثال لأوامر البوالي وهل هم مصرّون على التمادي في العصيان فأجابوه بأنهم غير معارضين في

(١) قال ياقوت في معجمه لأورشليم بالضم ثم المكون وكسر الراء واء سلكة وشين معجمة مكسورة ويروى بالفتح وميم وهو اسم لبيت المقدس بالحرثية ويروى لورشولوم ولورشليم أي بتشديد اللام المفتوحة.

احتكار الحرير لكنهم معارضون كل المعارضة في أخذ شبابهم إلى العسكرية وأقم مستعزون لدفع الضريبة ولو ضعفين وإرسال بعض أولاد المشايخ بصفة رهينة تأميناً على طاعتهم بشرط إعفاء شبابهم من العسكرية أما نزع السلاح فلم يدعوا له مطلقاً.

فلم يقبل ذلك منهم إبراهيم باشا، بل أخبرهم أنه لا بد من تنفيذ أوامر والده بدون تغيير أو تبديل، فلما رأوا أن لا مناص استأذنوا في العود إلى المدينة وعرض ما تم بينه وبينهم من الحديث على الأهالي، وأوروهم أنهم في حلة ذاتهم مدعون لأوامره وسيبدلون جهدهم في إقناع القوم بالإمتثال لكنهم يرجون منه لو خاب مسعاهم ولم يقبل الأهالي هذه الطلبات أن لا يؤاخذهم ولا ينسب ذلك إلى سوء نيتهم وفساد طريقتهم، فأذن لهم بالذهاب مظهراً اعتقاده بحسن نيتهم، وكان يريد بإظهار البشاشة لهم وعدم الشدة عليهم التحلص من الحرب فراراً من عدو هو أنكى وأشدّ بطشاً من عصيان الأهالي، ألا وهو الهواء الأصفر الجالب للموت الأحمر، الذي أتى مع الحجاج عند عودهم من تادية الفريضة وفشا بأورشليم وقتل بأهلها فتكاً ذريعاً حتى خيف امتداده وتعذبه إلى خارجها فقفل إبراهيم باشا راجعاً إلى (يافا) ومكث ينتظر جواب أهالي المدينة، ولم يظهر الوباء في مدينة (يافا) ذلك الوقت.

ولقد كان نجى إبراهيم باشا أمام مدينة القدس تأثير حسن، فألقى الرعب في قلوب القبائل المجاورة وهذا الأهل وعادت السكينة كما كانت لكن هذا الهدوء لم يكن إلا ظاهراً لأن إدخال شبان البلاد في الخدمة العسكرية وزيادة الضرائب مما أوغر صدور السكان على الإدارة المصرية فلم يكن سكوتهم إلا انتظاراً لفرصة مناسبة يشقون فيها عصا الطاعة.

ولقد ساعدهم الحظ فلم يمض عليهم طويل زمن حتى سنحت لهم تلك الفرصة المنتظرة وذلك أنه شاع أن الدولة العلية تجمع الجيوش وتولف الكتاب في بلاد آسيا الصغرى وأن رشيد باشا الذي كان قائداً للجيوش التركية في

واقعة (قونية) وأسر فيها، كما سبق لنا ذكره في محله، ولى قيادة هذا الجيش الجليلد ليعوض ما فقدته من شهرته في تلك الواقعة فلما شاع ذلك الخبر وعلم به العرب النازلون على ضفاف البحر الميت نزعوا إلى العصيان وامتدت تلك الثورة بسرعة عجيبة إلى جبال يهوذا حتى تفاقم الخطب وتعسر الخلاص لولا ما اتصف به إبراهيم باشا وقائده سليمان باشا من العزم في الخطوب والحزم في الكروب.

عصيان الشيخ قاسم وأبي غوش:

وكان من المخربين على هذه الثورة الشيخ قاسم حاكم مدينة (نابلس) وهو من عائلته شريفة شهيرة بقدمها وعراقها في النسب، ومن مآثر المرحوم إبراهيم باشا أنه بذل له ولأولاده جزيل نعمه وولى أكبرهم مدينة (حبرون) ليستميل إليه هذه العائلة المسموعة الكلمة في سائر أكناف المدينة وضواحيها، لكن هذا الشيخ أنكر الجميل وكان أول مناد بالعصيان وأول مخرض على الثورة فلسى ندائه سكان الجبال المجاورة الذين لا يوذون أن يكونوا تابعين لأى حاكم ولو كان عدل الحكام وكذلك عائلة من يسمى (أباغوش) النازلة في الأودية الواقعة بين أوريشلّم وبافا فإنما رفعت راية العصيان وقطعت الطريق بين المدينتين واحتلها كل مسالك الجبال ومضايقتها، لكن ربما يلتمس لهذه العائلة عذر لأنها لم تجد ما وجده الشيخ قاسم وأولاده من إبراهيم باشا من حسن المعاملة وإسدال النعم والعطايا الجمّة فضلاً عن الحجر على رئيسها بمدينة عكا لما اقترفه من سوء معاملة الحجاج وعدم السماح لهم بالمرور من أرضه ما لم يعطوه جعلاً معلوماً مع تنبيه إبراهيم باشا عليه بإبطال هذه العادة فهاجمت عائلة (أبي غوش) وأعوامها النقط المصرية المعينة لحفظ الطريق من قطاع الطرق. ولما كانت حامية هذه النقط غير كافية لمنع تعدى مثل هؤلاء الطغاة قفلت راجعة إلى مدينة يافا بعد أن دافعت دفاع الأبطال وقاومت مقاومة الأسود في الجبال وكذلك حامية أوريشلّم لما لم تستطع إيقاف حركة العصيان ولا إطفاء لهبها المستعر تركت خطة الهجوم وتحصنت في قلعة المدينة حتى يأتيها المدد.

فلما بلغ إبراهيم باشا هذه الأخبار المكثرة للبال المهيجة للبال المزعجة لأبطال الرجال أرسل في الحال أيا من الفرسان لكج حجاج الشارين لكنه لم يقدر على مقاومة قبيلة (أبي غوش) المحتلة للطريق الموصلة بين (يافا) و(أورشليم) فبعد أن قتل في القتال قائد هذه الفرقة والسواد الأعظم من رجالها عاد الباقون إلى يافا في حالة لو شاهدها العدو لرثى لها.

فلما رأى ذلك إبراهيم باشا هم في الحال وتوجه بنفسه ومعه العدد الكافي من الجند لمنع تجمع الثائرين في مدينة (نابلس) حيث استدعاهم الشيخ قاسم للإجتماع للمفاوضة في تدبير ما يلزم لنجاح مشروعهم وأرسل أيضاً إلى مشايخ القبائل يخبرهم بأن الشيخ قاسم لم يقصد التخلص من الإدارة المصرية العادلة إلا لاستعبدهم ويسومهم سوء العذاب.

فلما عرف حاله لبعض القبائل المصافية له، نفروا منه وتضعضت بذلك شوكة وزالت سطوته وانهدمت قوته وأمكن لإبراهيم باشا وسليمان باشا اتخاذ خطة الهجوم فقاما من يافا في ٤ يوليو سنة ١٨٣٤ ومعهما ستة آلاف جندي واقتربا من الجبال فرأياها مغطاة بالعرب ثم وصلا إلى قرية تدعى قرية (أبي عنب) حيث كانت عائلة (أبي غوش) متحصنة تحصناً عظيماً كاد يتعذر معه أخذها بل يستحيل ولكن لم يعأ إبراهيم باشا بهذه التحصينات بل هاجمها بعسكره بكل شدة وثبات واستمر القتال ثلاثة أيام متوالية دافع من خلالها الثائرون دفاع الأبطال ولولا ما اشتهر به إبراهيم باشا من الحزم والعزم والنبات في مواقع القتال لفاض الثائرون بالغلبة. وفي اليوم الثالث دخل المصريون القرية واجتازوا جبال يهوذا واحتلوا كل الطرق ووصلوا إلى مدينة أورشليم^(١) بدون أن يتعرض لهم أحد في طريقهم لتبدد شمل الثائرين بعد سقوط قرية (أبي عنب) التي كانت قلعته الوحيدة ومانعتهم الحصينة.

^(١) يبلغ عدد سكان هذه المدينة عشرين ألفاً وتنقسم إلى أربعة أقسام تختلف بالجنسية والطبائع والعقائد وكرامه بعضهم بعضاً يسكن في جهتي الشرق والشمال الأتراك وفي الجنوب اليهود وفي الغرب اليونان والأرمن.

وحين وصل المصريون إلى أبواب المدينة وقع الرعب في قلوب سكانها الأتراك لأنهم كانوا يساعدون الثائرين على محاربة المصريين لما انتشر خبر تجمع العساكر العثمانيين في جهات الأناضول ولعلمهم بأنه لا بد من انتقام إبراهيم باشا منهم ومحاربته لهم ليكونوا عبرة لغيرهم ولكي لا يعودوا إلى الثورة مطلقاً سراً أو جهراً، التجأ كثير منهم إلى الفرار هرباً مما سيؤول ياخوانهم من العذاب الشديد نعم إن إبراهيم باشا كان يسعى بجهده في استعمال الطرق السلمية ويعفو عن كثير ممن كان يقاومه، لكنه ليس في مثل هذه الحالة فإن استعمال الخلم في هذه الأحوال مما يجزئ المفسدين على نشر فسادهم ويعين الطغاة على طغيانهم.

ولقد تحقق ما كان يخشاه أتراك (أورُشليم) فقتل إبراهيم باشا كثيراً من زعمائهم هذا ولم يكن لإستيلاء إبراهيم باشا على مدينة (أورُشليم) فائدة تذكر لموت كثير من عساكره من كثرة المناوشات التي كانت دائمة بينه وبين العرب، ولعدم وجود العدد الكافي من الجنود في هذه البلاد حتى كان يستمد منهم ما يلزم لتعزيز حامية المدينة وحفظ خط الرجعة إلى يافا ومضايق الجبال والطرق الموصلة بين المدينة وغيرها فأخذ في التحصن بالمدينة كي لا يهلك كثير من جيشه في المناوشات، وأرسل إلى مصر يطلب منها المدد حتى إذا وصله تمكن من مهاجمة العدو وتبديدهم في واقعة مهمة لا يقوم لهم بعدها قائمة.

وفي خلال ذلك لم يأل جهداً في إيقاع النفرة بين رؤس النورة وتحريض بعضهم على بعض كي يتوصل إلى مرغوبه ويتحصل على مأموله إذا وقع بينهم الفشل فتجح في مشروعه هذا كل النجاح، حتى أن الشيخ قاسم حاكم (نابلس) لما رأى أن أغلب مشايخ القبائل أوشكت تنسلخ عنه أراد التقرب من إبراهيم باشا وأرسل إليه يخبره أن النابلسيين يرغبون في الرجوع إلى طاعة المصريين لو عدوهم بمعاقتهم من الخدمة العسكرية فقبل إبراهيم باشا المخاطبة في هذا الموضوع لو حضر الشيخ بنفسه إلى معسكره فحضر الشيخ طائعاً

مختاراً، لكن لسوء حظه لم ينجح في هذه المخابرات لأن سليمان باشا كان في أنثائها قد تمكن من إبرام وفاق مع أولاد الشيخ (أبي غوش) بأن يسلموا إليه معاقل جبال يهودا في مقابل إطلاق سراح أبيهم والعفو عما حصل منه ومن قبيلته ومكافأته مادياً على المساعدات التي قدموها إلى المصريين فقبلوا ذلك وصار الطريق آمناً بين يافا وأورشليم.

سفر محمد علي باشا إلى الشام:

ولما علم إبراهيم باشا بسفر أبيه أغلق باب المخابرات بعدم قبوله إعفاء سكان نابلس من الخدمة العسكرية وعاد إلى يافا في أواخر يوليو سنة ١٨٣٤ للاملاقة والده محمد علي باشا الذي كان توجه إلى الشام مع المدد اللازم لإخماد الثورة قبل انتشارها.

فلما ينس الشيخ قاسم من الاتفاق مع المصريين عاد إلى نابلس وأخذ في تحصين المدينة وبناء الأسوار والقلاع حولها وعاهد نفسه أن لا يسلم المصريين ما دام حياً بل يحاربهم حتى يقضى الله أمراً، فاستعد محمد علي باشا بنفسه لمحاربتهم وأرسل إلى الأمير بشير أمير الدروز أن يحضر إلى (يافا) ويرسل جيوشه لمحاربة الشيخ قاسم فخاف الأمير بشير ولم توجه بنفسه إلى (يافا) بل أرسل أحد أولاده ليخبر محمد علي باشا بأن الدروز سيسافرون عن قريب لمهاجمة نابلس فاكفى محمد علي باشا بهذا الجواب وأمره بإخضاع مدينة (صفد) التي أخذ سكانها في ارتكاب القذائع وقطع الطرق اعتماداً على مناعة مدينتهم فامتثل الأمير بشير وتوجه لساعته قاصداً (صفد) وحاصرها، لكن لم يحتاج الحال لأخذها عنوة فإنه قبل أن يهاجها أرسل إلى سكانها يتهددهم بإحراق مدينتهم وقتلهم عن آخرهم إن لم يسلموا له سلاحهم ويأتوا إليه خاضعين، ولما أكدهم من أن الدروز لا يتأخرون عن إنفاذ ما يتوعدونهم به، سلموا المدينة للأمير بشير وأعطوه سلاحهم فدخل المدينة واستلم زمامها وأخذ رأس الثورة وأرسلهم إلى سجن (عكا) وبعد أن وطد الأمن في ضواحي (صفد) زحف برجله إلى مدينة

نابلس من جهة الشمال حين كان المصريون يتقدمون من جهة الجنوب فهال النابلسيين مرأى هذين الجيشين، ولكن الشيخ قاسم مع تحفقه عجزه عن مقاومة المصريين، آلى على نفسه أن يقاتلهم إلى آخر رمق من حياته ومما زاد في غيظه أن إبراهيم باشا ووالده محمد علي باشا أجزلا النعم على عائلة أبي غوش وأمر الباشا بإخراج رئيسها من سجن عكا وأهدى إليه هدايا فاخرة وأرجع ولده الأكبر إلى منصبه واعترف له بالرياسة على قبيلته وولى ولاية (أورشليم) أحد أولاده الآخر بشرط أن يتكفل بمؤنه حامية المدينة وما تحتاج إليه من مأكول ومشرب وملبس.

ولشدة حق الشيخ قاسم على المصريين لم يستطع صبراً حتى يأتى إليه عساكر الدروز بل خرج للقائهم خارجاً عن أسواره وحصونه وكان ذلك سبباً في ضعف قوته، إذ لا طاقة للمحاربين غير المنتظمين على مقاومة المنتظمين فمن المعلوم ومما أيدته التجارب أن العسكرى المنتظم يعد بعشرة من غير المنتظمين فكيف إذا كان القائدون لهم رجالاً مثل إبراهيم باشا وسليمان باشا لكن الشيخ قاسم لم يتدبر هذه الحقيقة فعاد عليه وخيم عواقبها.

وذلك أنه التقى بجيش المصريين في موقع يعد عن (نابلس) بضعة ساعات وبعد قليل لم يستطع الوقوف أمام نيران المدافع وتقهقر بعد ما قتل من رجاله نيف ومائة رجل إلى أحد التلّول المجاورة للمدينة، فتبعه المصريون ودخلوا المدينة عنوة أما هو فهرب مع من بقى من رجاله وكان مشحناً بالجراح هو وأحد أولاده فالتجأوا إلى مدينة (حبرون) حيث عزم على أن يقاتل ويدافع عن نفسه حتى يموت فاقضى أثره إبراهيم باشا مع جيشه ولم يلبث أن وصل (حبرون) وأمر بمهاجمتها بدون أن يترك للعدو أدنى وقت لتحصينها وكان ذلك في ١٤ أغسطس سنة ١٨٣٤ فانقض المصريون عليها كالليث الضاربة بقوة لا يقوى على مقاومتها إنس ولا جان، ودخلوها بعد قتال عنيف كانت الدائرة فيه على الشيخ قاسم ورجاله مع كونهم دافعوا دفاع الأبطال، وساعدتهم على ذلك

الأشجار المغروسة بالبساتين المحيطة بالمدينة من كل طرف مما عاق المصريين في هجومهم وكان سبباً لموت كثير منهم بين أنفار وضباط إذ كان الضباط في مقدمة الجند يشجعونهم على القتال.

اقتفاء إبراهيم باشا أثر الشيخ قاسم:

ولما دخل إبراهيم باشا المدينة عفا عن سكانها وأمنهم على أموالهم وأعراضهم لكنه أقسم باستئصال عائلة الشيخ قاسم من أولها إلى آخرها، فلما رأى الشيخ المذكور ذلك فرّ هارباً من المدينة عند دخول المصريين ولم يتمكن إبراهيم باشا من القبض عليه مع ما بذله من العناية في ذلك فخرج الباشا من المدينة لإقتفاء أثره، بعد أن ترك بها حامية قوية تحت قيادة سليمان باشا خوفاً مما عساه يحصل من الفتنة فيها وبث الجواسيس في سائر أنحاء فلسطين ليقف على الخلل الذي احمى فيه الشيخ المذكور ورجاله وبعد قليل عاد بعض الجواسيس إليه وأخبروه بأنه في قرية يقال لها (الكرك) واقعة في جنوب بحيرة لوط (البحر الميت) وهى مدينة حصينة وبها قلعة منيعة مبنية على قمة شاهقة يتعذر الوصول إليها لوعورة الطرق الموصلة إليها وبذلك يمكن لحامية قليلة أن تصد عنها كل مهاجم وترد كل عدو بعده وعدده، فلما علم إبراهيم باشا بذلك آلى على نفسه أن يأخذ الشيخ المذكور أسيراً ولو حمله ذلك على إهلاك معظم جيوشه، لأنه إن لم يفعل ذلك ظن أهل الشام أنه غير قادر على إخضاعه وربما جرّهم ذلك إلى العصيان، فكان قصد إبراهيم باشا بمحاربة الشيخ قاسم وقلته هو أن يكون ذلك مثلاً وعبرة لسكان الشام كي يعلموا علم اليقين أن كل من عادى إبراهيم باشا لا بد أن ينال جزاءه عاجلاً لا آجلاً.

فلما تبين إبراهيم باشا وجوده في مدينة الكرك قام لوقته وجحد في السير واصلًا لليل بالهزار في قطع الصحراء المحرقة من شدة الحرارة حتى مات جملته من عسكره في أثناء السير من شدة العطش لقلّة المياه في الطرق، ويقال أنهم لما وصلوا إلى البحر الميت ألقوا أنفسهم فيه لشدة ما كان بهم من الظمأ المحرق مع

شدة ملوحة مائه، ومن الثابت أن ماء هذا البحر لكثرة ملحه يزيد ثقله النوعي حتى يحمل الإنسان بدون مسباحة ولقد قال بعض السياحين أن المسافر بعد أن يتحمل مالا يوصف من المشاق والأوصاب وآلام الجوع والعطش وينظر من بعد لون مائه يتحيل له الظما أنه عذب فرات، لكن لا يلبث أن يشم رائحته الكريهة الناشئة عن كثرة ما فيه من الأملاح والكبريت فيزول عنه هذا التخيّل.

ولما وصل إبراهيم باشا إلى مدينة (الكرك) لم ينتظر قدوم مدافعه بل أمر بالهجوم على القلعة بعد أن أراح عساكره مدة يومين ولم يتمكن الجند من أخذ القلعة عنوة لتعذر الوصول إليها فعاد المصريون بلا طائل والتزم إبراهيم باشا أن ينتظر المدفعين، فلما وصلت المدافع ابتدأت بإطلاق القنابل على أسوار القلعة حتى تقدمت، ودخلت العساكر القلعة فلما دخلوها لم يجدوا فيها أحداً من النابلسيين ولا رؤسهم وسبب ذلك أن الشيخ قاسم مع كونه ظهر على المصريين في الواقعة الأولى لم يخف عليه أن فوزه لم يكن إلا لعدم وجود المدافع وأنه لا يمكنه مقاومتها فهرب في غلس الليل ومن معه من بقايا تابعيه والتجأوا إلى الصحراء فتبعهم إبراهيم باشا بعسكره حتى أدركوهم وأحاطوا بهم فلما رأى النابلسيون ذلك، وعلموا أن لا مناص لهم من الموت ألقوا سلاحهم وسلموا أنفسهم إلى إبراهيم باشا.

أما الشيخ قاسم وأولاده وبقية زعماء الثورة فتمكنوا من الهرب ثانية واختفوا عند عرب (عنس) النازلين بين مصر والشام ولعلم هذه القبيلة بأنما لو أخفت الشيخ المذكور وعلم بذلك إبراهيم باشا لأوقع بهم أشد العذاب وصارم العقاب بل ربما كان ذلك سبباً في هلاك أغلب أفرادها إن لم نقل الكل فقتلوا من إبراهيم باشا بأن قبضوا على الشيخ المذكور ورفقائه وسلموهم إليه.

وبعد أن طيف بهم في أنحاء فلسطين ليكونوا عيرة لمن يعتبر أمر بقطع رؤسهم وكانوا ستة فقتل ثلاثة منهم ومن ضمنهم الشيخ قاسم في مدينة أورشليم التي كان مبدأ الثورة منها، واثنان في (عكا) والسادس في دمشق وانتهت بذلك

الفترة الشامية الأولى وثبت قدم المصريين في البلاد الشامية ولم تزل ملتحة بمصر تابعة لها حتى تداخلت الدول الأورباوية عقب وقعة (نصيبين) التي انتصر فيها المصريون نصراً هيباً وألزمت محمد علي باشا برّد الشام إلى الدولة العثمانية، كما كانت وسيجي مفصلاً إن شاء الله.

ولقد لام بعض المؤرخين الأمير إبراهيم باشا على تعريض نخبة جيشه للموت من الجوع والعطش والحرارة في اقتفاء أثر الشيخ قاسم، وفأهم أنه لو تركه وشأنه لعنا في الأرض فساداً وحمل ذلك الشاميون على عجز منه وتجروا على اقتراف المنكرات بل ربما كان ذلك سبباً لحصول عصيان عمومي يؤدي إلى سفك دماء المصريين أكثر مما يسفك في قطع دابر مثل هذا الشيخ.

وبعد أن استتب الأمن في ربوع البلاد الشامية أخذ إبراهيم باشا في تنفيذ أوامر والده التي كانت سبباً في هذه الثورة الجزئية، فأمر أولاً بترع السلاح من السكان كلهم بدون استثناء أو تمييز بالنسبة للجنسية أو للسدين فاطاع الشاميون^(١) ولو مع التذمر خشية أن يحل بهم ما حل بالشيخ قاسم من البلايا ويترل بهم ما نزل به من الرزايا وبعد ذلك أمر بتحصيل الضريبة التي ضربت على الشاميين بدون تمييز بين صغارهم وكبارهم وأمرائهم وصعاليكهم فهدم من ذلك الفقراء والرعاة الذين كانت الدولة العلية لا تطالبهم بشئ ما، خصوصاً المسلمين منهم، فإن الضرائب كانت تضرب على النصارى واليهود لا غير، ولما كانت تلك الضريبة لا تفي بمحاجات الحكومة كانت تصدر الولاية والصناجق فسلب منهم ما جمعه في مدة ولايتهم من النهب والإغتصاب، وبذلك كان المسلمون من السكان راضين بهذه الحالة وكرهوا الضريبة المصرية لمساواتها بين السكان بدون نظر إلى معتقدتهم نعم إنه ربما كان الأولى بالحكومة المصرية وقتئذ أن تراعى عوائد البلاد وطباع أهلها ثم تصلح كيفية ضرب الأموال وتوزيعها على الأهالي شيئاً فشيئاً، لكنه لا يجوز من جهة أخرى أن

(١) بما عبرت في هذا الكتاب بلقب الشاميين ولو لم يكن هناك لمة شامية لعدم تكرار اسماء الأمم والأمم والمختلفة الأجناس المختلفة الأديان القاطنة بأرض الشام.

الأمة المصرية تقوم بكافة مصاريف الجيش والإدارة مع ما هي عليه من الفاقة والفقر المدقع الناشئ من تسلط المالك عليها أحقاباً متوالية بل من العدل أن كلاً من الأمتين الشامية والمصرية يشترك في مصاريف ما يلزم للحكومة كما أنهما يشتركان في التمتع بخيراتهما والإستغلال بظلال الأمن الشامل للولايتين.

وعلى كل حال لم تصادف الإدارة المصرية في تحصيل هذه الضريبة من الصعوبات ما لاقته في إدخال الشاميين في الخدمة العسكرية فإنه أدخل منهم في الجيش المصري ثمانية عشر ألفاً ما بين دروز وموارنة ومسلمين وغيرهم من كل الشعوب والأجناس وهو الأمر الذي ازدادت به كراهة الشاميين للإدارة المصرية، وذلك لأن الدولة العثمانية ما كانت تدخلهم في العسكرية كرهاً بل كانت تكفي بمن يدخل بإختياره من سكان جبل لبنان وكان يندرج منهم سنوياً في الخدمة العسكرية ألف لا غير، ومما كان سبباً في زيادة كراهة الشاميين للأمة المصرية عدم الإنتظام في أخذ الشبان كما هو جار الآن في مصر وسائر الدول المتقدمة بأن يخدم الشاب مدة معينة ثم يعود إلى أوطانه، ويكون أحده بطريق القرعة مع المساواة بين كل الأفراد، بل كانت الطريقة المتبعة في أخذهم أن يدخل الضابط المعين لذلك في القرى ويختطف الشبان بالقوة وربما لم يتم له ذلك إلا بعد مقاومة عنيفة يكون من ورائها أحياناً قتل بعض من الفريقين ولقد ذكر أحد من كانوا في معية البرنس (دى جوانفيل) نجيل "لويس فيليب" ملك فرنسا حين كان سائحاً في البلاد الشامية أثناء احتلال المصريين لها أن الحرس الذى كان معيّناً لحراسته أثناء جولانه في جبال لبنان كان كلما يرى في طريقه شاباً قوى البنية صالحاً للخدمة العسكرية ضبطه وأرسله مع بعض الجند إلى أقرب ألى ليلحقه به دون أن يعلم أقاربه بذلك، ولا غرابة في مثل هذا فإن هذه الطريقة كانت متبعة في مصرنا أيام محمد على باشا ومن بعده ولم تبطل إلا من عهد قريب.

ولقوة المصريين إذ ذاك وعدم مقاومتهم في انجازة على أقل عصيان بأشد العقاب، لم يجسر الشاميون على شق عصا الطاعة بل سلموا أسلحتهم وصار يرد إلى (بيروت) و (صيدا) وغيرهما عدد عظيم من الأسلحة النارية والبيضاء بل ومن المدافع التي كان يحتوى تحت ظلها سكان جبال لبنان وكان من أهم المساعدين للمصريين في تنفيذ هذا الأمر في لبنان الأمير بشير، فإنه بذل ما في وسعه لإرضائهم خوفاً من أن يحل به ما حل بالشيخ قاسم المتقدم وأعوانه مع علمه بأن ذلك يورث عليه صدور اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم من مسيحيين ودروز لكنه أثر إرضاء المصريين على إرضاء مواطنيه وبقي على ولائهم حتى تقلص ظل إدارتهم وسلبت منهم البلاد الشامية بواسطة تداخل الدول الأجنبية عموماً والدولة الانكليزية خصوصاً.

ولقد بذل الأمير بشير جهده في تنفيذ أوامر إبراهيم باشا وإخماد الفتنة الجزئية التي تظهر في القرى لكن لم يجد اهتمامه نفعا بل ازداد الهياج شيئاً فشيئاً، وانتهز الأتراك هذه الفرصة لبث رسلهم في سائر الأنحاء وتحريض الجبلين على القتال وخلع طاعة المصريين، الذين تمتعوا في مدة حكمهم بالراحة والطمأنينة مما لم يروا ولن يروا مثله ومما قوى نفورهم من الإدارة المصرية وعد رسل الدولة إيأامهم بمعافاتهم من الضرائب والخدمة العسكرية ومنحهم الإستقلال الإدارى فساغرتوا بهذا ونزعوا إلى العصيان، ومن الغريب أنهم لما هموا بالعصيان ظهر أنهم لم يسلموا من سلاحهم إلا القليل العادم النفع وأخفوا الصالح الجيد ليستعملوه ضد المصريين الذين لا ذنب لهم سوى أنهم منعوا عن قطع الطرق ونهب أموال ساكني الأودية والسهول، الذين لا قدرة لهم على الدفاع واقضاء أثرهم لإلتجائهم إلى جبالهم الشاخنة الصعب الوصول إليها لعدم وجود الطرق، ولقد تبه إلى هذا الأمر إبراهيم باشا وعلم أنه لا يمكن إدخال هؤلاء الجبلين في طاعته إلا إذا فتح الطرق السهلة لمرور الخيالة والمدافع ولذلك أمر المهندسين بإنشاء ما يلزم من الطرق المتسعة المنتظمة على حسب الأصول الهندسية مع

مراعاة تخفيف الميل كى يسهل جرّ المدافع الضخمة عليها وتوجيهها إلى حيث يلتجئ العدو.

ولكى لا تصل الأسلحة والبارود الذى كان يرسل إلى الثائرين مدداً لهم، أمر إبراهيم باشا أيضاً بمنع دخول السفن التركية إلى ميناء الشام وعدم ورود القوافل من جهات الأناضول فساء ذلك الأتراك وسبب ضرراً عظيماً للتجارة لكن إبراهيم باشا رأى المصلحة في ذلك وآثر أخف الضررين وأهون الكربين.

ثم استدعى سليمان باشا من (حبرون) وكلفه بتمرير من يرد من مصر من العساكر ويارسال الشاميين الذين أدخلوا في العسكرية إلى مصر إذ كان محمد على باشا يرسلهم إلى مصر العليا أو إلى السودان بصفة محافظين خوفاً من أن يحصل منهم ما يضر بإخماد الثورة لو بقوا في بلادهم ولا يخفى ما في ذلك من الحكمة والتبصر في عواقب الأمور.

هذا ولما رأى محمد على باشا أن المدارس التى أنفق عليها المال الكثير حسن تربيها وليتعلم فيها جيل جديد من المصريين يشب على الأفكار الحديثة ويكونوا عوناً له وخلفائه من بعده في بث التمدن في القطر المصرى قد أخذت في الإنحلال بسبب سفر أغلب الأساتذة الأورباويين، طاعة لطلب الساعين في عدم تقدم مصر الذين لا يريدون إلا أن تكون ملقاة في بحار الجهل ظناً منهم أن لا يقوم أحد من المصريين مقامهم في ذلك، استدعى سليمان باشا من السديار الشامية وكلفه بملاحظة شئون المدارس وكل ما يكون سبباً في ترقيتها إلى أوج التقدم حتى تأتى بالغاية المقصودة فبلى دعوته وعاد إلى مصر وأخذ في ترتيب المدارس على أحسن نظام خصوصاً المدارس الحربية والبحرية ولم يعقه في طريقه معارضة الجهلة من حاشية الوالى، لمساعدة الوالى نفسه له.

وحين كان يشتغل سليمان باشا في القاهرة بمثل هذه الأشغال السلمية كان رشيد باشا القائد العثماني الذى أخذ أسيراً في واقعة (قونية) كما تقدم مشغولاً

بجمع الجيوش والكتائب في بلدة (سيواس) بارمينية ليحارب المصريين ويقهرهم كي ينمحي ما خلفه من العار والخزي والوار في واقعة (قونية) ثم تقدم بتلك الجيوش إلى مضائق جبال (طوروس) منتظراً للفرصة المناسبة للإنقضاض على البلاد الشامية واختطافها من قبضة الحكومة المصرية ولا يخفى ما للموقع الذي نزل به من الأهمية العسكرية والحربية لأنها نقطة ملتقى الطريق للأخذ من جبال (طوروس) إلى وادي الدجلة والفرات، فضلاً عن نقاوة وصفاء هواء هذه الجهة المرتفعة وكثرة وجود الماء العذب بها مما يكون الجيش بسببه آمناً من الأمراض المعدية التي كثيرا ما تنشأ في الجيوش المجتمعة لما يتخلف عنهم من الأقدار والوخامة ولم يكن القصد من جمع هذا الجيش الجزر إلا تشجيع أهل الشام على العصيان للتخلص من عدل الحكومة المصرية والعود إلى الاستبداد.

ولما فطن الشاميون إلى هذه الغاية ازدادوا عتواً وكادوا ينشرون لسوء العصيان جهاراً فلما علم إبراهيم باشا بذلك أخذ الإحتياطات اللازمة لصدّهم لو أرادوا الهجوم عليه ولما اجتمع إذا اقتضى الحال ذلك، فأرسل حامية قوية إلى مدينة الرقة الواقعة على شاطئ الفرات لمنع مرور العثمانيين لو أرادوا عبوره وكذلك أرسل العدد الكافي من الجند إلى جهات (أورفه) و(حلب) و(أنطاكية) وفرّق ما بقي من جيشه بمئة سيارات صغيرة تطوف في كل أنحاء البلاد لمجازاة القرى التي تتأخر في تأدية الخراج، أو تعارض الحكومة في إجراءاتها وبذلك خذلت الثورات الداخلية الصغيرة وعلم الكل أن ما هم فيه من شق العصا والإنحراف عن الحكومة المصرية غرور وأن الأوفق موالاها ما لم تسع الدولة العلية بالفعل في مساعدتهم مادياً وجعل إبراهيم باشا مركزه وأركان حربيه في مدينة أنطاكية^(١) مفضلاً لها عن مدينة حلب لرداءة هوائها وقلة مياهها وتعرضها دائماً إلى الأوبئة والأمراض المعدية.

(١) مدينة بتركية لسيا تبعد عن حلب بمئة كيلومتر وعن البحر المتوسط بثلاثين كيلومتراً اكتفت في أيام الرومانيين لحصن مدينة بالشرق ويبلغ عدد سكانها في عهدهم مئتي ألف شخص ثم فتحها العرب في خلافة سينا عام ١٠٠٠ من الختل وتنازعها الممبسون والمسلمون أيام الحروب الصليبية حتى انتهت باتصال الإسلام وبقيت مدة تابعة لمصر مع بلاد الشام إلى أن فتحها السلطان سليم العظمى سنة ١٥١٦.

ولتمهيد ما سيأتي ذكره من الحوادث السياسية التي أوجبت تداعيل الأوروبوين في المسألة المصرية ضد محمد على باشا منعاً لوقوع أهم الولايات العثمانية في قبضته وبالتالي من عدم تمكنهم منها في المستقبل نقول:

إن حكومة فرنسا كانت في ذلك العهد حكومة ملكية مقيدة تقييداً كلياً وكان يكفلها إذ ذاك (لويس فيليس) الذي ارتقى على أريكة الملك عقب هياج الأمة على (شارل) العاشر وعزها له وطردها إياه في أواخر شهر يوليو سنة ١٨٣٠ لأنه كان شديد الميل كثير الرغبة إلى الإستبداد والحكم بدون مشورة الأمة أي الرجوع إلى ما كانت عليه فرنسا قبل الثورة العظمى وضياح كل ما حصل عليه الفرنسيون من الحرية بعد سفك دماهم في محاربة سائر ملوك أوروبا، ولما ولى (لويس فيليس) أجاب إلى كل ما طلبته منه الأمة من كونه يكون ملكاً مالِكاً لا حاكماً وأما الأحكام فتكون بيد الوزراء وأعضاء مجالس النواب ولما لم يكن لمعظم الفرنسيين ما يلزم لكل هذه المهمة من الحنكة والتجارب ولو أنه كان منهم في ذلك الحين رجال سياسيون محنكون مثل (تيرس) وجيزو^(١) وغيرهما إلا أنهم كانوا ملزمين بإتباع ما يقرره أعضاء مجالس النواب حتى في الأمور السياسية التي يلزم كتمانها، ولذلك كانت فرنسا حينئذ بمعزل عن جميع الدول الأوروبية ما عدا انكلترا، فإنها كانت تظهر لها التودد لمصالحها التجارية فضلاً عن ميل الفرنسيين لمساعدة كل أمة تسعى للحصول على الحرية والإستقلال وهذه الحاسيات^(٢) لا تدم على كل حال بل تمسح في حد ذاتها.

(١) ولد المسمى جيزو سنة ١٧٨٧ واشتهر من حداثة سنه بالتضلع في فن التاريخ وله فيه مؤلفات كثيرة أهمها تاريخ لمتدن في فرنسا وأوروبا وتاريخ الثورة الإنكليزية (١٦٨٨) ودخل الوزارة في عهد الملك لويس فيليب بصفة ناظر المعارف العمومية ثم تعين سفيراً لفرنسا لدى حكومة فنكلترا ولم يمكته إثناء سفارته منع فنكلترا من الإتحاد مع الدول على محمد على باشا في يوليو سنة ١٨٤٠ ثم تعين وزيراً للخارجية في أكتوبر من هذه السنة واستمر في هذه الوظيفة إلى فبراير سنة ١٨٤٨ حيث طرد الملك ونودي بالجمهورية بفرنسا فسافر جيزو إلى فنكلترا واستمر في تأليفه حتى توفي في شهر سبتمبر سنة ١٨٧٤.

(٢) هكذا في الأصل المحرر.

ولم يكن محمد علي باشا مساعد من الدول الأوروبية إلا فرنسا التي تبذل جهودها دائماً مع كل أمة تحارب وتناضل للحصول على الإستقلال فلولا مساعدتها لما كانت مملكة اليونان كما سبق لنا بيان ذلك، ولم تكن مملكة البلجيك ولا إيطاليا المعدودة الآن من الدول العظمى وهي التي ساعدت الولايات المتحدة الأمريكية على التخلص من ربة الحكومة الإنكليزية إلى غير ذلك مما لا يحصى من مساعدة الشعوب المضطهدة التي حاربت لأجل استقلالها ولم تنجح.

ولما رأى محمد علي باشا أنه لا يمكنها مساعدته ما دامت الدول الأخرى معارضة لها لاسيما وأن القابضين والمستولين على أزمة الأحكام في هذه الدول هم أشهر رجال هذا العصر فكان اللورد (بالمستون)^(١) وزير خارجية انكلترا والكونت (دي نسلرود) وزيراً للروسية والمسيو دي مترنيخ^(٢) أشهر وريراً للنمسا على حين كانت وزارات فرنسا تابع وتسقط دون أن يكون لها خطبة سياسية تجرى عليها فاتح وكلاء الدول بمصر في شأن مشروعه لكنه أظهره بطريقة أخرى مآلها إبرام تحالف على منع من يريد من الدول التعدي والطمع فيما بيد غيره وأن يقدّم جيوشه وبحريته إذا اقتضى الحال لنجاح هذا التحالف ويطلب في مقابلة ذلك أن يستقل بمصر والشام وبلاد العرب وأن تكون هذه الأقطار له ولورثته مؤبدة.

(١) ولد سنة ١٧٨٤ وتعلّم بكلية كمبردج ودخل مجلس العموم وجلس مع المحافظين ثم انضم إلى الأحرار سنة ١٨٣٠ تقريباً ثم ترقى إلى أن صار وزير الخارجية فكلترا من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤٦ ومن سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٨٥٥ ومن سنة ٥٨ إلى ٥٩ إلى ٦٥ تبعاً لتقلب الأحزاب على منصة الأحكام وتوفي سنة ١٨٦٥ واشتهر مدة وزارته الأولى بمعلّسة محمد علي باشا وبالفتية بمعلّقه الروسية وإثارة حرب القرم عليها.

(٢) ولد البرنس دي مترنيخ سنة ١٧٧٢ بمدينة كوبلنس من أصل ألماني ودخل من صغره في الوظائف السياسية فقدم تدريجاً إلى أن عين سنة ١٨٠٩ وزيراً لولا لخارجية للنمسا واستمر فيها إلى سنة ١٨٤٨ وتوفي سنة ١٨٥٩ واشتهر بمصلحته دقماً للحركات الثورية وبمعلّسته لفرنسا وإرجاع أوروبا إلى الملكية المطلقة.

فأدهش هذا المشروع وكلاء الدول ولم يردّوا عليه جواباً بل استمهلوه حتى يخاطبوا الدول التي هم تابعون لها وبعد قليل أجابوه بنهي عن التعلق بأهذاب هذا المشروع.

هذا ولما علم الباب العالي بما جرى بين والي مصر والدول وكيف قابلت الدول مشروعه وتحقق أنها لا تعارضه في إرجاع مصر تحت سلطته كما كانت بل ربما ساعدته على ذلك، أخذ في توجيه أفكاره نحو جبل لبنان ليتسنى له الدخول في مسائلهم وأرسل عدداً عظيماً من الجند إلى معسكر (سيواس) لكن لم ترد فرنسا ذلك بل طلبت من الباب العالي أن يرسل إلى مصر أحد من يعتمد عليهم للمخاطبة مع وإليها في طريقة فيها رضا الطرفين، وذلك أولى من استعمال القوة لأول وهلة فإنه أمر لا يكون وراءه إلا إثارة نار الحرب وسفك دماء العباد بدون فائدة ولا عائدة، فرضى الباب العالي بذلك وأرسل أحد مستخدمي خارجيته المدعو (ساريم بيك) إلى والي مصر لهذه الغاية فقابلته بكل بشاشة وإيناس وأظهر له خضوعه إلى الدولة العثمانية وأخبره بأنه لم يكن في عزمه الإتيان بأي أمر يكون بسببه تغيير الحالة الحاضرة، فسرّ من ذلك مندوب الدولة العلية ورغب منه أن يتوجه معه إلى دار الخلافة ليتفق بنفسه مع جلالة السلطان محمود خان^(١) على ما يكون عليه السير في المستقبل فلم يقبل منه ذلك البتة لعلمه أن في سفره إلى اسلامبول ما يكره، فعرض عليه حينئذ (ساريم بيك) أن يعطى ولايق مصر والعرب وتكونا له ولذريته إلى ما شاء الله وبلاد الشام أيضاً إلى جبال (طوروس) مدة حياته وأن يدفع للدولة خراجاً سنوياً

(١) هو السلطان محمود الثاني ولد سنة ١٧٨٥ ولاء رئيس الإنكشارية المدعو (مصطفى بيرقدار) بعد عزل وقتل السلطان مصطفى الرابع سنة ١٨٠٨ حارب الروسية وتنازل لها عن إقليم (بessarabia) بمقتضى معاهدة بوخارست سنة ١٨١٢ واستقل للشرب والإفلاق والبغدان (رومانيا) في إقليمه وأذن أيضاً لإستقلال جزر قبرص اليونان سنة ١٨١٩ ثم في سنة ١٨٢٨ قصصحت بلاد مورة وما جاورها عن الدولة العلية بعد حرب استمرت ثمان سنوات وتشكلت بهيئة حكومة ملكية مستقلة تحت حماية الدول وحارب الروسية ثلثي مرة فانهزم ولعنه معاهدة لندن سنة ١٨٢٩ - ومن سنة ١٨١٩ إلى سنة ١٨٢٢ ثار عليه على بلشما والى باتينا فقتله وفي سنة ١٨٢١ أخذ منه محمد علي باشا بلاد الشام فأبرم مع روسيا معاهدة تكرار أسكندرية وأباح لها حق إزاله عسكريتها بأرضه لحمايته ثم هزم المصريون حنده في واحة نصيبين سنة ١٨٢٩ وتوفي بعد ذلك بأيام قتلان ومن مكره أنه ليطل جيش الإنكشارية سن ١٨٢٦ وقتل أغلبهم وسعى في إصلاح تأديبته وهو أول من استقبل الصلوة والملابس التركية بالطرش الرومي والملابس الأوروبية.

يكون للسultan حق تقديره، فقبل ذلك منه وكان ذلك في أوائل سنة ١٨٣٧ وتم الإتفاق بينهما على ذلك وعاد المندوب إلى الدولة بهذا الوفاق.

ولكن لم يقبل الباب العالي هذه الشروط كلها بل تراءى له أن لا يعطيه في الشام إلا ولايتي (صيدا وطرابلس) إلى مفاوز جبال (طوروس) وتكون تلك الجبال تابعة للدولة حتى يمكنها بذلك، متى منحت لها الفرصة، أن ترسل جيوشها إلى مصر بدون أن يكون لها في الطريق معارض ولا منازع فلما وصل هذا الخبر إلى محمد علي باشا علم أن لا سبيل إلى الإتفاق بالطرق السلمية، وأنه لابد من الحرب عاجلاً أو آجلاً فأعلن لقناصل الدول أنه لا يقبل هذه الشروط وأنه عازم على المحافظة على كل ما فتحه بكل ما في وسعه وأن لا يسلم شيئاً من الأرض التي احتلها إلى الدولة العلية طائعاً وأنه لا يترك مملكته عرضة لإغارات العساكر العثمانية بنسليمهم مضايق جبال (طوروس)، التي لم يستول عليها إلا بشق الأنفس وبذل الأرواح وإضاعة الأموال وأنه لو تنازل عن ذلك لعدّ نذلاً جباناً لا يصلح أن يكون حاكماً.

ثم أخذ في الإستعداد للقتال وأرسل كمية عظيمة من الأسلحة والمدافع إلى جهات الشام ليظهر للباب العالي عزمه على المدافعة عن جميع ما فتحه من البلاد وأنه لا يروعه قديد ولا وعيد وأعلن لقناصل الدول أنه سينادي باستقلاله هو وورثته بالبلاد التي احتلها الآن، وأنه على أي حال لن يدفع للدولة العلية شيئاً قط من الخراج فارتجت لهذا الخبر وزارات أوروبا على الخصوص الوزارة الإنكليزية وأيقنوا أنه لابد من فتح باب المسألة الشرقية إن لم يُتدارك هذا الأمر قبل تفاقمه وأن الأولى تلافى تلك المسألة التي ربما تكون نتيجتها إثارة نار الوعي بين دول أوروبا أجمع لإختلافهم في حل هذه المسألة وتباين مشاربهم فيها، فأرسلت الحكومة الإنكليزية إلى محمد علي باشا بلاغاً تخبره به أنه لو صمّم وأصرّ على تنفيذ مشروعه ونشأت عن ذلك حرب بينه وبين الباب العالي

ف تكون حكومة الملكة^(١) مضطرة لاستعمال القوة ضده، وتصده عن الباب العالي لو اقتضى الحال وأنه لا يغتر بعدم اتفاق الدول في المسألة الشرقية فإذن ذلك لا يكون مانعاً لإدخاله في طاعة دولته، لو رغب الخروج عنها وأيد هذا الكلام ما ورد إليه من باقى الدول من التهديدات.

سفر محمد على باشا إلى بلاد السودان:

لكن محمد على باشا لم يعأ بكل ما ورد إليه من هذا القبيل وبينما وزراء الدول ينتظرون ما يأتى به جوابه إذ ورد عليهم نبأ سفره إلى جهات السودان للبحث عن معدن الذهب وترك حكومته كأنها لم يكن بها شئ من التهديدات، ويحكى عنه أنه قال لو وجدت الذهب فزت بالأرب وتلت المراد بدون تداعل الدول لكن هذه العبارة تحتاج إلى إثبات.

* * *

عصيان أهل الشام ثاى مرة:

لا يخفى ما فى هذه الرحلة من الأخطار على حكومته المصرية من انتهاز الشاميين فرصة غيابه للإذعان إلى الثورة وشق عصا الطاعة لا سيما وأن أعداءه من الخارج كانوا يترقبون الفرص لبث الفتنة والفساد فى بلاد الشام وكان الأمر كذلك، فإن محمد على باشا لم يجتز بلاد (دنقلة) حتى ورد إلى (باغوص بك) الذى كان قد فوض إليه إدارة البلاد فى أثناء تغيب ولى نعمته خير عصيان سكان جبل لبنان وما به وبجواره من الأمم المختلفة بين دروز ونصيرية ومارونية وتقدم العساكر الشاهانية إلى التخوم بعلة أنهم يريدون معاقبة بعض قبائل الكرد المشهورين بالعبث فى الأرض حتى الآن ومن الغريب أن سائر أعضاء العائلات الشريفة فى الجبل كانت محافظة على الولاء للحكومة المصرية ولم يقبل أحد منهم أن يكون رئيساً لهذه الثورة التى لم تكن ناشئة عن تظمر

(١) هي الملكة فيكتوريا ولدت سنة ١٨١٩ وتولت سنة ١٨٣٧ ولم ترل حاكمة إلى يومنا هذا. (إلى إلى عام تأليف الكتب المحرر).

الأهالي من جور أو ظلم بل سببها الوحيد إلقاء الدسائس بينهم من الخارج قصد إرجاع محمد على باشا إلى حدود مصر أو اغتياله، وأتى لهم ذلك وهو شهم متيقظ لما يراد منه قابض على زمام الأحكام بمهنة المشهورة وعزيمته المشكورة وبطشه الشديد ورأيه الشديد. ولما بلغ إبراهيم باشا، وكان لم يزل مقيماً بالبلاد الشامية بصفة حاكم أعلى، خبر هذه الثورة أصدر أوامره المشددة باقتفاء أثر الثائرين وبمجازاة من يؤخذ منهم أسيراً بأشد العذاب وأصرم العقاب، لكنه لم يلبث أن طلب المدد من مصر لشدة بأس الثائرين في هذه المرة وتسليحهم بالسلاح المتقن فطلب من باغوص بيك أن يرسل إليه سليمان باشا مع ما يرسله إليه من العدد والعدد، فبذل باغوص بيك جهده في كل ما أمكنه جمعه من العساكر المدرّبة وأرسلهم إليه ليتمكن من إخماد الثورة قبل تفاقم الخطب.

فبمجرد وصول سليمان باشا ومعه المدد إلى الشام أمكن إبراهيم باشا تحصين البلاد الواقعة على التخوم كأنطاكية وحلب وأورفه، وبعد أن وثق بمناعة تلك البلاد وعدم تمكن الأتراك من مهاجمتها بغتة عاد إلى جهة الجنوب حيث اجتمع مع سليمان باشا لإخماد الثورة التي كانت قد أخذت في الإزدياد لما سمع الثائرون أن الدولة العلية عازمة على إرسال عساكرها لمهاجمة المصريين.

فكانت جبال لبنان كشعلة نار ولم يبق فيها أحد يحافظ على ولاء الحكومة المصرية فوجه إبراهيم باشا وسليمان باشا اهتمامهما إلى هذه الجبال الشامخة الوعرة المسلك الكثيرة القمم والأودية حتى قيل فيها أن كل نقطة منها تصلح أن تكون قلعة، وذلك لما جعل وصول العساكر إليها صعباً لا سيما الخيالة والمدفعيين، نعم إن إبراهيم باشا فتح عدة طرق تصلح لسير المدافع لكنها لم تكن بكافية للغاية المقصودة ومع ذلك دخل بجيشه في بطن الجبل واقفى أثر الثائرين إلى أعالي القمم وكانوا يقرون أمامه ليجرّوه على التوغل في جبالهم، حتى إذا تركوا الطرق السهلة وتوغلوا في المسالك الصعبة الوعرة انقضوا على المصريين من أعالي الجبل ورموهم بالرصاص من أعلى إلى أسفل فكانت تصيب المصريين

مقدوفاتهم ولا تصيهم مقدوفات المصريين^(١) ولقد نجحت هذه الحيلة مع سكان جبل لبنان كما نجحت مع غيرهم من الجبلين فانقضوا على المصريين من كل فج ورموهم بالرصاص والحجارة حتى ألجؤهم إلى القهقري وكانت هذه أول مرة تقهر فيها المصريون أمام أعدائهم وهم تحت قيادة إبراهيم باشا وسليمان باشا.

ولما يقن الرئيسان من عدم الجدوى في الوقوف أمام عدو لا يمكنهم صدّه بل ولا رؤيته، وقتل وجرح أغلب من كان معهما من الجند واستشهد نخبة الضباط وهلكت خيول المدافع، أصدر إبراهيم باشا أمره بالرجوع لإنقاذ من بقي، أولى من تعريضهم للموت على غير طائل وقال لو مكثنا على هذه الحالة الجهولة الطريق لكنا قد ألقينا بأنفسنا إلى التهلكة وهذا أمر منهى عنه فصار إبراهيم باشا في مقدمة الجيش وكلف رفيقه وصديقه سليمان باشا بالسير في المؤخرة لصدّ هجمات الجبلين عنهم ومعاكستهم في حال رجوعهم فقام بمسّده المهمة خير قيام وأمكن العساكر المصرية بعد العناء الشديد الخروج من هذه الجبال الشاغرة حتى وصلوا إلى السهل وأخذوا في حصر الموتى ومداواة الجرحى وترتيب الباقي وتنظيمهم وتحصنوا حتى يصل إليهم المدد.

وبعد أن تمت هذه الإجراءات عقد إبراهيم باشا مجلساً حروباً دعى له سليمان باشا وكافة رؤس الجيش للمداولة في أى الطرق يتخذ لتفريق شمل الجبلين وإدخالهم تحت الراية المصرية، فبعد مداولات طويلة قر قرارهم على استعمال الطريقة التي نجحت في أول ثورة ضدّ الشيخ قاسم المتقدم وأبنائه وهي إلقاء الشقاق بين الثائرين، وحيث أن هذه الثورة لم يكن سببها إلا أخذ الشبان إلى العسكرية وتجريد الأهالي من السلاح وأن بعض الجبلين، وهم المارونية، ميالون إلى فرنسا، وهي مساعدة للحكومة المصرية فيعرض عليهم سليمان باشا الفرنسي أن ترد إليهم أسلحتهم وأولادهم ويفهمهم أن فرنسا راضية

(١) هذه هي الطريقة الوحيدة التي يتمثلها سكان الحال لحفظ استقلالهم في كفة الأتباع المستكونة كما في موبسة والجبل الأسود بلوربا وأعلى الحبشة والقبائل القاطنة بجبال جزائر الغرب وأعلى إسكتلندا ببريطانيا العظمى.

عن أعمال المصريين في الشام ولا بد بعد ذلك من انفصالهم عن باقي الجبلين من دروز و نصيرية لما بينهم من الضغائن القديمة التي لم يتناسوها إلا لخارطة المصريين مع بقائهم في صدورهم كامة.

وعند سماع المارونية بتساهل المصريين معهم في هذين الأمرين الأصليين عادوا إلى السكينة و فرق عليهم إبراهيم باشا كثيرا من الأسلحة والرصاص فاتحدوا معه وأتى فريق منهم إلى معسكره ليرشدوه إلى الطرق الجبلية المؤدية إلى مكان الدروز والتي لا يعقلها إلا العالمون بها من سكان الجبال، وسلموه أهم النقاط التي كانت بأيديهم وتمكن المصريون بهذه الكيفية من الوصول إلى تلك الأماكن فهاجموا الدروز في معقلهم وحصونهم وكان المارونية يحاربونهم مع المصريين بعد أن كانوا ضلّتهم قبل ذلك بقليل، وذلك مشاهد الحصول في كل جهة لم تربط أهلها وحدة الجنسية إن لم تربطهم الوحدة الدينية فيتمكن الأجنبي من دخول بلادهم بدون كثير عناء فما لا ينال بالسلح ينال بالخداع " والحرب خدعة" وقد تمكن المصريون بعد عدة مناوشات، كان الفوز فيها دائما لهم، من إخضاع الدروز وإلزامهم بالطاعة وإدخالهم تحت رايهم لكن لم يحصل المصريون على هذا الفوز العظيم إلا بعد أن قتل من جنودهم عدد عظيم وتحملوا ما لا يوصف من المصاعب ولا يطاق من المتاعب، فضلاً عن مكابدة أنواع المشاق في التسلق على هذه الجبال الوعرة التي لولا مساعدة المارونية لهم لما أمكنهم الوصول إلى معرفة مفاوزها.

واقعة نصيبين:

وفي أثناء هذه المدة توفي بمعسكر (سيواس) القائد التركي رشيد باشا الذي هزمه المصريون في واقعة (قونية) قبل أن يأخذ بثأره ويمحو ما لحقه بسبب ذلك من العار، وعهدت قيادة هذا الجيش إلى حافظ باشا أحد قوّاد الدولة العلية الذين امتازوا في الحروب بالثبات والبراعة والأمانة والتبصر في عواقب الأمور.

ولما انتشر في أوروبا خبر فشل الدروز وانتصار المصريين عليهم اضطربت الدول وأرسلت إلى الباب العالي تستهضه همة محاربة المصريين والمبادرة إلى استخلاص البلاد الشامية من أيديهم خوفاً من تقدمهم إلى بلاد الأناضول إذا استتب الأمن في بلاد الشام وهذأت الدروز وأبانت له الدول أيضاً مضار استفحال أمر محمد علي باشا وأنه يخشى من أن ينادى باستقلاله لو لم يسرع الباب العالي في جعل مصر مثل الولايات الشاهانية، فأصغى الباب العالي إلى هذه الآراء التي ربما كانت مبنية على غايات شخصية، ومال مع الدول وأوعز إلى حافظ باشا أن يتقدم إلى تخوم الشام من الجهة التي يسهل عليه الدخول منها فأسرع حافظ باشا بالتقدم إلى الأمام معللاً نفسه بالنصر على المصريين ورّد ما فقدته الدولة العلية في واقعة قونية وما قبلها.

ولما كانت مضائق (طوروس) قد حصنها المصريون بالقلاع والمدافع الضخمة على أحسن أسلوب وأتم نظام بجهة من استخدمهم عزيزهم من المهندسين الأجانب، وصار يتعذر بل يستحيل على أي جيش المرور منها، اقترب حافظ باشا من جهة ديار بكر وأورفه، حيث يمكن للمهاجم الدخول إلى البلاد التابعة للحكومة المصرية بسهولة لإتساع السهول في تلك الجهة وعدم وجود جبال يمكن تحصين مسالكها كجبال (طوروس) ولما علم إبراهيم باشا بذلك جمع معظم جنوده ومدافعه حول مدينة حلب كي يتيسر له صد المهاجم من أي جهة أتى. وأما حافظ باشا فارتكب خطأ عظيماً ظن أن فيه النصر، مع أنه كان سبب انكساره، كما سيأتي مفصلاً إن شاء الله، وهو تجزئته جيشه إلى عدة فرق ليغير على بلاد الشام ويتعدى حدودها من جملة نقط في آن واحد ولما ذاع خبر تقدم الجيشين أمام بعضهما واستعدادهما للقتال طمحت أبصار دول أوروبا إلى ما يكون وراء هذه المعركة من النتائج المهمة التي ربما انقلب بسببها التوازن الشرقي، وصارت السلطة في يد محمد علي باشا وانتقل مركز الخلافة من القسطنطينية إلى القاهرة.

هذا ولقد عاد محمد علي باشا عند ذلك من بلاد السودان بدون أن يسأل الغاية المقصودة من اكتشاف معدن الذهب الذي كان يعود عليه بأرباح وافرة نعم أنه عثر على عدة معادن لكنه رأى أنها تحتاج إلى مصاريف باهظة ربما زادت عما يستخرجه منها من الذهب ولذلك عدل عن استعمالها وصرف وجهه إلى تنظيم إدارة السودان والثقا بأنه لو اعتنى بإدارتها وتنمية ثروة أهلها ربما عادت على الحكومة المصرية بأضعاف ما تربحه من معادن الذهب.

* * *

ومجرد عودته أهدت به قناصل الدول لمعرفة أفكاره من حيث تقدم الأتراك وما هو عازم على فعله لو هاجمته الجيوش العثمانية، فكان يجاوبهم بأجوبة مرضية لهم ومطمنة لخواطهم وما زال يؤكد لهم أن جل بغيته حفظ السلم ليتمكن من نشر أسباب التمدن في بلاده، ولكن كان في أثناء إعطائه لهم هذه التأكيدات يرسل الجند والذخائر إلى ولده إبراهيم باشا وأوامره المشددة بأن يكون دائماً مستيقظاً ومستعداً لصدة هجمات من يتعدى عليه وبأنه لا يرد القوة بالقوة إلا إذا تعدت العساكر الشاهانية إلى تخوم الحكومتين، وبأنه لا يبدأ أصلاً بالهجوم بل يترصد في معسكره ينتظر ما يطرأ عليه من الحوادث حتى لا يكون هناك وجه لأوربا تنسبه به إلى التعدي والطمع وحب الإتساع ولا يكون لها وجه أيضاً في مساعدة الباب العالي عليه وكان ذلك في أوائل سنة ١٨٣٩.

لكن لم يتر الباب العالي بهذه التأكيدات السلمية بل أوعز إلى حافظ باشا أن يعبر الفرات ويستعد لخاربة المصريين عند أول إشارة ترسل إليه، فأمر حافظ باشا من يدعى إسماعيل باشا أحد القواد التابعين له وكان معسكراً في بلدة واقعة على الشاطئ الأيسر للفرات يسميها الأتراك (بلا جيك) باجتياز الفرات والانتقال إلى الشاطئ الأيمن فلما وصل هذا الخبر إلى إبراهيم باشا في يوم ٢٣ إبريل سنة ١٨٣٩، أرسل الرسل إلى والده بمصر يستفهم منه عما يفعله لو هاجمته الأتراك كما هو المظنون، وفي هذه الأثناء كان يرسل أوامره متابعه إلى

الجنود يدعوهم للاجتماع حول مدينة (حلب) خوفاً من مهاجمة الترك لهم على حين غفلة، وجمع إليه أعيان المدينة ومشاهيرها وأعلمهم بتقديم العساكر العثمانية نحو مدينتهم وطلب منهم أن يساعده، أو بالأقل أن لا يحزنوه بتسهيل السبل للأتراك فأجابوه بلا تردد أنهم يحافظون على ولائه ويدافعون معه عن مدينتهم إلى آخر رفق من حياتهم فاطمأن خاطره واستراح باله وعلم أنهم معه لا عليه، ولأجل أن يتحقق من موقع العدو أرسل فرقة مؤلفة من خمسمائة من العرب الذين يعتمد على صداقتهم وإخلاصهم له، وكلفهم بأن يخبروه بحركات الجيوش التركية حتى يكون على يقين من أمرهم وما هم عليه.

هذا ولما وصل خبر تقدم الأتراك إلى محمد على باشا أمر بجمع العساكر والدخيرة وأرسل إلى وزير حرييته المدعو أحمد المنكلي باشا لما كان يعهده فيه من الشجاعة والبسالة بأن يلحق إبراهيم باشا بالديار الشامية ليكون له عوناً وظهيراً في الحوادث المنتظرة، فلما علم قنصل الدول بكل هذه الإستعدادات خافوا من سوء العاقبة واشتعال نار الحرب بين مصر والدولة العلية لوثوقهم بانتصار المصريين على الأتراك فتوجه قنصل فرنسا إلى محمد على باشا وطلب منه إلحاح زائد أن يوقف سفر أحمد باشا المنكلي خوفاً من أن تعتبر الدول سفره هذا بمثابة رغبة في القتال وربما أدى ذلك إلى معاكستها له ومساعدة الباب العالي عليه، وفي آخر المحادثة قال له القنصل أن مسئولية الحرب تقع على عاتقه لو أرسل أحمد باشا المذكور لأن الباب العالي لا يؤدّ إلا السلم الذي هو رغبة فرنسا، فأجابه محمد على باشا بأنه مستعد لا لعدم إرسال أحمد باشا فقط بل لإستدعاء إبراهيم باشا مع جيشه أيضاً إذا ضمنت له فرنسا أن الترك لا يتقدمون نحو تخوم الشام، ففرح بذلك قنصل فرنسا وأبرز له رسالة صادرة من الأميرال (روستان) سفير فرنسا لدى الباب العالي يخبره فيها بأن السبب العالي وعد فرنسا وعداً صريحاً بعدم الإبتداء بالحرب فنظر حينئذ محمد على باشا إلى قنصل النمسا وكان حاضراً هذه المحادثة وقال له أيمكنك أن تضمن لي السلم باسم دولتك كما فعل قرينك؟ فأجابه قنصل النمسا بالنفي، فحينئذ قال محمد

على باشا أن الواجب على الآن أن أستعد للحرب لأني متحقق من نوايا الباب العالي.

وفي اليوم التالي سافر أحمد باشا إلى حلب وكان وصوله بعد تسعة أيام وعلم القاصي والداني بذلك وأنه لا بد من الحرب قريباً وصار الكل في انتظار ما يترتب على هذه الحروب من النتائج، وما تفعل أوروبا لو انتصر المصريون على الأتراك وأما الأتراك فإنهم جمعوا جيوشهم حول قرية صغيرة تدعى (نصيبين)، وهي نقطة مشهورة في التاريخ بحسن موقعها الحربي، حتى أنها كانت دائماً ملتقى الجيوش التي تنازعت ملك بلاد الشام من الأعصر الخالية إلى وقتنا هذا وهذه النقطة مهمة جداً لوقوعها على تلال مرتفعة يحفها من أسفلها نهر صغير يجري من الشمال إلى الجنوب، صعب العبور لشدة جريان مائه وزيادة عمقه وهو نهر (قرسيم) وكذلك يحيط بها من جهة أخرى نهر آخر يجري من الغرب إلى الشرق ويصب في نهر قرسيم فيجتمعان ويجريان إلى نهر الفرات.

ولو هاجم إبراهيم باشا الجيش التركي في أثناء عبوره لنهر الفرات حين كان متقسماً على الشاطئين لأمكنه أن ينتصر عليه بكل سهولة لولا أن حالت بينه وبين بغيته هذه أوامر والده المشددة عليه بعدم الإبتداء بالهجوم. وكانت في أثناء هذه المدة قناصل الدول تكثر من التردد على سراي محمد علي باشا بشيراً لتبليغه كل ما يرد عليهم من دولهم فكانت الدول تارة تهدده بتدخلها لو ابتدأ بالحرب، وتارة تعده بأن تتوسط له عند الباب العالي ليعطى له ولا يبق مصر والشام وتكونا له ولأولاده من بعده ولكثرة إلحاح القناصل عليه سافر إلى الوجه البحري بقصد التفسح ولتسكين خاطر القناصل، وكتب إلى باغوص بك ناظر خارجيته بالقاهرة جواباً من شين بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢٥٥ الموافق (٢ إبريل سنة ١٨٣٩) يخبره به أنه قد ورد إليه كتاب من ولده إبراهيم باشا من جهة الشام يقول فيه أن العساكر الشاهانية اجتازت الفرات عند قرية (بلاجيك) ويظهر أن وجهتها مدينة حلب، وأنه كتب إلى ولده أن لا يهاجم

الجيش التركي بل يترىص في مكانه حتى يهاجموه فيدافع عن نفسه بقسوة الطاقة.

لكن لم يهدأ بال القناصل بل توجه الموسيو (دى ميلدم) قنصل جنرال الروسية إلى دمياط ومعه رسالة وردت إليه بخط الموسيو (نسلرود) وزير الروسية الأول يهدد فيها محمد على باشا بالتدخل الحربي إن لم يصدر أمره حالاً برجوع العساكر المصرية من الشام ويعترف بتبعيته للباب العالي ويقبل كل ما تقرره الدولة بشأنه، فاغتاظ لذلك محمد على باشا لكنه كظم غيظه ووعد ببرد الجواب ثم في يوم ١٦ مايو سنة ١٨٣٩ أرسل إلى قناصل الدول عموماً منشوراً يخبرهم فيه بأنه لو رجعت العساكر السلطانية إلى الشاطئ الأيسر من القُرات، فهو أيضاً يأمر برجوع عساكره ورجوع إبراهيم باشا أيضاً إلى (دمشق) ولو عادت عساكر الدولة إلى ما وراء (ملطية) فهو يستدعى إبراهيم باشا إلى مصر فضلاً عن كونه مستعداً لإرجاع جزء عظيم من جيشه إلى مصر لو تعهدت الدول الأربع العظمى^(١) وقبل الباب بأن تكون مصر والشام له ولورثته إلى ما شاء الله. ولكن لم تقبل الدولة العلية ذلك بل عزمت على أن لا تسلم إلا للقوة وأرسلت إلى حافظ باشا أن يستعد لمقاتلة المصريين ومكافحتهم فأمر حافظ باشا بقطع العلاقات التجارية بين ولايات الدولة والشام وأوقف أيضاً سير القوافل فأمر بمثل ذلك إبراهيم باشا وأرسل سليمان باشا، وكان مكلفاً بالمخاطبات السياسية، منشوراً إلى قناصل الدول بحلب يخبرهم فيه أن إبراهيم باشا أمر بعدم سير القوافل إلى ولايات الدولة العلية لإبتداء حافظ باشا بمثل ذلك، وأن هذا التحريج لا يرتفع إلا إذا عادت المواصلات بأمر القائد التركي.

فاغتاظ لذلك حافظ باشا وابتدأ في أخذ كل ما تصل إليه يده من خيول وبغال وحمير وأغنام ١٤ يكون للجيش المصري ثم احتل قرى عديدة حول مدينة

(١) يريد بذلك دول روسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا

(عَنْ تاب) بدون إشهار للحرب كما هي عادة الأمم المتقدمة، ثم هجم على هذه المدينة نفسها ودخلها عنوة بعد أن طرد الحامية المصرية فكتب إبراهيم باشا لوالده يعلمه بأن الأتراك تعدوا الحدود ودخلوا البلاد التابعة للحكومة المصرية بمقتضى معاهدة (كوتاهيه) ولما لم يرد له رد الخطاب بسرعة واستبطاه قام من حلب مع جزء من جيشه وأمر سليمان باشا بأن يكون على أهبة السير لمساعدته لو دعت الضرورة للقتال. وبينما هو سائر إذ ورد عليه خبر استيلاء الترك على مدينة واقعة على الشاطئ الأيمن للفرات تدعى (تلّ باشر)^(١) بعد أن قتلوا وأسروا فريقاً من حاميتها التي كانت مؤلفة من خمسمائة من عسك الهنادى.

فلما طرق هذا الخبر أذنه جدّ في السير وأرسل إلى سليمان باشا يستدعيه للقيام بدون تأخير مع بقية الجيش ليلجئ الأتراك إلى الرجوع إلى ما وراء الحدود ويستردّ منهم ما سلبوه خيانة وغدراً ولكن بمجرد وصول العساكر المصرية إلى تلّ باشر أخلاها العثمانيون بدون قتال لما علموا وتيقنوا من ضعفهم عن مقاومة المصريين فلم يقتف إبراهيم باشا أثرهم بل اكتفى بعودهم إلى الحدود منتظراً ما يأمره به والده وكان ذلك ٣ يونيو سنة ١٨٣٩ وفى ١٥ منه ورد إليه جواب والده مؤرخاً ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٥٥ الموافق (٦ يونيو سنة ١٨٣٩) يقول له فيه حيث أن الأتراك اعتدوا عليه ولم يراعوا العهد ولا الموائيق، فلا يكتفى بإرجاعهم إلى الحدود بل يلزمه محاربتهم واهلاك جيشهم كى لا يعودوا إلى اعتدائهم.

فلما وصل إليه هذا الجواب ورأى فيه الأمر الذى كان يرغبه، أصدر أوامره إلى سليمان باشا وسائر القواد بالسير إلى الأمام لمهاجمة الأتراك في معسكرهم بنصيبين.

(١) تلّ باشر هو موضع قرية حلب على يمين منها وفيه قلعة خرج منها علماء كثيرون منهم حسن بن على ابن ثابت التلّ باشرى، سمع الخيالات على الفخر بن التجارى، ا.هـ. من شراح القلموس للسيد محمد مرتضى.

وفي يوم ٢٠ يونيو سنة ١٨٣٩ تحرك الجيش بأجمعه واحتل بدون عناء كثير النقطة الأمامية وأخذ قليلاً من الأسرى.

وفي اليوم التالي أراد إبراهيم باشا أن يهاجم الأتراك على حين غفلة، لكنه عدل عن هذا الرأي اتباعاً لمشورة سليمان باشا وقرأ رأيهما على استكشاف مواقع العدو قبل الهجوم عليه وكان الأتراك قد حصنوا نقطة نصيين حتى جعلوها أمتع المواقع الحربية في الدولة العلية وذلك بإرشاد من استخدمهم من ضباط الأمان وكان من ضمنهم البارون (دى مولتك) الذى ينسب إليه انتصار الألمان على الفرنسيين في سنة ١٨٧٠ فكان إذ ذاك في خدمة الباب العالي منوطاً بأن يكون مرافقاً لحافظ باشا بصفة أركان حرب أعنى مرشداً، فلما استحسن إبراهيم باشا مشورة سليمان باشا الذى رافقه في هذا الاستكشاف اتبعها وأخذ ألف وخمسمائة من العربان وأربعة أليآت من السوارى وبطريتين من المدافع وسار بهذه القوة القليلة حتى قرب من مدافع الأتراك فأرسلوا إليهم لردهم عدداً عظيماً من العساكر غير المنتظمين (باشبوزق) وقليلاً من السوارى النظامية فنأوشهم المصريون مناوشة خفيفة حتى ألجؤهم إلى الرجوع والعود إلى استحكامهم وتمكن سليمان باشا وإبراهيم باشا في خلال ذلك من استكشاف التحصينات المهمة التى أقيمت أمام نصيين وتبين لهما أنه يعتذران لم يكن مستحيلاً مهاجمتها من هذه الجهة مهما كانت شجاعة المصريين، ولذلك عاد الجميع إلى معسكرهم بقرب نهر مزار لينظروا أى طريق أنجح للاستيلاء على هذه النقطة المهمة التى لو وقعت في قبضة المصريين وتشتت الجيش العثماني المتحصن فيها، لم يبق بعد للترك قائمة إلا إذا تداركتهم العناية بمساعدة الدول الأوروبية لهم.

ولما انتشر خبر رجوع المصريين شغل السرور الجيش التركى وظنوا أن المصريين لا يجسرون على مهاجمتهم، بل لا بد أن يتركوا معسكرهم ويعودوا إلى حيث أتوا، ثم زاد سرورهم لما أخطى المصريون معسكرهم في اليوم التالي وأخذوا

في الانسحاب والرجوع، فلما رأى الأتراك ذلك ظنوا أنهم ولوا الأدبار لكن لم تلبث أفراسهم أن تبدلت أتراحاً لما علموا أن المصريين لم يعودوا بل أخذوا في الدوران حول نصيين ليهاجوها من الجهة الأخرى التي لم يحصنها الأتراك لعدم توهمهم أن المصريين يأتوهم منها.

فجمع حافظ باشا مجلساً عسكرياً لتقرير ما يجب اتخاذه ضد هذه المناورة العسكرية التي لم تحظر بياهم فأراد البارون (دى مولتك) ومن معه من ضباط الألمان أن يهاجوا المصريين في أثناء سيرهم وعدم استعدادهم للزال وتأهبهم للقتال، لكن اعترض عليه في هذا الرأي الصائب القائد التركي وسائر الضباط الأتراك قائلين كيف نترك نقطة صرفنا نفيس الوقت ومعظمه في تحصينها وتعرض أنفسنا وأرواحنا إلى القتل في واد سهل لا يوجد به أدنى استحكام طبيعي أو صناعي للإحتماء به، فردّ عليهم الألمان بأن الجيش التركي يبلغ عدده ستين ألف مقاتل والجيش المصري لا يزيد عن أربعين ألفاً فيمكن للترك بكل سهولة أن يتغلبوا على المصريين مع أنهم لو تربصوا في معاقلمهم وهاجمهم المصريون في الجهة القليلة التحصن لربما كان الفوز والنصر لهم.

فلم يقبل حافظ باشا نصيحتهم بل اعتمد على رأيه من البقاء في الحصون حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً فاعتناظ لذلك الألمان وأرادوا أن يقدموا استعفاءهم لولا خوفهم مما يلحقهم من العار والملامة لو تأخروا أمام عدو مهاجم.

وفي أثناء هذه المداولة تقدم إبراهيم باشا وفريق من الخيالة المنتظمة والعرب نحو القنطرة المبنية على نهر قرسيم بعد اتحاده بنهر مزار، قصد إصلاحها لمرور الجيش لتوهمه أن الأتراك لا بد أن يكونوا قد خربوها لمنع وصول المصريين إليهم، لكنه وجدها على حالها فأسرع للإستيلاء عليها قبل وصول الخيالة الذين أرسلهم حافظ باشا لصدة المصريين عنها لكن لما وصلت السوارى العثمانية كان قد سبق السيف العذل واجتازها إبراهيم باشا وعسكره، ولم يمكن بهذه

الكيفية للعثمانيين استرجاعها بل بقيت في قبضة المصريين وقد وصل إليها باقي الجيش في مساء ٢٢ من شهر يونيو تحت قيادة سليمان باشا وعسكر الجيش كله على ضفة نهر (قرسيم) المواجهة للجيش التركي واتخذ المصريون الاستعدادات اللازمة لصدة الأتراك لو هاجوهم ليلاً، هذا ولم يضع حافظ باشا وقته سدى بل غير وجهة جيشه وأخذ في إقامة بعض استحكامات لمقاومة المصريين من هذه الجهة وحصنها بالمدافع التي كانت في الحصون الأول فأوجب هذا التغيير ارتباك الجند لأن الجناح الأيمن صار أيسر والأيسر صار أيمن، نعم أن مثل هذا التغير لا يترتب عليه أدنى إرتباك لو كان الجيش مدرباً على مثل هذه المناورات لكن الجيش التركي الذي كان محصناً في نصيين لم يكن من الإنتظام على جانب عظيم لأنه حشد بعد تشتت الجيش القديم في واقعة (قونية) ولذلك وقع فيه خلل كبير بسبب هذه المناورة التي لم يراها^(١) قبل هذه المرة فضلاً عن أن الإستحكامات التي أقيمت على عجل لم تكن كافية لمقاومة المصريين ومعلوم أن المهاجم يكون دائماً أشد من المدافع خصوصاً لو كان المهاجم أكثر انتظاماً من مقاومه.

كل هذه أمور أوقعت الضباط الألمان في حيرة عظيمة لتخوفهم، إن لم نقل لتحققهم من فوز المصريين، وفي يوم ٢٣ يونيو سنة ١٨٣٩ توفيت الحاتون الإنكليزية (ليدى ستاهوب)^(٢) التي كانت من ألد اعداء الحكومة المصرية في

(١) في الأصل (لم يروها) المحرور.

(٢) هي امرأة إنكليزية شريفة ذات لموار غربية ولدت في لندن تحت المملكة الإنكليزية في ١٢ مارش سنة ١٧٧٦ وتوفيت في (جون) من جبل لبنان في ٢٣ يونيو سنة ١٨٣٩ وكلفت بكر أولاد (كارلوس) ثالث لولات (ستاهوب) من زوجها (استير) ابنة (وليم بت أول شتام) وزير فكتلرا لشهير وبقيت عنده إلى أن ماتت سنة ١٨٠٦ فوصى عليها الأمة الإنكليزية فعينت لها مربيًا سنويًا قدره ١٢٠٠ ليرة إنكليزية وبعد قليل تركت فكتلرا وطافت أوروبا ولم ترغب في الزواج مع ما لها من الجمال والبهاء وبعد أن طافت أوروبا سافرت إلى استنبول ثم قصدت بر الشام فوصلت للاتفية بعد أخطار عظيمة لحلفت بها أثناء سفرها ونجت منها بإذن الله وبعد ما تطمت لمة العرب وعقدتهم عزمت على الطواف والجلول في الأماكن التي يمر وصول الإفرنج إليها فشككت ثقلة وحملت هدايا نفيسة إلى البندو فرارت شهر مدن الشام ثم وصلت مدينة تدمر فاجتمع عليها كثير من قبائل البندو فأعجبهم جمالها ولطنتها وشبهوها بزينوبيا الرومانية ملكة تدمر واشتهر عليها من ذلك الحين هذا القالب الذي تعرف هي به في كتب الإفرنج ثم في سنة ١٨١٣ استوطنت في دير على مسافة ساعة من مدينة صيدا وبنت به لها ولحقها معها بيوتا على لشكل القصر في وكلفت دقما تلبس لبس أمير شرقي وتتخذ السلاح وكان لها عائلات مع الباب العالي ولها ولدان ومشايق البندو في بر لرى الشام وبغداد ولجزيرة ثم انتقلت إلى

بلاد الشام وكثيراً ما ألفت الدسائس وفرت المال والسلاح على سكان الجبل
خاربة المصريين، اختطفها أيدي المنون قبل أن تشاهد انتصار المصريين في واقعة
نصيبين وعلى أى حال لو لم تمت في تلك الليلة لما تم في اليوم التالي مما كان
يصيبها من الحزن والكدر لعدم نوالها بغيتها القلبية وهي انخزال المصريين في
ساحة الوغى الأمر الذي صرفت لأجله ما لها وحياتها، فأتت غير مأسوف عليها
من المصريين ونصرانهم، هذا وما زاد في تخوف الضباط الألمان ما كان للجيش
المصرى على العثماني من المميزات منها أن الجيش المصرى لم يكن مؤلفاً إلا من
جنس واحد وهو الجنس المصرى وجميعهم مدربون على الأعمال الحربية وعلى
النظام الأوربي ما عدا بعضاً من العرب الهنأدى وكان جميع ضباطه حائزين رتبهم
بالإستحقاق والأهلية والكل واثقون برئيسهم إبراهيم باشا لما نالوه من النصر
أكثر من مرة تحت قيادته.

تلك صفات كانت معدومة من الجيش التركى لأنه كان مؤلفاً من ترك
وأكراد وغيرهم من الأمم المكونة للدولة العثمانية وليس بينهم وحدة جنسية
ترتبط بعضهم ببعض وأغلبهم غير منتظم والمنتظم منهم لم يكن مستعداً للقتال
استعداداً كافياً لمقاومة جيش منتظم كالجيش المصرى وأما ضباطه فأكثرهم إن لم

يبت مرتفع بالقرب من قرية (جون) بلذنان وحصنته بأسوار منيعة لتكون في ملأ من طوارق الزمان لا سيما
وأن الأهالي نفروا منها لما تلاقست ثروتها ولم يمكنها أن توصلهم بالهدايا كما كانت تفعل قبل ولذنت من ذلك
العهد في التدخل في الأمور السياسية وكان لها نفوذ عظيم بين قبائل البادية حتى إنه لما عزم إبراهيم باشا في
فتح سورية اضططره الأمر أن يطلب إليها أن تكون على الحيل ويقل أنه بعد سقوط مدينة عكا في أيدي
المصريين لوى إليها كثير من الفارين وكانت تتعاطى للتجسس وتتخذ صحة ما يجرى به مع غلبة ذلك وإجماع
الطعام على هدمه وفي المئين الأخيرة من حياتها لما بلغ أهلها في اكتظاظ ما كان من أسرها وسيرها في غير
الطريق الحصن وتدخلها فيما لا يحقها قطعوا عنها العمل فكثرت عليها الديون لأنها لم تقبل شئ من مصر وفاتها
وبقيت مدة وحدها بعد أن مات من صحبها من الإفرنج بدون كتب ولا جرد ولا رسائل من أوروبا ولم يكن
عندها صديق يولئها ولا أيسر يوزقها ولا سمير يسامرها ولا جليس يجالسها بل بقي لها فقط جماعة من
الحواري والعبيد المود وبضعة فلاحين موريين يعتنون ببيتها وخبيلها ويحفظونها من الطوارق ولما كثرت
ديونها اعتراها مرض عضال قضت به نهجها ولم يكن عندها أحد من الإفرنج يل لحاظ بها جماعة من خدنها
وعند وفاتها حضر قصص الإنكليز في بيروت ومعه أحد الصيغيين الأمريكيتين لدفعها دفنت في البستان
المجاور لأدارها وقصارى فكلم فيها حصلت بأصلها على شهرة عظيمة في الشرق ونقلت أوروبا كلها وكان
الأهلى عموماً يسمونها بالمت الإنكليزية وقد روى عنها قصص غريبة كثيرة تكاد تكون من الخرافات فضلاً
عن أنها لا يوق بها وقد زارها كثير من السفاحين الأوربيين وكان من جعلتهم الشاعر الفرنسي الشهير
(دي لامارتين) ذو المروية العالية والمعرفة السامية سنة ١٨٣٢.

يكن كلهم لم ينالوا وظائفهم بالاستحقاق والأهلية فضلاً عما لحقهم من الإغرام أمام الجيوش المصرية في واقعة (قونية) كما سبق ذلك في بابه. وفي ليلة ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ أراد حافظ باشا أن يهاجم المصريين تحت جناح الظلام طمعاً في أن يوقع القتل بينهم لكنه لم يتم له مقصوده لأنه بعد أن ألقى بين خيام المصريين قليلاً من القل، انتبهوا من رقادهم فلم يكن إلا قليل حتى صدوا مهاجمة الترك وألزمهم بالرجوع إلى معسكرهم فعادوا منهزمين بعد أن خضبوا الأرض بدمائهم وملأوا الأودية بأجسامهم ولم يقتل من المصريين إلا الدور اليسر وكان المجروح منهم قليلاً، وحدث في هذه الواقعة أن بعض الشاميين هربوا من الجيش المصري وألتجأوا إلى العسكر العثماني وحاربوا معهم في صفوفهم وكذلك أوردت من ألى الحرس الثالث أريدنا الإنضمام للترك فلحقهما إبراهيم باشا في سرهما وأعادهما إلى مركزهما ولم يرغب مجازاة شديدة خوفاً من تدمير باقى الشاميين في هذا الوقت الذى يلزم فيه أن يكون الجيش كله قلباً واحداً فقبل اعتذارهم بأنهم ضلوا عن السيل في أثناء الحرب، واكتفى بتغير ضباطهم بأخرين ممن يثق بهم واستمر الجيش بقية ليلة يتأهب للقتال لتصميم إبراهيم باشا على مهاجمة الأتراك في يوم ٢٤ يونيه.

وفي صبيحة هذا اليوم المشهود طلع إبراهيم باشا وقليل من المنادى لإستكشاف مواقع الترك ليهاجمهم في موقع الضعف فتحقق له أنه لا يمكنه مهاجمتهم من الجناح الأيمن لإرتكازه على أخوار عميقة لا يمكنه إجتيازها تحت نيرانهم ولا من الوسط أيضاً لما أقامه الترك من المعقل عند تغير وجهتهم وموقع الضعف هو الجناح الأيسر لعدم وجود موانع طبيعية أو صناعية تمنع تقدمهم إلا بعض أشجار من الزيتون متباعدة عن بعضها بحيث يتسر المرور من بينها ولما كان إبراهيم باشا معسكراً بين الجيش التركى والقرات أى أمام جناحه الأيمن، فلمهاجمة الجناح الأيسر لزمه أن يمر بكل جيشه أمام جيش الترك إلى أن يصل إلى الجناح الأيسر ولا يخفى ما في مثل هذه الحركة من الخطر لأنه لو هاجمه الأتراك في أثناء مروره لوقع القتل في صفوف المصريين وكان الفوز للعثمانيين

لكن أهمل حافظ باشا أن يأخذ بالرأى السديد وهو مهاجمته للمصريين أثناء سيرهم أمامه فلم يبد حراكاً بل اتبع رأى من كان معه من الضباط الأتراك المخالفين لرأى أركان الحرب الألمانين.

ولما اقترب الجيش المصرى من الجناح الأيسر لمح إبراهيم باشا هضبة مرتفعة مشرفة على مواقع الترك ولم يحتلوها فأمر في الحال سليمان باشا باحتلالها، فركض سليمان باشا بجواره وتبعه السوارى والطوبجية الراكبة وسار الكل مسرعين نحو هذه الهضبة التى كان احتلالها من أكبر دواعى انتصار المصريين، وعند ذلك انتبه الأتراك من غفلتهم واستيقظوا من نومتهم لما رأوا اتجاه المصريين نحوها وأدركوا أهميتها فأرسلوا عدة آليات من سواريهم قصد احتلالها وإبعاد المصريين عنها ولكن لحسن حظ المصريين كان سليمان باشا قد احتلها مع عسكره قبل وصول الأتراك، فلما وصلوا إليه أرسل عليهم نيرانه وألزمهم العودة منهزمين.

ولما وصل الجيش المصرى بتمامه إلى الجناح الأيسر لم ينتظر إبراهيم باشا تجمع العسكر المعين للهجوم، بل هجم مع قليل من الجند على الجيش التركى ليكون أول من دخل معاقليهم واحتل حصونهم ولكن لما كان المصريون المهاجمون قليلين والجيش التركى كثيراً وناره قوية وقع الرعب فى قلوب المهاجمين وامتنعوا عن التقدم ومازال إبراهيم باشا يهددهم ويختمهم على الإقدام فلم يقبلوا بل قتلوا عاتدين. وكانت هذه أول مرة تقهقر فيها المصريون أمام الأتراك ولا لوم عليهم فى ذلك بل على قائدهم حيث لم يتأن وخاطر بحياته وجنده حياً فى نزال الشرف، ولما رأى سليمان باشا تقهقر الجند صوب عليهم نيران مدافعه حتى ألزمهم التقدم إلى الأمام مفضلين الموت مع الشرف على الحياة مع الخزى والتلف خصوصاً إذا كان الموت محققاً فى كلتا الحالتين، وبذلك تمكن إبراهيم باشا من أن يحارب ويناضل إلى أن وصل الجيش بأجمعه واشترك مع المقدمة فى الهجوم ولما اشتدت نار الوغى تزعزع الجناح الأيسر العثمانى وأخذ فى التقهقر

وابتداء الأكراد بالهرب، ولم يلبث باقى الجيش أن حذا حذوهم وولى الكل الأدبار والتجؤا إلى الفرار وقتل في هذه المعركة خالد باشا أحد قواد الدولة العلية المشهورين وأركان حربه المدعو إبراهيم بك الذى تخرج في مدارس فرنسا الحربية لأتهما لم يتركا مكافهما حتى قتلا.

وأما الضباط الألمانىون وحافظ باشا ومن معهم من بقية الجيش فتقهقروا على غير نظام مسرعين بالفرار إلى مدينة مرعش، فعند ذلك اقتفى المصريون أثرهم وأبلوا فيهم بلاء حسناً ثم عادوا إلى المعسكر التركى فوجدوه على حالته حتى أن بعض الضباط الألمانىين ومنهم البارون (دى مولتك) تركوا ملاسهم وأوراقهم وغنم المصريون كل ما فى المعسكر من خيم ومؤن وذخائر ومن المدافع ١٦٦ ومن البنادق ٢٠ ألف وقتل في هذه الوقعة ٤٠٠٠ عثمانى ومن المصرين كذلك تقريباً، لكن قتل المصريون من الأتراك في حال تبعهم لهم ما يبلغ خمسة أسداسهم فقد قال البارون (دى مولتك) في كتابه على الشرق أن فرقة بكير باشا التى كان يبلغ عددها ٥٥٠٠ لم يبق منها إلا ٣٥٠ نفساً وأن فرقة محمود باشا لم يبق منها إلا ٧٥ نفساً وأما السوارى فلم يقتل منهم إلا القليل لأنهم بادروا بالهرب ابتداء، فأرسل إبراهيم باشا لوالده يشره بهذا الفوز العظيم الذى خلص مصر وأنقذها من التهديدات التى كانت تتوارد عليها ومما زادها شرفاً أنها قاومت رجال الدولة العلية.

ولا يخفى ما ترتب على هذا النصر من الفوائد الجمعة كتوطيد ملك محمد على باشا في بلاد الشام وبلاد الجزيرة وإيقاع الرعب في قلوب سكان تلك الجهات الذين كفوا عن إثارة الحواطر وبث الدسائس لتحقيقهم عدم قيام الدولة العلية بمساعدتهم، وكان عقب هذه الواقعة موت السلطان محمود خان الشان فتوفى في يوم ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ الموافق أول يوليو سنة ١٨٣٩.

ولما مات وحضر الأطباء لتشخيص مرضه الذى كان سبباً لموته اختلفت آراؤهم فيه فتمتهم من قال أنه توفى بداء السل الرنوى ومنهم من قال أن موته

منسب عن اضطراب عصبي ومنهم من قال غير ذلك، وكان له من العمر أربع وخمسون سنة ومكثت خلافته إحدى وثلاثين سنة، وخلفه على الملك بعده ولده السلطان عبد المجيد خان الأول وكان عمره إذ ذاك ١٧ سنة. هذا وبعد أن أتاح الله النصر لإبراهيم باشا توجه بنفسه للإستيلاء على المعسكر المحصن الذي كان قد أقامه الأتراك في (بلا جيك) على ضفة القرات اليمنى ووجه قواده لاحتلال ملطية وقونية ثم سافر في ٢٧ الشهر ليحتل مدينة (عين تاب) السقى فتحت أبوابها للأتراك، فوصلها وبعد أن احتلها بدون مقاومة وعفا عن مشايخها سافر إلى مدينة قيصريّة ليريح عساكره ويتقدم بلاد الأناضول.

وفي ٢٩ منه وصل إليه الموسيو (كابي) وكان قد أرسله المارشال (سولت) وزير فرنسا الأول إلى محمد على باشا ونجّله إبراهيم باشا ليخبرهما بأن أوروبا جميعها حتى فرنسا عازمة على منع القتال بينه وبين الباب العالي وحسم الخلاف الواقع بينهما بالطرق الحبية السلمية وكان سفره من باريس في ٢٨ مايو سنة ١٨٣٩ ووصله إلى الإسكندرية في ١٣ يونيو فقابل محمد على باشا وأخبره بالمأمورية التي كُلف بها وطلب منه أمراً لولده إبراهيم باشا بعدم الإبتداء بالحرب وعدم اجتياز جبل (طوروس) لو حصل الحرب قهراً عنه وانتصر هو فيه، فأجاب إلى ذلك محمد على باشا ظاناً أن فرنسا كما أنها تلزمه بعدم الحرب لابتدأ أن تساعد له لو تعذّى الباب العالي عليه وأعطى الموسيو (كابي) الجواب المطلوب فسافر إلى اسكندرونة ومنها إلى حلب مستشيراً بنجاح مأموريته ولكن لسوء حظه لما وصل حلب بلغه خبر انتصار إبراهيم باشا في (نصيبين) فسافر لوقته إلى هذه الجهة ليمنعه عن اجتياز جبل (طوروس) فلم يجده فيها فاستفهم عنه فقيل له أنه قام لتتميم انتصاره باحتلال مضائق الجبل وأنه وجه قواده للإستيلاء على مدينتي (قونية) و(ملطية) الواقعتين فيما وراء الجبل.

فحار الموسيو (كابي) في أمره وأيقن بتداخل الدول وخصوصاً الروميا وانكسرتا والنمسا لصدد إبراهيم باشا عن أملاك الدولة العلية لو قصد التقدم إلى

مركز الخلافة العظمى، قطار بجناح السرعة إلى (قيصرية) فقابل إبراهيم باشا أمامها وفتحها بما أرسل لأجله من إيقاف سير العساكر المصرية نحو الأناضول فاستشاط الباشا غيظاً وقال إن هذا الأمر مستحيل وكيف يجوز لقائد حائز على النصر والغلبة أن يقف بطريقة ولا يتم انتصاره لكن تيسر للموسيو (كابى) أن يصلة إبراهيم باشا عن مشروعه ويقنعه بعدم استمرار القتال ومنعه من التقدم إلى بلاد الأناضول فوعده بعدم احتلال مدينة (قونية) ولم ينسحب عن احتلال (ملطية) وما جاورها من البلاد قاتلاً أن احتلال هذه المدينة ضرورى لحفظ بلاد الشام من هجمات الأعداء.

فلم يقبل الموسيو (كابى) ذلك بل أظهر لإبراهيم باشا ضرورة عدم الخروج عن حدود الشام خوفاً من أن تعتبر الدول الأوروبية ذلك تعدياً على أملاك الباب العالي وتتدخل بينهما وربما أجبرته بالقوة على الرجوع وأن الجواب المرسل إليه من والده يمنعه عن اجتياز جبال (طوروس) فلم يدعن إبراهيم باشا لذلك بل عزم في نفسه على احتلال ملطية وأمر جيشه بالنهض للسفر، ولكن لم يلبث الموسيو (كابى) أن عاود الكرة وألح عليه بالتنازل عن هذا المشروع لما يترتب عليه من الضرر وبعد التيا^(١) والتي قبل إبراهيم باشا ذلك وأصدر أوامره إلى قواته بذلك واكفى باحتلال مدينتي مرعش وأورفة.

تسليم قبطان باشا الدوناغة التركية إلى محمد على باشا:
وقد حدثت في خلال ذلك مسألة هيجت الخواطر في أوروبا وهي أن أحمد باشا قيودان الدوناغة التركية سافر إلى الإسكندرية وسلم الدوناغة المذكورة برجلها ومدافعها إلى محمد على باشا وذلك أنه في أثناء شهر يوليو سنة ١٨٣٩ صدرت الأوامر من قبل إلهذه الدوناغة قبيل واقعة (تصيين) بالخروج من بوغاز الدردانيل قصد محاربة الدوناغة المصرية، لكن كانت كل من فرنسا وانكلترا

(١) هكذا في الاصل (المحور).

أرسلت دونائة من طرفها لمنع انتشار الحرب بين الدوناغتين التركية والمصرية ولذلك لم يحصل بينهما قتال.

ولما تولى السلطان عبد المجيد أراد أن يحسم الخلاف بينه وبين محمد علي باشا بالطرق السلمية لما تراءى له من أن ذلك أولى من استمرار القتال وسفك دم العباد فعين من يدعى عاكف أفندي للسفر إلى مصر للإتفاق على هدنة معينة يمكن في خلالها إجراء المخابرات والإتفاق على طريقة مرضية للطرفين، وكلف عاكف أفندي المذكور، أن يأمر أحمد باشا قيودان بالرجوع إلى القسطنطينية فلما انتهى هذا الخبر إلى أحمد باشا وكان قد علم بموت السلطان محمود وتعيين خسرو باشا صدراً أعظم ظن أن استدعائه إلى إسلامبول لم يكن إلا لعزله أو لقتله لما بينه وبين خسرو باشا من الضغائن ولعدم وجود من يدافع عنه، لموت السلطان محمود حيث كان محبه وصديقه الوحيد، فصفا إلى ما وسوس له به وكيله المدعو عثمان باشا الإلتجاء إلى محمد علي باشا وتسليمه الدوناغة.

وفي يوم ١٤ يوليو سنة ١٨٣٩ أقطع بمراكبه وخرج من الدردانيل قاصداً نهر الإسكندرية فشاهده الأميرال (لالاند) إذ كان بمراكبه موجوداً بالقرب من البوغاز المذكور ولكن لما كانت أوامره لا تبيح له التعرض لها في سيرها بل منع القتال فقط، اكفى الأميرال الفرنساوى باتباعها ومراقبتها حتى إذا أرادت القتال منعها طوعاً أو كرهاً وفي أثناء السير اقتربت منه بارجة عثمانية تقتل عثمان باشا وأشارت إليه بالإشارات البحرية أنه يريد الإجتماع بالأميرال فقول الأميرال بنفسه إلى البارحة ووجد عثمان باشا في انتظاره وبعد أن تحادثا ملياً عن موت السلطان محمود قال له عثمان باشا إن موته لم يكن عادياً بل هو ناشئ عن دسائس خسرو باشا و خليل باشا صهر السلطان، ولذلك قد عزم هو وأحمد باشا قيودان على السفر إلى جزيرة (كريد) للمخاطبة مع حافظ باشا قائد الجيوش البرية في الأناضول ومع محمد علي باشا وإلى مصر لإبرام تحالف بينهم على طرد الصدر الأعظم خسرو باشا وشيعته وتولية مهام الدولة إلى من يوثق

به من الرجال، فحصل للأميرال (لالاند) من هذا الكلام دهشة وتوجس خيفة من سوء عاقبة هذا المشروع ونتائجه الوخيمة فبذل جهده في إرجاعه عنه.

ولما لم يجد منه أذناً صاغية وكانت الأوامر المرسلة إليه من حكومته لا تبيح له منعه نصحه بأن يسافر إلى جزيرة (رودس) التابعة للدولة العلية لأن جزيرة (كريد) كانت إذ ذاك تابعة لمصر ولا يجوز له أن يذهب لها فوعده عثمان باشا بذلك وأقلع إلى جهة الجنوب فظن الأميرال (لالاند) أنه مسافر إلى (رودس) ولذلك كف عن مراقبته وأرسل سفينة واحدة لمرافقته. وفي الحال أيضاً أرسل أحد ضباطه إلى إسلامبول لتبليغ سفير فرنسا ما حصل فوصل هذا الضابط في ٧ يونيو وأخبر السفير بسفر الدوناغة إلى جزيرة (رودس) كما كان يظن الأميرال (لالاند) فأخبر السفير في الحال الباب العالي لأخذ الاحتياطات اللازمة وكذلك أخبر باقي السفراء ثم بعد هذا بقليل وصلهم خبر وصول الدوناغة المذكورة إلى الإسكندرية فكان له تأثير مكنر بين رؤساء الدولة وسفراء الدول ذات الشأن لأن الدولة العلية بهذه الكيفية لا تنق بأحد من قوادها فكانها لا جيش ولا دوناغة لها.

فأرسلت الدول إلى قناصلها بالإسكندرية لتطلب من محمد علي باشا إرجاع المراكب للدولة منعا لما عساه يحصل من إكراه الدول له على ذلك وألح عليه قنصل فرنسا كثيراً فلم يصغ لنصائحهم بل عزم على أن لا يردها للدولة مما لم تمنحه ولاية مصر وولايات الشام وآسيا الصغرى، التي احتلها بعساكره وتكون له ولذريته من بعده، وتضمن له الدولة ذلك وتعزل خسرو باشا من منصب الصدارة، وفي يوم ٢٤ يوليو عاد إلى القسطنطينية عاكف أفندي الذي كان قد أرسل لمصر لايقات تقدم الجيوش المصرية ومعه رسالة من محمد علي باشا يقول فيها أنه كتب لولده إبراهيم باشا بأن يقف بالنقط التي هو بها إلى أن تصدر له أوامر جديدة وأنه لم يزل مصرأ على عدم قبول الصلح والطاعة للباب العالي إلا إذا منحه وذريته من بعده الولايات التي احتلها، وكيف يقبل خلاف ذلك

وساريم أفندي المندوب الأول للباب العالي كان قد عرض عليه ملك مصر
وولايقي صيدا وطرابلس؟

تداخل الدول:

في يوم ٢٧ من يوليو اجتمع وزراء الدول ليتداولوا فيما يلزم إتباعه في
المسألة المصرية منعاً لإبراهيم باشا من الزحف على القسطنطينية، ولتداخل
الروسيا، لاسيما وأنه لا جيش للدولة لا برّاً ولا بحراً فقر رأيهم على إعطاء
محمد على باشا مصر والشام ما عدا قسم (أطنه) وبلاد العرب بشرط أن يكون
للباب العالي حق الاحتلال وإدارة كل من دمشق و(أوريشلم) ومكة والمدينة
وأن يدفع والى مصر خراجاً سنوياً قدره ثلاثون مليوناً قرشاً تركيا (ساوى
لثمالة ألف جنيه مصرى تقريباً) وقرروا أيضاً أن يرسل إليه مندوبون لتبليغه
هذا القرار لكن قبل سفر هؤلاء المندوبين أرسل سفراء الدول إلى الباب العالي
لائحة مشتركة^(١) بتاريخ ٢٨ يولييه مضمونة من سفراء فرنسا وانكلترا والنمسا
والروسيا وبروسيا يطلبون منه أن لا يقرر شيئاً في أمر المسألة المصرية إلا
بإطلاعهم واتحادهم وأنهم مستعدون للتوسط بينه وبين محمد على باشا لحل هذه
المسألة المهمة فأضطر الباب العالي أن يقبل هذا التداخل وأرسل إلى السفراء
يخبرهم أنه أوقف سفر المندوبين.

وكان الراغب أولاً في هذه اللائحة المسمى (دى مترنيخ) وزير النمسا الأول
أكبر ساسة عصره ليضع الدولة العلية تحت حماية الدول العظام أجمع، فعرض ما
بداله على وزارات باقى الدول فوقع لديهم موقع الإستحسان والقبول حتى
الروسيا نفسها، خوفاً من اتفاق باقى الدول ضدها وحماية الدولة العلية بالقوة
كما حصل في حرب القرم سنة ١٨٥٣.

فاجتمع سفراء الدول أوّل اجتماع عند الصدر الأعظم في ٣٠ يوليو سنة
١٨٣٩ وتداولوا فيما يجب إعطاؤه محمد على باشا فأبدى سفيراً انكلترا

(١) في الأصل (اقتراحية) للحرر.

والنمسا ضرورة إرجاع الشام للدولة العلية وعارضهم في هذا الرأي سفيراً فرنسا والروسيا وطلباً أن يمنح محمد علي باشا ملك مصر وولايات الشام الأربع لكن انحاز سفير البروسيا إلى الرأي الأول فقرر بالأغلبية، ثم طلب الموسيو (دى مترنيخ) أن يعقد مؤتمر دولي في مدينة (فيينا) أو (لوندرة) لإتمام المداولات بشأن المسألة المصرية فلم يقبل منه ذلك عند الكل سيما فرنسا وانكلترا فلم يقبلا ذلك ولم يملا هذا الطلب لعدم ثقتهم بالمسيو (دى مترنيخ)، وكذلك الروسية لم تقبل تحويل مؤتمر دولي لتحديد علاقاتها مع الباب العالي بل أعلنت أنها مصرة على التمسك بنصوص معاهدة (انكارا سكه سى) وهى حماية الدولة بعساكرها ومراكبها، وبالتالي احتلال معظم أملاكها بدون حرب لو تعدى إبراهيم باشا حدود الشام.

فعند ذلك طلبت كل من فرنسا وانكلترا من الباب العالي التصريح لمراكبها بالمرور من بوغاز الدردنيل لحمايته عند الضرورة من الروسية ومن العساكر المصرية وجاء الأميرال (ستوبفورد) بنفسه إلى القسطنطينية للحصول على هذا التصريح ولما علم باقى السفراء بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول شقاق بين الدول المتوسطة وأعلن سفير الروسية بأنه إذا دخلت المراكب الفرنسية والإنكليزية البوغاز يقطع علاقاته السياسية مع الباب العالي ويسافر في الحال وكانت حكومته أرسلت له مركباً حريباً ليسافر عليها إذا اقتضى الحال ذلك، وكبت النمسا إلى وزارتي (لوندرة) و(باريس) بأن طلبها هذا محل يسلم أوربا وأنها لو أضرا عليه تخرج من التحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل. فلما علم الباب العالي بذلك خاف من تفاقم الخطب ورفض طلب حكومتى فرنسا وانكلترا وطلب منهما إبعاد مراكبهما عن مدخل البوغاز.

فلهذه الأسباب وعدم الاتفاق بين وزراء الدول توقفت المخابرات إلى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٣٩ حتى عرض اللورد (بونسونى) سفير انكلترا لدى الباب العالي أن دولته مستعدة لإكراه محمد علي باشا على رد الدونامة التركية

بشرط أن يكون لها حق إدخال مراكبها إلى خليج إسلامبول لصدد روسيا عند الضرورة، فلما علمت بذلك حكومة فرنسا أرسلت إلى الأدميرال (لالاند) قائد أسطولها في مياه تركيا أمراً بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩ أنه لا يشترك مع مراكب انكلترا في أى حركة عدوانية ضد حكومة محمد علي باشا فعلم الكل أنه لابد من حصول خلاف بين فرنسا وانكلترا بخصوص المسألة المصرية وأخذت الدول حذرهما لما عساه يحصل من الأمور التي تنشأ بسبب هذا الخلاف، فأعلنت النمسا بأنها لا ترغب التدخل لعدم نجاح طلبها المختص بانعقاد مؤتمر دولي في فيينا أو برلين وأعلنت بروسيا والروسيا بأنهما يقبلان كل ما تقرره الدول في هذا الشأن بشرط أن يكون موافقاً لرغبة الباب العالي وأن يكون قبله لهذا القرار صادراً عن كمال الحرية التامة فكان الدول قبلت ما تفق عليه فرنسا وانكلترا بالاتحاد مع الباب العالي، ولكن لم يتم الاتفاق بين هاتين الدولتين لسعي انكلترا في إرجاع المصريين إلى حدودهم الأصلية وعدم قبول فرنسا ذلك رغبة في مساعدة محمد علي باشا.

وذلك أن فرنسا كانت تود أن تكون ولايتا مصر والشام له ولذريته وإقليميا أطنة وطرسوس له مدة حياته، وأما انكلترا فكانت لا تريد أن يعطى إلا ولاية مصر لكن رغبة في إرضاء فرنسا قبلت أن يعطى مدة حياته نصف بلاد الشام الجنوبي بشرط أن لا تكون مدينة عكا من هذا النصف، فرفضت فرنسا هذا الاقتراح وقالت كيف نجرده من كل فتوحاته خصوصاً بعد أن قهر الجيوش العثمانية في واقعة (نصيبين) وأتانا لو جردناه منها لتركنا له باباً للحرب مرة أخرى وهو أمر لا تكون عاقبته حسنة لأن هذا شئ يوجب تدخّل حكومة روسيا في أمر الدولة العلية بمقتضى العهودات، ولا تكون نتيجة ذلك إلا حرباً عامة فالأولى منعاً لسفك دماء العباد أن تعطى محمد علي باشا البلاد التي فتحها، لأنه أقوم بإدارتها وأحق بما لما تكبده من المشاق الصعبة والمصاريف الزائدة وبذل الأرواح، ولما علمت الدول بوقوع الخلاف بين فرنسا وانكلترا

أعلنت النمسا وبروسيا رسمياً أنهما يتحازان إلى إحدى الدولتين السقي لا تحرم الدولة من أملاكها، وبعبارة أخرى إلى انكلترا.

وأما روسيا فأرادت أن تتنهنز فرصة عدم اتحاد الدولتين لتقرير نفوذها في الشرق وحق حمايتها للدولة العلية دون غيرها وأرسلت إلى لوندرة البارون (دى برونو) بصفة سفير فوق العادة فوصلها في أواخر سبتمبر سنة ٣٩ وعرض على حكومته بالنيابة عن قيصره أن روسيا مستعدة لأن تترك لانكلترا حرية العمل في مصر وتساعد على إذلال محمد علي باشا بشرط أن تسمح لها بإنزال جيش بالقرب من إسلامبول في مدينة (سينوب) الواقعة على شاطئ البحر الأسود بير الأناضول لكي يتيسر لها إسعاف الباب العالي لو أراد إبراهيم باشا الزحف على القسطنطينية، فصاغ اللورد (المستون) إلى كلام سفير روسيا ومال إلى هذا الرأي ميلاً شديداً ولولا استقباح الرأي العام له لقبله كل القبول وسلمه كل التسليم، لكنه لما رأى عدم موافقة الرأي العام لهذا المشروع اقترح على روسيا أن تعلن أولاً بتنازلها عما تخوله لها معاهدة (انكارا سكله سى) من حق حماية الدولة العلية فرفضت روسيا ذلك وأجلت المخابرات بشأن تسوية المسألة المصرية إلى شهر يوليو سنة ١٨٤٠ لعدم اتفاق الدول على حالة مرضية لكل والية بغرض الجميع ولتباينهم في الغايات والمقاصد.

وفي خلال هذه المدة أرسلت روسيا المسيو (برونو) ثانية إلى (لوندرة) ليطالب تعديل المشروع الأول، بأن يتحول لكل من انكلترا وفرنسا الحق في إرسال ثلاث سفن حربية في بحر (مزمرة) للإشتراك مع الجيش الروسى في حماية إسلامبول لو هاجمها إبراهيم باشا فلم تفز روسيا بمرامها في هذه المرة أيضاً، هذا ولما علم محمد علي باشا بهذه المخابرات وتحقق أن الدول الأوروبية عموماً وانكلترا خصوصاً ساعون في إرجاع جيوشه إلى مصر وجبره على رد كل ما فتحه من البلاد، وأن فرنسا لا يمكنها مساعدته، فضلاً عن تعصب باقي أوروبا ومضادتها بأجمعها له أخذ في الاستعداد لصدة القوة بالقوة بحيث لا يسلم

شيراً من الأرض التي صرف ماله ورجاله في فتحها إلا مضطراً وكلف سليمان باشا بتفقد سواحل الشام وتحصينها بقلدر الإمكان سيما مدينتي (عكا) و(بيروت) وأمر بتعليم كافة الأهالي جميع الحركات العسكرية وحمل السلاح، لكي يسهل له حفظ الأمن الداخلي بواسطتهم وصد المهاجمين بواسطة الجيش المدرب على الحرب، ولزيادة جيشه استدعى من الأقطار الحجازية والنجديّة الجيوش المصرية المحتلة لها وأخذ أيضاً في توفير الأموال من بعض وجوه مصاريقها وأطلق سراح محمد ابن عون شريف مكة الذي كان قد ألزمه الإقامة بمصر من مدة. وبالجملة تخلى عن بلاد العرب وتركها هملّاً كما كانت لإحتياجه إلى المال والرجال لأنها كانت تكلفه سنوياً مبلغاً وقدره ٧٠٠٠٠٠ جنيه مصري تقريباً بلا فائدة، ثم أرسل جزءاً عظيماً من العساكر الواردة من بلاد العرب إلى الشام للإستعداد لكل طارئ يطرأ وأرسل إلى ولده إبراهيم باشا الأوامر المشددة بأن يجتهد في إطفاء كل ثورة جزئية يبيدها سكان الجبل من أى طائفة خوفاً من اشتداد الخطب في الداخل حين الإحتياج للإنتباه لما يأتي من الخارج.

ثم في أوائل سنة ١٨٤٠ عاودت النمسا الكرة وطلبت من الدول اجتماع مؤتمر في مدينة فيينا لتسوية هذه المسألة التي أقلقّت بال الجميع فقبلت الدول عقده في مدينة لوندرة، لا فيينا، وطلبت فرنسا أن يكون للباب العالي مندوب خصوصي في هذا المؤتمر مراعاة له لكونه له السيادة العظمى على البلاد المتنازع بخصوصها.

فلما اجتمع هذا المؤتمر طلبت فرنسا إبقاء الشام كلها تحت يد محمد علي باشا، فعارضتها الحكومة الإنكليزية في ذلك وأصرت على ما طلبته أولاً وهو أنه لا يعطى له إلا النصف الجنوبي منها لكنها قبلت أخيراً بناء على إلحاح فرنسا إدخال عكا ضمن هذا القسم بشرط أن تكون له مدة حياته فقط ولا تنتقل إلى ورثته بعد موته بل تعود إلى الدولة العلية، وطلبت روسيا والنمسا والبروسيا

۱- معاہدۃ ۱۵ یولیو سنۃ ۱۸۴۰

فلما علم اللورد بالمستون ہذہ المخاہرات حقن علی الحکومتہ الفرنساویۃ وبذل جہدہ فی الإتفاق مع الروسیا وبروسیا والنمسا لإرجاع محمد علی باشا إلی حدود مصر والزامہ بالقوۃ إن لم یطع، ولقد نجح بالمستون فی مسعاہ وأمضی بتاريخ ۱۵ یولیو سنۃ ۱۸۴۰ مع من ذکر من الدول معاہدۃ صدق علیہا مندوب الدولۃ العلیۃ مقتضاہا (أولاً) أن یلزم محمد علی بإرجاع ما فتحہ للدولۃ العلیۃ ویحفظ لنفسہ الجزء الجنوبی من الشام مع عدم دخول مدینۃ (عکّا) فی ہذا القسم (ثانیاً) أن یکون لإنکلترا الحق بالإتفاق مع النمسا فی محاصرۃ فرض الشام ومساعدۃ کل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعۃ المصرین والرجوع إلی الدولۃ العلیۃ وبعبارة أخرى تحریضہم علی العصیان لإشتغال الجیوش المصریۃ فی الداخل کى لا تقوى علی مقاومۃ المركب النمساویۃ والإنکلیزیۃ (ثالثاً) أن یکون لمراکب الروسیا والنمسا وإنکلترا معاً حق الدخول فی البوسفور لوقایۃ القسطنطنیۃ لو تقدمت الجیوش المصریۃ نحوہا. (رابعاً) أن لا یکون لأحد الحق فی الدخول فی میاء البوسفور ما دامت القسطنطنیۃ غیر مہددۃ. (خامساً) یجب علی الدول الموقع مندوبوہم علی ہذا الإتفاق أن تصدق علیہ فی مدۃ لا تزيد عن شہرین بحدیث یکون التصدیق فی مدینۃ لوندرۃ.

وشفعت ہذہ المعاہدۃ بملحق مصدّق علیہ من مندوب الدولۃ العلیۃ مبین فیہ الحقوق والإمتیازات الّتی یمنحہا محمد علی باشا، وقبل إمضاء ہذہ المعاہدۃ ابتدأت انکلترا فی تحریض سكان لبنان من دروز ومارونیۃ ونصیریۃ علی شق عصا الطاعۃ وأرسل اللورد (بونسونی) سفیرہا لدى الباب العالی ترجمانہ المستر وود إلی الشام لہذہ الغایۃ وأعلم بذلك اللورد (بالمستون) برسالۃ تاریخہا ۲۹ یونیو سنۃ ۱۸۴۰ محفوظۃ فی سجلات المملکۃ. وبمجرد وصول المستر وود إلی محل مأموریۃہ أخذ فی نشر ذلك بین الأهالی ولقد نجح فی

مأموريته وأشهر الجبلين العصيان وتجمعوا مسلحين وامتنعوا عن تأدية الخراج والمؤن العسكرية، لكن لم تتسع هذه الثورة الابتدائية لتداركها في أولها فأرسل المدد من مصر، واهتم كل من إبراهيم باشا وسليمان باشا وعباس باشا^(١) في إخمادها فأطفئت قبل أن يتعاطم أمرها وعادت السكينة في كافة الأنحاء.

ومن ثم أخذ سليمان باشا في تحصين مدينة بيروت لعلمه أمّا أول مينا معرضة لمراكب الإنكليز وكذلك بقى القلاع لحماية كل الثغور ووضع بها المدافع الضخمة ولكن لسوء الحظ لم تُجد هذه الإمتحكات نفعاً أمام مراكب الإنكليز والنمسا كما سيحيى.

ولما علمت الحكومة الإنكليزية أن المرحوم محمد على باشا مهتم في إرسال العساكر والدخائر على طريق البحر إلى الشام أرادت أن تعارضه وتعاكسه، أما بأخذ دونائمه أو تشتيتها وتفريقها ليتعذر إرسال المدد برّاً لوجود الصحراء الرملية الفاصلة بين مصر والشام من طريق العريش فأرسلت أوامرها في أوّل شهر يوليو سنة ١٨٤٠ إلى الكومودور (ناير) بأن يتوجه بمراكبه إلى مياه الشام ومصر لإستخلاص الدونامة التركية لو خرجت من ميناء الإسكندرية وأسراو إحراق الدونامة المصرية لو قابلها فلما علمت فرنسا بهذا الخبر أرسلت إحدى بوارجها البخارية إلى بيروت لتبلغ قائد الجيوش المصرية هذا الخبر المشؤم فرجعت في الحال المركب المصرية إلى الإسكندرية حتى إذا وصل الكومودور ناير لم يجدها فاعتاظ لذلك ويقال أنه قبل أن يارح مياه بيروت أرسل إلى سليمان باشا كتابا بتاريخ ١٤ يوليو يظهر له فيه تكرره من إجراءات القواد المصريين في الشام ومعاملتهم الثائرين بالقوة وأنهم أن لم يكفوا عن أعمالهم البربرية اضطر للتدخل وإنزال عساكره إلى بيروت فأجابه سليمان باشا بأنه لا

(١) هو عباس باشا ابن طوسون باشا بن محمد على باشا الكبير ولد في جدة سنة ١٨١٦ حين كان والده بيلاد فعرب لمقتلة لوهابين وتولى على الأريكة المصرية سنة ١٨٤٨ بعد موت صه إبراهيم وقل في ١٤ يوليو سنة ١٨٥٤.

يقبل ملحوظاته ويعلمه بأنه لا يخاطبه من الآن فصاعداً، وإذا كان عنده ملحوظات مثل هذه فليدونها محمد علي باشا.

ولم يتبدئ شهر أغسطس سنة ١٨٤٠ إلا وقد ورد خبر معاهدة ١٥ يوليو إلى مصر والشام ووردت الأوامر إلى الدونامة الإنكليزية بمحاصرة سواحل الشام وأسر المراكب المصرية، حرية كانت أو تجارية، فعاد نابير إلى بيروت بعد أن أخذ في طريقة كل ما قابله من المراكب فوصلها في ١٤ أغسطس، وأعلن العساكر المصرية بإخلاء بيروت وعكاً في أقرب وقت ونشر في أنحاء الشام منشورات لإعلام الأهالي بما قرره الدول من إرجاع الشام لمصر ما عدا عكاً وتحريضهم على العصيان على الحكومة المصرية وإظهار ولائهم للدولة العلية العثمانية.

وفي يوم ١٤ أغسطس بلغ خبر هذه المعاهدة رسمياً إلى محمد علي باشا وأتت إليه بعد ذلك قناصل الدول الأربع المتحدة وعرضوا عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له ولورثته وولاية (عكاً) له مدة حياته وأمهله ١٠ أيام لإعطاء جوابه، فطلب منهم كتابة بذلك فلبوا طلبه، ثم في اليوم التالي أفهموه أن فرنسا لا يمكنها مساعدته قط لتصميم الدول على تنفيذ ما اتفقت عليه ولو أدى ذلك إلى حرب أوربي لكنه أصر على عدم القبول والدفاع عن حقه إلى آخر رمق من حياته. وفي يوم ٢٦ أغسطس الذي هو غاية الميعاد المعطى له حضر إليه القناصل ومعهم مندوب الدولة وأخبروه أنه لا حق له الآن في ولاية (عكاً)، وأن الدول لا تسمح له إلا بولاية مصر فقط له ولزريته فاحتد عليهم غضباً وطردهم من عنده قائلاً لهم كيف يجوز أن أسمح لكم بالمقام في بلادى وأنتم وكلاء أعدائى في هذه الديار، فانصرفوا وأعطوه عشرة أيام آخر لإبداء جوابه بحيث أن لم يجاب تكون الدول غير مسئولة عما يحصل له من الضرر وبعد انقضاء هذه المدة بدون أن يصل إليهم جوابه كتب القناصل بذلك إلى سفراء الدول بإسلاهمول

فاجتمعوا عند الصدر الأعظم وقرروا بإتخاذهم أخذ مصر والشام من محمد على باشا.

وفي أثناء هذه المدة كانت فرنسا، إتباعاً لرأى الميسو تيرس، تستعد للقتال مساعدة لمحمد على باشا ولكن لسوء حظ الأمة المصرية كانت هذه الإستعدادات غير كافية ولا تتم إلا بعد ستة أشهر لعدم وجود السلاح والذخائر الكافية للحرب، لا سيما وأن فرنسا تكون في هذه الحالة مقاومة لأكبر دول أوروبا ولما تحقق أهالي فرنسا أن حكومتهم لا تقوى على مساعدة محمد على باشا فعلا بعد أن جرّأته على المقاومة ووعدته بالمساعدة هاج السراى العام على الميسو تيرس المعضد لهذه السياسة، التي عادت على مصر بالضرر العظيم، حتى التزم بالإستعفاء في يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٤٠ لكن لم يجد استعفاؤه لمصر نفعاً لوقوفها بمفردها أمام أربع دول من أعظم الدول شأناً وأعلام مكانة وأكثرهم قوة إذ أرسلت فرنسا أوامرها للدونائشة أولاً بالانسحاب إلى مياه اليونان ثم بالعودة إلى فرنسا وترك مصر والشام لمراكب انكلترا تحرق موانئها^(١) بمقدونافها الجهنمية وكان رجوع الدونائشة الفرنسية في ٩ أكتوبر سنة ١٨٤٠ أى قبل استعفاء الميسو تيرس بعشرين يوماً.

إطلاق المدافع على موانئ الشام:

هذا ولم تشترك الدول الأربع في محاربة محمد على باشا بل قامت انكلترا وحدها بهذا العمل وساعدتها النمسا والدولة العلية ببعض من مراكبها وعساكرها البرية للزول إلى البر إذا اقتضى الحال ذلك، وأما دولة الروسيا فلم يكن لها مراكب إذ ذاك والروسيا لم ترد الابتعاد عن القسطنطينية ولما وصل إلى سليمان باشا بلاغ الكومودور نابير وعلم بمنشوراته للأهالي أعلن في الحال بجعل البلاد تحت الأحكام العسكرية وذلك خوفاً من قيام الجبلين إتباعاً للإنكليز، وأدخل في مدينة بيروت العدد الكافي من الجند وأرسل لإبراهيم باشا أن يحضر

^(١) في الأصل (ميتها) وقد اعتاد المؤلف على كتابة (مين) ليقصد بذلك موانئ (المحرر).

إليه بجيشه الذي كان معسكراً بقرب مدينة (بعلبك) ليشتركا في المدافعة عن موانئ الشام فوصل إبراهيم باشا إلى بيروت وعسكر في ضواحيها وفي أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٤٠ وصل الأميرال (ستوفورد) الذي كان يجول بمراكبه أمام الإسكندرية إلى مياه بيروت ليشترك مع (الكومودور نابير) في إطلاق المدافع على موانئ الشام وفي ١٠ منه وصلهما العساكر البرية وكانت مؤلفة من ألف وخمسمائة من القيادة الإنكليزية وثمانية آلاف بين أتراك وأرنؤد.

وفي يوم ١١ منه أنزلت هذه العساكر إلى البر في نقطة تبعد نحو ستة أميال في شمال بيروت ولم يتمكن إبراهيم باشا من منعهم لوجود هذه النقطة تحت حماية المدافع الإنكليزية وفي ظهر ذلك اليوم وبعد نزول هذه العساكر إلى البر أرسل إلى سليمان باشا بلاغ من الأميرالين الإنكليزي والنمساوي بأن يخلى مدينة بيروت حالاً فطلب منهم مسافة أربع وعشرين ساعة كي يتداول مع إبراهيم باشا في هذا الأمر الجلل، فلم يقبل طلبه وابتدئ في إطلاق المدافع على المدينة واستمر الإطلاق حتى المساء وابتدئ أيضاً في اليوم التالي قبل الفجر ولم يقطع إلا بعد هدم أو حرق أغلب المدينة وأحرقت كذلك كل الموانئ الشامية قصد استخلاصها من محمد علي باشا وإرجاعها إلى الدولة العلية كما كانت، مع أن محمد علي باشا لم يأت بأمر يدل على رغبته في الخروج من تحت ظل الراية العثمانية بل لم يزل مؤكداً إخلاصه وولائه للدولة ولم يطلب إلبقاء هذه الولايات له ولذريته مع تبعيتهم للباب العالي ودفعهم الخراج له اعترافاً ببقاء تلك التبعية، ولولا تقلب الأحوال بينه وبين السلطان لثم بينهما الاتفاق على أحسن وفاق وحقت دماء العباد ويدل على رغبة الطرفين في ذلك إرسال الباب العالي ساريم بك أولاً وعاكف أفندي ثانياً إلى محمد علي باشا لحل هذه المسألة.

ولا يخفى أن محمد علي باشا هو الذي خلص مصر من فنة الممالك الباغية ونشر بجميع جوانبها لواء الأمن وتسبب في ازدياد الزراعة وغو التجارة حتى

توفرت لمصر أسباب التمدن وتيسر بهذه الكيفية لقوافل التجارة الأوروبية المرور بين الإسكندرية والسويس بدون خوف من تعدى أحد عليها، وله الفضل أيضاً في استئصال شافة الوهابيين من بلاد العرب وإعادة الأمن إلى طريق الحجاج واستخلص منهم مدينتي مكة والمدينة بعد أن استحال إذلالهم على أيدي العساكر الشاهانية، فضلاً عن أنه هو الذي فتح بلاد الروم، ولولا ما حصل لأعادها إلى الدولة العلية بعد ما ينست من رجوعها إليها وهو الذي أعاد الأمن إلى ربوع الشام بعد احتلاله لها ومنع تعدى البدو على الحضر كما أنه أبطل القتال المستمر الذي كان لا ينقطع دائماً بين الدروز والمارونية الأمر الذي لم يحصل قبل احتلاله ولا بعده^(١) وقد انحرف الأمير الكبير بشير عن موافقة إبراهيم باشا بعد أن حافظ على ولائه مدة، رغبة في أن يعطى له من لدن الباب العالي اسم أمير الجبل وينادى له بذلك على رؤس الأشهاد، فانعكس عليه أمره وعاد عليه شؤم خيانه فعزل عن إمارة الجبل وألزم بمفارقة الشام فانتبه من غفلته وندم على ما كان منه من الزلل حيث لا ينفعه الندم ثم أوصله إحدى السفن الإنكليزية إلى بيروت فقابله هناك الأميرال ستوفورد وبعد أن عنفه على تذبذبه الذي حصل منه ونفاقه الذي أداه إلى أن يتبع الأقوى شوكة، وعدم حفظه للعهود، أمر بإرساله وتابعيه مع قليل من عائلته إلى جزيرة مالطة ولم يجبه إلى ما طلبه من إرساله إلى إيطاليا أو فرنسا فوصل هذه الجزيرة في أول نوفمبر سنة ١٨٤٠ وكان عمره إذ ذاك خمساً وثمانين سنة وأمضى ما بقى من عمره مفكراً في سرعة زوال النعمة وسوء عاقبة التذبذب وأن الأحوط للإنسان والأجدر به أن يحافظ على عهوده لأنه لو مات مع المحافظة عليها لمات بالشرف واجدد ولو عاش مع الخيانة والتلون لعاش مع الفضيحة والعار وتوفي في سنة ١٨٥٠ في قسطنطينية.

(١) فريد بنك ما حصل في بلاد الشام من تعدى الدروز على المارونية بل وعلى كافة للمسيحيين من الطوائف الأخر سنة ١٨٦٠ وقتلهم ليأهم وإحراقهم بيوتهم وقتلهم حرمة كنائسهم وعرض نسائهم ولولا حماسة عدد القادر لجزائر لنصارى دمشق لقتلوا عن آخرهم الأمر الذي أوجب تدخل فرقة عسكرية واحتلال عساكرها للبلاد الشامية مدة سنتين تقريباً ولولا نزاعة نابليون الثالث لسفر هذا الاحتلال لبدوا.

إخلاء المصريين بلاد الشام:

هذا ولنقل بالإختصار، إن المراكب الإنكليزية والعساكر المختلطة التي أنزلت إلى البر في عدة مواضع تمكنت من أخذ جميع المدن الواقعة على البحر وإخراج المصريين منها حتى لم يكن محمد علي باشا بدّ من الإذعان إلى مطالب أوروبا، وأنه من العبث المحض مقاومة الدول المتحدة فأصدر أوامره إلى ولده إبراهيم باشا بعدم تعريض عساكره للقتال والموت بلا فائدة وباستدعاء الجنود العسكرية في حدود الشام والإغلاء عنها مع إتخاذ أنواع الإحتراس الكلى من العرب وسكان الجبل، فبلغ إبراهيم باشا هذه الأوامر إلى القواد جميعهم وأخذ الجنود في الرجوع من كل فج وصاروا يتجمعون حول قائدهم الأعظم الذي قادهم غير مرة إلى النصر والظفر وبعد ذلك قسم الجيش عدة فرق كل منها تحت إمرة أحد من اشتهر من القواد بالبسالة والبصير في عواقب الأمور وصار الكل راجعين إلى مصر تاركين البلاد التي سفكوا فيها دماهم وسيتركون فيها قبور إخوانهم.

وكان ابتداء الجيش في الرجوع إلى مصر في أواسط شهر ديسمبر سنة ١٨٤٠ ووصل الكل إلى القاهرة بعد أن ذاقوا مرارة النصب وتحملوا أنواع الذل والتعب وقاسوا شديد الوصب، مما تكل عن وصفه الأقلام ولا تحيط بنعته الأوهام ويكدر الأذهان فضلاً عن موت كثير منهم في الطريق بسبب مناوشات العرب الذين زادت هماتهم وجراءهم لما تحققوا من عدم تمكن المصريين من العودة ورائهم واقفاء آثارهم ومع ذلك فتمكن سليمان باشا من إرجاع مائة وخمسين مدفعاً بنحوها إلى مصر، وكثير من خيول السوارى التي هلك قسم عظيم منها بسبب العطش وشدة التعب.

وأما إبراهيم باشا وفرقته فلم يمكنهم العودة إلى القاهرة من طريق صحراء العريش لشدة ما لاقوه أثناء مرورهم في فلسطين من معارضة العرب لهم الذين سدوا عليهم الطريق واحتلوا جميع القناطر المبنية على الأنهر حتى اضطر غاربتهم

في كل يوم بل وفي كل ساعة، وأخيراً وصل مدينة غزة بعد أن استشهد في الطريق ثلاثة أرباع من معه وكثير من المستخدمين الملكيين الذين أودوا الرجوع إلى وطنهم مع عائلاتهم، فلما وصل غزة كتب لوالده إشعاراً بقدمه وطلب منه إرسال ما يلزم من المراكب لنقل فرقة إلى الإسكندرية وما يلزم لمؤنتهم وملبسهم.

وفي أثناء هذه المدة عرض الكومودور نابير على محمد علي باشا أن الحكومة الإنكليزية تسعى لدى الباب العالي في إعطاء مصر له ولورثته، لو تنازل عن الشام وردّ الدوناغة التركية إلى الدولة العلية فامتثل لهذا الأمر وقبل هذه الشروط لحفظ مصر لذريته وتم بينهما الإتفاق في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠. ولم يقبل الباب العالي هذا الإتفاق إلا بعد تردد وإحجام وتداول عدة مخاطبات بينه وبين وكلاء الدول الأربع المتحدة المجتمعين بمدينة لوندرة بصفة مؤتمر وصدر بذلك فرمان هياوي في تاريخ ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥٦ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١) هذا مؤداه^(١).

أولاً: أن الولاية تكون لمن يختاره الباب العالي من أولاد محمد علي باشا الذكور ثم لأولاد أولاده الذكور وهلم جرا بحيث لا يكون لأولاد البنات الحق في الحكم مطلقاً.

ثانياً: يجب على من يعينه السلطان والياً على مصر أن يسافر بنفسه إلى القسطنطينية لإستلام فرمان التولية يده.

ثالثاً: أن الذي ينتخب والياً لمصر يعتبر كأحد وزراء الدولة في مخاطباته مع الباب العالي المراسلات السلطانية بحيث لا يكون له أدنى امتياز عنهم من هذه الحيثية مطلقاً.

(١) إن كافة التفصيلات الآتية مستمدة من مجموعة طبعت في بولاق سنة ١٨٨٦ ومشتملة على كافة القرارات والمحركات الرسمية المختصة بمصر ابتداء معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠.

رابعاً: أن والى مصر يكون ملزماً بإتباع أحكام فرمان التنظيمات^(١) الذى أصدره السلطان عبد المجيد عند توليته، وكل ما صدر أو يصدره الباب العالى من القوانين واللوائح ويكون الوالى ملزماً أيضاً بالسير فى ولايته طبق المعاهدات المبرمة أو التى تبرم بين الباب العالى والدول الأجنبية أيا كانت بدون تغيير ولا تبديل، بما أن الحكومة المصرية لم تخرج من كونها ولاية عثمانية كباقي الولايات. خامساً: أن سائر الضرائب على اختلاف أنواعها يكون تحصيلها باسم الجناح السلطانى ويكون تحصيلها وتوزيعها بحسب القواعد المتبعة فى باقى ولايات الدولة العلية.

سادساً: أن ربع المتحصل من الضرائب يدفع إلى الخزينة الشاهانية والثلاثة أرباع الباقية يصرف منها ما يلزم لمصاريف الإدارة وجباية الأموال وما يلزم أيضاً للوالى وعائلته وثن البر^(٢) الذى يرسل سنوياً إلى مدينتى مكة والمدينة المنورة.

سابعاً: أن هذه الضريبة يصير دفعها مدة خمس سنين تبدأ من سنة ١٢٥٧ هجرية وبعد انقضاء هذه المدة يمكن تعديلها إما بزيادة أو نقصان حسب ما تستدعيه ثروة الحكومة والأهالى.

ثامناً: أنه لضبط المتحصل من الضرائب ومعرفة ما يخص الدولة بالتحقيق يلزم أن تعين لجنة من الدولة تقيم فى مصر لهذه الغاية وينظر فى تعيينها بعد، كما تقتضيه الإدارة الشاهانية.

تاسعاً: يكون لمصر الحق فى ضرب العملة من فضة وذهبية ونحاسية بشرط أن يكون ذلك باسم السلطان المعظم وأن لا تختلف العملة المصرية عن العملة العثمانية لا فى الشكل ولا فى الهيئة ولا فى العيار.

(١) هذا فرمان المعروف فى كتب الإنرج بخط شريف الكحلقة صدر فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٣٩ وتلى بجملة حلقة حضرها وزراء وأعيان المملكة وقنصل الدول.

(٢) قنص (المحرر).

عاشراً: عدد الجيش المصري يجب أن لا يتجاوز ثمانية عشر ألفاً مدة السلم أما في حالة الحرب فيزداد هذا المقدار إلى الحد الذي تقرره الدولة بما أن العساكر المصرية ملزمة اذذاك بالاشتراك والمساعدة في القتال مع باقي الجنود الشاهانية. حادى عشر: أن مدة الخدمة العسكرية يجب أن لا تتجاوز خمس سنين ويكون جمع العسكر بطريق القرعة كما هو المتبع في الدولة، وحيث أن الجيش المصري كان يبلغ في ذاك الوقت زهاء ثمانين ألفاً فيؤخذ منهم عشرون ألفاً ويصير إرجاع الباقي إلى بلادهم ويرسل أيضاً من هذا القدر ألفان إلى دار السعادة كي لا يبقى في مصر إلا الثمانية عشر ألفاً المقررة.

ثاني عشر: حيث أن مدة الخدمة العسكرية خمس سنين فيؤخذ سنوياً من أنفسار القرعة أربعة آلاف شاب يرسل منهم إلى دار الخلافة أربعمئة ويبقى الباقون في مصر.

ثالث عشر: أن من أدى مدة الخدمة المطلوبة من الجند يعود إلى بلده ولا يجوز إدخاله في الجيش مرة أخرى.

رابع عشر: أن ملابس العساكر المصرية وعلامات رتبهم تكون مشابهة لجنس ولون ملابس العساكر الشاهانية.

خامس عشر: كذلك ملابس البحار وضباط البحرية ويارق المراكب تكون مماثلة لما هو متبع في بحرية الدولة العلية.

سادس عشر: لا يكون لوالى مصر الحق في منح الرتب العسكرية للضباط البحرية والبرية إلا لغاية رتبة صاغ قول أغاسى بدخول الغاية في المنيا.

سابع عشر: لا يكون لوالى مصر الحق في إنشاء سفن حربية إلا بعد الحصول على إذن صريح من الدولة العلية.

ثامن عشر: حيث أن حق الوراثة على ولاية مصر لم يمنح محمد على باشا وعائلته إلا بهذه الشروط فلو أدخلوا بإحدها، سقط حقهم وصار لجلالة السلطان الحق في تولية من يشاء.

ولقد منحه الباب العالي أيضا ولايات النوبة ودارفور وكردفان وستار مدة حياته بدون أن تنتقل إلى ورثته كمصر، بمقتضى فرمان شاهان أصدر في اليوم الذي أصدر فيه فرمان الأول أعني في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وكلف أن يقدم حساباً عن هذه الولايات سنوياً إلى دار الخلافة العظمى، وأن يمنع ما كان متبعاً في السودان من إغارة الجند على قرى الأهالي وخطف بناتهم وصبياتهم ليبيعوها ويستولوا على ثمنها خصماً من ماهياتهم ومرتباتهم، وأن تمنع كلية عادة خصى بعض هؤلاء التعمى الحظ لإستخدامهم في السرايات بصفة حرس على الحرم (أغوات)، وأن يحفظ للضباط الموجودين رتبهم ويرسل إلى الباب العالي قائمة بأسمائهم من الرتبة التالية لصاغ قول أغاسي فما فوق ليصدر أمره بتثبيتهم في وظائفهم.

فقبل محمد على باشا كل هذه الشروط ولو عن غير رضا ثم طلب من الدول أن تساعد في تخفيف بعضها وتغيير البعض الآخر فقبلت ذلك وأرسلت إلى الباب العالي لائحة بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٨٤١ طلبت منه بما أن يعامله على حسب ما هو مدون بملحق معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وبلائحة ٣٠ يناير سنة ١٨٤١ فنأزلت الحضرة السلطانية بمقتضى فرمان تاريخه ١٩ إبريل سنة ١٨٤١ بتحويل فرمانها الصادر في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وهاك أهم ما فيه من الشروط:

أولاً: أن حق الوراثة يكون للأكبر سناً بين أولاده وأولاد أولاده الذكور مع بقاء الشرط الملزم لمن يستحق الولاية بهذه الكيفية بالسفر إلى مقر دار الخلافة العظمى لإستلامه فرمان يده.

ثانياً: أن ما تدفعه الحكومة المصرية للدولة العلية صاحبة السيادة بصفة خراج لا يكون ربع إيرادات الحكومة قبل خصم مصاريف الجباية والإدارة بل يصير تقديره فيما بعد مع مراعاة حالة الحكومة المصرية.

ثالثاً: أن يكون للوالی حق فی منح الرتب لغایة رتبة امیر ألای بدخول الغایة فی المعیا، أما ما فوق ذلك فلا يكون إلا یاذن من الباب العالی.

ولما أقرت الدول علی هذا التحوير بمقتضى لائحة تاریخها ۱۰ مایو سنة ۱۸۴۱ أصدرت الحضرة الشاهانیة فرماناً آخر فی ۱۱ ربيع آخر سنة ۱۲۵۷ الموافق أول یونیو سنة ۱۸۴۱ مؤیداً لما فی الفرمان السابق وفی غرة جمادی الاولى سنة ۱۲۵۷ (۲۰ یولیو سنة ۱۸۴۱) صدر فرمان آخر یجعل مقدار ما تدفعه الحكومة المصریة إلى الدولة العلیة سنوياً ثمانية آلاف کیسة^(۱).

* * *

وبذا انتهت المسألة المصریة ونال الباب العالی مرغوبه من إرجاع الحكومة المصریة إلى حدودها، ورجوع الشام إلى الحكومة العثمانیة فعاد هذا القطر إلى ما كان علیه من القوضى وعدم الاتفاق بین الشعوب العدیدة النازلة به المختلفة المذاهب والعقائد والعوائد حتی لا تمر سنة إلا ویحصل به ما یثقل بالراحة العمومیة بین الدروز والنصارى الأمر الذى كان امتنع کلیة فی المدة التى كانت البلاد فیها تابعة للحكومة المصریة أى من سنة ۱۸۳۱ إلى أواخر سنة ۱۸۴۰ وما كان ذلك إلا لحسن إدارة الحكومة المصریة وشدة بطش إبراهیم باشا ومن تحت أمره ومعاملتهم الأهالی بالعدل والقسطاس بدون نظیر إلى دیناسقم وجنسیتهم ولو استمرت تبعیتها لمصر مدة نصف قرن فقط لزال ما بین الأهالی من العداوة والبغضاء وساروا بانحد تام فی طریق التقدم.

هذا ولما وصل محمد علی باشا کتاب ولده إبراهیم باشا بطلب ما تقدم أرسل إلیه کل ما یلزم لإرجاع الجند ومن معهم من المستخدمین الملکیین

^(۱) واستمر دفع الخراج بهذه الكیفة لغاية سنة ۱۲۸۲ هجریة (۱۸۶۵م) ثم زید مقداره إلى مائة وخمسين ألف كیمة أعلی ۷۵۰.۰۰۰ جنيه عثمانی بمقتضى فرمان صادر بتاريخ ۱۲ محرم سنة ۸۳ الموافق ۲۷ مایو سنة ۱۸۶۶ عقب نقال الدولة العلیة لمصر من مدينتی سواكن ومصروع ومديریة الفتاكه وتغییر ترتیب الورقة فی خدیویة مصر فی عهد الخدیوی السابق إسماعیل باشا بأن حصرت الورقة فی الأكبر من أولاده ثم أولاد الأكبر ثم فی إخوته عند عدم وجود ولد له ثم أولاد الإخوة علی هذا الترتیب.

وعائلاتهم ولما أخذ العساكر في التزول إلى المراكب أرسل إليه الكومودور نابير بأن يترك في مدينة غزة كل من بجيشه من السوريين ليرجعوا إلى بلادهم وجياهم لما أن الشام قد انسلخت عن مصر وأعيدت إلى الحكومة العثمانية فالتزم بتركهم وكان لذلك تأثير محزن في قلوب المصريين لما علموا أن كل أتعابهم وما سفكوه من دمانهم وما فقدوه من إخوانهم في ميادين القتال لم يعد على وطنهم بشئ بل ذهب أدراج الرياح ولكنهم تسلوا عن ذلك بما نالوه من الشرف وأكسب وطنهم فخراً ومجداً ومجداً.

ومن غريب المصادفة وأعجبها أن رجوع إبراهيم باشا مع جيشه إلى الإسكندرية وافق يوم خروج الدونامة التركية من ميناء الإسكندرية في ٢٣ يناير سنة ١٨٤١ بعد أن مكثت بها ستة أشهر تقريباً والتزم محمد علي باشا بردها إلى الدولة العلية بمقتضى الوفاق الذي أبرم بينه وبين الكومودور نابير في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠، فكان لهذا التصادف وقع محزن في قلب محمد علي باشا لضياع أتعابه هدراً وهباء منثوراً، لكنه علم أنه يلزمه ومن الواجب عليه أن يفرغ جهده ويذل همته في ترقية مصر وإصلاح شؤونها فإنها لو اعتنى بأمرها لدورت أضعافاً مما ينتج منها وهي على هذه الحالة.

ولم يظهر محمد علي باشا ألماً مما أصابه من ضياع ولايق الشام وكريد اللتين صرف فيهما الأرواح العزيزة والأموال النفيسة بل أظهر أن قصده الوحيد هو ترقية مصر وإدخالها في سلك الأمم المتقدمة، وأن الأحوال اضطرته إلى فتح البلاد الشامية لا عن سبق إصرار وتبليغ ذلك إلى الدول أمر باغوص بليك ناظر خارجته أن يرسل لها منشوراً يقول فيه أن الله قد منّ على مصر بانهاء الحرب طبق لإرادته سبحانه وتعالى إذ لا يحصل في العالم شئ إلا كما قرره إرادته في الأزل وأبرزته قدرته إلى الوجود وأن جلالة السلطان المعظم قد منحته ولاية مصر له ولذريته إلى ما شاء الله وأنه يشكر الدول العظام على مساعدتهم إياه على نوال هذه الغاية، التي لولاها لما حصل عليها، وأنه سيفرغ ما في وسعه

لتخفيف أُنْقَال الأهالي وتحسين المالية التي نصبت إيراداتها لما استلزمه الحرب من المصاريف الباهظة التي جاءت بغير جدوى وإصلاح الإدارة وتتميم ما ابتدئ به من الأشغال النافعة للرى الذى هو قوام الزراعة وفتح الخللجان لتسهيل الملاحه والتجارة ونشر العلم بين أفراد الامة ليكون منها رجال أكفاء يقومون بخدمة وطنهم حق القيام.

وفى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٤١ صرف الجيش المصرى، ولم يبق منه إلا القدر المعين فى فرمان الذى سبقت الإشارة إليه وبذا اقتنعت الدول بخضوعه لأوامر الدولة العلية وأمرت قناصلها بالرجوع إلى الاسكندرية فرفع قنصل النمسا العلم فى ١٥ أغسطس وفى ٢٣ منه رفعت بقية الدول أعلامها ورجعت المياه إلى مجاريها وأهدى محمد على باشا إلى قنصل انكلترا الموسيو (برنت) حصاناً مطهماً وسيفاً مرصعاً.

وفى أوائل شهر أكتوبر من هذه السنة أرسل السلطان إلى مصر أحد ياورانه ليظهر لوالها سروره من رجوعه عن اغاربه ودخوله تحت حماية الدولة العثمانية ويقدم له سيفاً هدية من الحضرة السلطانية مع أوفر نياشين الدولة وكتاباً من جلالة السلطان، ولما علم محمد على باشا بذلك أرسل ولده سعيد باشا^(١) للاقاه الياور السلطانى عند نزوله إلى الاسكندرية فتوجه إليه وقابله هناك ثم وصلا إلى سراى شبرا من طريق البحر فى ١٠ أكتوبر وفى يوم ١١ منه صعد الياوران السلطانى إلى قلعة مصر فى موكب حافل يتقدمه آلاى من المشاة وألایان من السوارى مع موسيقاتهم وكان الإزدحام شديد المشاهدة هذا المندوب السامى الذى لم يحضر إلى مصر مثله منذ مدة. وقابله محمد على باشا فى ديوانه بغاية الأمانة والجلال تحفه ميمناً وشمالاً أكابر حكومته مع كافة الضباط والقواد الذين

(١) ولد هذا الأمير سنة ١٨٢٢ وترعى تربية حصنة وتلقف مهمة وحارب تحت إمرة أخيه إبراهيم باشا فى بلاد الشام وصعد إلى أريكة الحكومة المصرية سنة ١٨٥٤ بعد قتل عباس باشا فى ١٤ يوليو سنة ٥٤ وتوفى سنة ١٨٦٣ وم تشهر أعماله بمساعدته الموسيو ديلمبس عند فتح برزخ السويس وتأسيس مدينة بورسعيد الواقعة على فم لقتال من جهة البحر الأبيض المتوسط.

امتازوا في واقعة (نصيبين) وما قبلها وكان سليمان باشا من الحاضرين وواقعاً في أقرب موضع من سموّ الوالي فاندesh الياوران السامي من هذا الجمع العظيم والجيش الذي اشتهر بالمهارة والشجاعة، وقدم وقتئذ الهدية لمحمد على باشا وانصرف بعد أن قبلها منه بكل أبهة وجلال ثم بعد ذلك أخذ في تميم الإصلاحات التي عزم عليها الإيجاد التوازن في المالية المصرية، فأصدر أمره بترع المدافع من المراكب الحربية واستعمالها في التجارة كي يظهر لأوروبا أنه اكفى واقنع بولاية مصر الحصبة التربة المعتدلة الهواء الغزيرة المياه وقد تم ذلك في أوائل سنة ١٨٤٢ ولم يبق من هذه المراكب العظيمة إلا العدد الكافي للحكومة والأمة.

وفي أثناء هذه السنة زار الخديوى اقليم الفيوم وأبطل احتكار الجلد والصوف ولما عاد إلى المحروسة أبطل احتكار سائر الأصناف التجارية ما عدا القطن خوفاً من نضوب الخزينة، إذ ربح بيع القطن من أهم مواردها^(١) وكان عازماً أيضاً على التنازل عن احتكاره وجعل تجارته حرة لئلا يحمحت خزينة الحكومة بذلك.

وفي ٩ يناير سنة ١٨٤٤ توفى باغوص بيك وزير خارجيته وكان لموته تأثير محزن عند محمد على باشا لما كان له عنده من المكانة العظمى لأنه كان يعتمد عليه في الأعمال المهمة والمخابرات المدلهمة وخلفه في منصبه أرتين أفندى.

ثم في أوائل شهر أغسطس من هذه السنة خطر بباله أن يرسل لأوروبا بسائين من أعضاء عائلته الكرعة ليكونا قدوة لمن أرسل قبلهم ولمن يرافقهم من شبان المصريين وسبباً لمراعاة الحكومة الفرنسية للإرسالية المصرية، وبعد أن بحث سموه في هذا المشروع وتأمل فيه وتفكر في نتائجه الحسنة وبعد المباحثة في ذلك مع سليمان باشا قبل أن يرسل إلى مدينة باريس حسين بيك ثالث أولاده

^(١) إن الحكومة في ذلك الوقت كانت محتكرة أغلب محصولات الأرض وغيرها من معمل الحاج وأسكن حرق الجير والجبس فكان لفلاح ملزماً ببيع منتجاته لرضه للحكومة بحسب الأتمان التي تقدرها ومن تبعتها لدخل القطر وخارجه بالسعر الحاضر فكان يعود عليه من ذلك ربح عظيم.

والأمير أحمد بيك نجل ولده إبراهيم باشا، وبأن يرسل معهم أربعاً وثلاثين شاباً مصرياً وكلف سليمان باشا بانتخاب البعض من المدارس الحربية والمدارس الهندسية (مهندسخانة) فانتخب أحد عشر تلميذاً من مدرسة الطبجية وستة عشر من مدرسة السوارى وسبعة من المهندسخانة وأرسل الجميع إلى مدارس باريس الحربية.

وفي ٢٥ من شهر أغسطس سنة ١٨٤٤ وصل فريق منهم إلى مدينة ليون وفي ٢٨ منه وصلها الأميران حسين بيك وأحمد بيك فقوبلا بكل تبجيل وتكريم وتقدير وتعظيم ونزلاً بلوكاندة (أوريا) وزارهما فيها حاكم المدينة وأعضاء مجالسها وقضاة وسائر مأموري الحكومة وقضيا هذه المدينة يومين زارا في خلالها آثارها ومحلاتها العمومية وضواحيها اللطيفة وتنزها في هدى السون والرون اللذين يجتمعان في وسطها وكان يرافقهما في جولتهما إثنان من ياوران الملك لويس فيليب، كان عنيهما الملك للملاقمة عند نزولهما في مدينة مرسيليا^(١) ومرافقتهما إلى مدينة باريس الزاهرة وكانت مقابلة الأهالي لهما في جميع البلاد التي مرّا بها تظهر محبة الفرنسيين لهما ولعائتهما، ولما وصلا إلى مدينة باريس قوبلا بأحسن مما قوبلا به في مدينة (ليون) وقابلهما الملك وأحسن وفادتهما حتى الإحسان وتمتعا منه بالإمتنان.

زيارة الدوك دى موبانسيه لمصر:

ولإظهار ما حصل له من السرور لإختيار محمد على باشا مدينة باريس لتهديب أخلاق أولاده وثمرة فؤاده وتوسيع عقولهم وزيادة علومهم، أرسل ولده الدوك (دى موبانسيه) إلى مصر ليمتد دراسة فن التاريخ بزيارة آثار مصر

^(١) مرسيليا مدينة واقعة على البحر الأبيض المتوسط أسسها الفينيقيون سنة ٦٠٠ قبل المسيح وكثرت في عصر الرومانيين منظرته لمدينة قرطاجنة فكانت مركزها تمر على كافة سواحل البحر المتوسط وتوجب عباب المحيط الأطلسي حتى جزائر بريطانيا وبحر بلطيق ودخلها العرب مراراً كثيرة في القرن الثالث عشر للمسيح ولقد زادت تجارتها بعد دخول الفرنسيين جزائر الغرب وفتح خليج السويس ولها مع مصر علاقات كثيرة.

القديمة منبع العلوم والمعارف ومهد الفنون واللطائف فوصل الأمير الفرنسي إلى نهر الاسكندرية في صباح ٣٠ يونيه سنة ١٨٤٥ وكان في انتظاره بالنهر الأمير سعيد باشا ابن سمو الوالي فلما علم بقدوم السفينة المقلّة للدوك توجه إليها ليهنته بسلامة الوصول وكان ممن صحبه أيضا في هذه الزيارة جاليس باشا المهندس الفرنسي الذي أرسلته الحكومة الفرنسية لمصر سنة ١٨٤٠ لتحصين النهر الأسكندري من طوارئ الزمان ونواب الحدّان.

وبعد ظهر ذلك اليوم بثلاث ساعات جاء سعيد باشا وأخبره أن والده محمد على باشا قد جعل سراى القبارى تحت أمره ويدعوه إلى الزّول بها كى يحظى بزيارة جنباه العالى، فقبل الدوك منه ذلك وشكره على عظيم التفاته وحسن اعتنائه ثم نزلا من السفينة الفرنسية التى حيثهما بإطلاقها واحداً وعشرين مدفعاً وجاوبتها السفن المصرية بمثل ذلك.

فوصل إلى سراية القبارى ومكث فيها برهة شرب في خلالها القهوة والمرطبات ثم وفد على السراى محمد على باشا في عربة تجرها ستة من أحسن الخيول العربية وتحف بها كوكبة من فرسان الممالك لابسين ثياباً فاخرة مزركشة بالذهب والحجارة الكريمة على أحسن نوع وأتم وضع، فقابل الدوك بأحسن مقابلة وشكره على تشريفه الديار المصرية ثم عاد بمثل ما جاء به من الإجلال والتعظيم.

وفي صبيحة اليوم التالى ردّ الدوك إلى الوالى الزيارة في سراى رأس الستين العامرة فقابلته الوالى وسائر ضباطه البرية والبحرية بدون أن ينقص منهم أحد إلا سليمان باشا فإنه كان مريضا بالقاهرة مما كابده من الأتعاب أثناء عودته من الشام وفي مساء هذه الليلة صنع له سموّ الوالى مأدبة فاخرة دعى إليها سرة القوم وأكابرهم وأعيانهم وسائر الموظفين من الفرنسيين وقدم لجناب الدوك الدكتور (كلوت بيك) مؤسس مدرسة الطب و(لتيريك) مؤسس مدرسة المهندسخانة وغيرهما من الفرنسيين الذين هم الفضل الأعظم في تأسيس

المدارس وبناء القناطر وكذلك كافة ما حصلت عليه مصر من التقدم في زمن المغفور له محمد على باشا، ولقد صرف السدوك أسبوعاً كاملاً في مدينة الإسكندرية قضاء في زيارة الإستحکامات والإستباليات والسفن الحربية ومسرّ كثيراً من السفينة المسماة (بنى سويف) أكبر سفن المصريين فكان فيها مائة مدفع وألف ومائة جندي وكان قائدها سعيد باشا.

ثم ركب النيل ومعه سعيد باشا وعباس باشا فوصلوا إلى مصر ونزلوا بسرّاي شبرا في يوم ٨ يوليو وكان بانتظارهم هناك إبراهيم باشا وبعد أن استراح الدوك قليلاً ركب في عربة مع إبراهيم باشا وسارا إلى القلعة حيث كانت معدة لإقامة محمد على باشا فوصلها في الساعة ١٠ مساءً وكان مرورهما بين صفوف الأهالي والعساكر يتقدمهم جم غفير من حاملي المشاعل وفي يوم ٩ منه طاف الدوك في أنحاء القاهرة للتفرّج على ما بها من الآثار العربية، فشاهد كافة المساجد القديمة وقبور الخلفاء، وعند الأصيل توجه إلى مصر القديمة وعاد سليمان باشا وكان طريق الفراش مسرّراً كثيراً من تنازل نجل ملك فرنسا إلى زيارته ثم شارف مقياس النيل بجزيرة الروضة (النيل) وفي يوم ١٠ منه أقيمت صلاة احتفالية في الكنيسة الفرنساوية تذكّاراً لعهد جلالة ملكة فرنسا (مارى أميلي) والدة الدوك فحضرها مع كل ضباط الدونائمة التي رافقته إلى الإسكندرية.

وفي مساء ذلك اليوم زار الأمير عباس باشا وتوجّها معا على طريق السير إلى مدينة السويس واستراحا أثناء السير في السرّاي التي بناها عباس باشا في الصحراء وبعد أن شارقا المدينة والمينا ذهب الدوك إلى جبل طود سينا لزيارة الأماكن المقدسة هناك وعادا إلى القاهرة. وأظهر الدوك رغبته في السفر على طريق النيل إلى مصر العليا وزيارة آثار مدينة طيبة فقبل له أن السفر إلى هذه الجهات لا يستحسن إلا في زمن الشتاء لما أن النيل يبتدئ في الزيادة في شهر يوليو وأن الأولى العودة إلى مصر في أواخر الشتاء حين تكون مياه النيل قد

تناقصت فقال الدوك أنه لا يمكن ذلك لأنه ربما تشب نار الحرب في بلاد الجزائر في أوائل الربيع وأنه لا بد أن يحضرها، فسلم عباس باشا ما طلبه الدوك وأصدر أوامره المشددة بتجهيز ثلاثة بواخر نيلية فجهزت في أسرع وقت وعزم الدوك على السفر في ١٤ يوليو سنة ١٨٤٥. ففي صبيحة ذلك اليوم توجه الدوك إلى السراي بشيرا لوداع الأمير إبراهيم باشا فوجد عنده سليمان باشا الفرنسي، وكان قد نقه من مرضه قليلاً وجاء لتأدية واجبات العبودية لإبن ملكه وخالف تشديدات الأطباء عليه بعدم الخروج خوفاً من عود المرض إليه فقابلته الدوك أحسن مقابلة وأظهر له سرور الملك وسرور الأمة الفرنسية كلها مما أتاحه الله للمصريين من النصر في بلاد الشام بحسن ترتيباته العسكرية وتنظيماته الحربية، وأن فرنسا تودّ وجود أحد أبنائها الأعزة في مثل هذا المنصب لأن هذا مما يعلى كلمتها ويحقق رغبتها في تقدم مصر التي كانت ولم تزال في مقدمة البلاد الشرقية.

ثم عاد الكل إلى فرضة بولاق حيث تنتظرهم البواخر المعدة لسفر الدوك فزل في الأولى مع بعض معيته وكان يخفق عليها العلم الملوكي الفرنسي ونزل في الثانية الأمير سعيد باشا وحاشيته وفي الثالثة بقية معية الأميرين الفرنسيين والمصري وكان العلم المصري المنصور الذي تبعه المصريون في ساحة القتال غير مرة يرفرف فوق الباخرتين الأخريين.

وبعد أن ودعه الأمير إبراهيم باشا وسليمان باشا ومن كان معهما من الأمراء وأكابر الأعيان أقلت البواخر في الساعة ١٠ صباحاً وكان الجو صحواً والريح رخوا فسارت تشق عباب البحر، ولم تزل الأبصار شاخصة إليها حتى بعدت عن الأنظار ثم انصرف الجميع وعاد كل إلى محله مسروراً لما رآه من لطف الدوك وحاشيته ولم يلبث الدوك في سياحته طويلاً بل عاد بعد أن شارف المنيا وأسيوط ودندرة وآثار مدينة طيبة ثم سافر تَوّاً إلى فرنسا.

ولقد سرّ والده (لويس فيليب) لما بلغه ما لقيه ولده في الديار المصرية من حسن الملاقاة وكرم الوفادة فأهدى لسمو محمد علي باشا الجران كوردون من نيشان الليجيون دونور، وكان إرساله مع أحد مستخدمي نظارة خارجيته المسيو (دى منترو) فوصل المرسل إلى مصر في ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٥ واستقبله سمو الوالى بقاعة الإستقبال بسراى القلعة العامرة وكان الإحتفال جامعاً لكافة أمراء مصر وقوادها البرية والبحرية الذين اشتهروا وحازوا قصب السبق في حروب الشام الأخيرة، ولم يشهد هذا الإحتفال سليمان باشا الفرنساوى لأنه كان مرافقاً لإبراهيم باشا في بلاد إيطاليا وكان قد ذهب إليها طلباً للشفاء من مرضى باطنى ألّم به منذ مدة وكان الأطباء أشاروا عليه بالتوجه إليها لمداواته بالإستحمام بالمياه المعدنية.

٩- رحلة إبراهيم باشا إلى أوروبا

سفر إبراهيم باشا إلى أوروبا:

وأما محمد على باشا فلم يكن سروره بهذه الهدية صافياً، بل كان يشوبه الكدر لما ألم بأكبر أولاده الأمير إبراهيم باشا من المرض الداخلى الذى أفسك قواه حتى تحيرت الأطباء فى علاجه وفى آخر الأمر أشار عليه الدكتور (المان) طبيه الخاص به بأن يسافر فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٤٥ إلى حمامات (سان جيتانو) بالقرب من مدينة بيزا^(١) بإيطاليا، فسافر إليها وبعد أن استمر وداوم على الإستحمام فى مياهها المعدنية مدة بدون فائدة، أشار عليه الأطباء مرة ثانية بالتوجه إلى مياه فرنيه الواقعة على جبال البيرونية الشاخنة الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا فكتب إبراهيم باشا لوالده بذلك وطلب منه إخبار حكومة فرنسا بحضوره إليها فانشرح (لويز فيليب) ملك فرنسا بئى شجاع مصر وفاتح مودة والشام الذى عم ذكره جميع الأقطار إلى بلاده، ولقد أمر والد الأمير سليمان باشا بمرافقته لولده الأعز فى هذه السياحة كي يكون له دليلاً ومرشداً فى هذه البلاد التى لم يسبق له توجه إليها، فسر بذلك لما أنه يؤد أن يرى وطنه العزيز بعد أن غاب عنه مدة ٢٥ سنة فسافر إلى (بيزا) ومنها إلى (فلورنسا) مع إبراهيم باشا وحاشيته ومنها إلى (ليفورن) فجنوة^(٢) وقابله شارل البريت^(٣) ملك سردينيا فرحب به وأضافه أربعة أيام متوالية.

(١) هى فرضة واقعة على البحر المتوسط وهى قديمة العهد جداً وكانت فى القرن لثالث عشر الميلاد من اعظم بلاد إيطاليا تجارة ولها امتياز التجارة فى القسطنطينية وفسطاطية وسائر موانئ الشام والروم ثم تسطلت تجارتها بسبب تدخلها فى الحروب الدينية بين البابا وإمبراطورية النمسا ولم تعد بعد ذلك إلى ما كانت عليه من التقدم فى أنواع التجارة والملاحة ثم فتحها نابليون الأول وصارت تابعة لفرنسا من سنة ١٨٠٧ إلى سنة ١٨١٤ ومن ذلك العهد بقيت بلاد توسكان فى تقلبتها النمساوية وهى الآن دالعة ضمن مملكة إيطاليا.

(٢) هى مدينة قديمة واقعة على البحر المتوسط يقال إنها اسمت قبل الميلاد بسبباسة سنة وبعد أن حكمها الرومان مدة دخلها غالب طوائف المتوحشين الذين أغاروا على بلاد إيطاليا فى القرن الخامس واستقلت فى القرن العاشر وصارت جمهورية تجارية كانت تعدى جمهورية البندقية واستمرت كذلك إلى آخر لجيل الخامس عشر حيث بلغت ذروة المجد والبنى ثم أخذت فى الإحطاط شيئاً فشيئاً لتنازع اغنياتها فى السلطة وفى سنة ١٨٠٥ لاحتها نابليون الأول وصارت تابعة لفرنسا إلى سنة ١٨١٤ حيث أعطاها مؤتمر فيينا إلى ملك سردينيا وهى الآن ضمن مملكة إيطاليا.

وفي أثناء إقامة إبراهيم باشا في مدينة جنوه سافر سليمان باشا إلى مدينة طولون^(٢) من أعمال فرنسا، لإجراء الترتيبات اللازمة لإقامة أمره حين قدومه إلى أرض فرنسا فوصلها في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٤٥ وكان في انتظاره هناك مأمور الحكومة وجم غفير من الأهالي أتوا من كل فج لمقابلة هذا الشجاع الفرنسي الذي تجرع غصص الفاقة في فرنسا وخرج منها فقيراً وإن لم يكن حقيراً، وعاد إليها بعد خمس وعشرين سنة مكلاً بالنصر والظفر ومتحصلاً على رضا سمو أميره وافتخار كافة ضباط الجيش المصري به حيث قام بجميع ما يلزم للوطن العزيز بالذمة الصادقة والهمة العالية.

فبعد أن أجزأ اختلات اللازمة لإقامة أمره وحاشيته قضى مدة انتظاره في التفرج على استحكامات المدينة من جهتي البر والبحر وعلى ما بها من الترسانات والسفن الحربية وجميع الأعمال الفنية، وبينما جميع الأهالي منتظرون سمو الأمير المصري المنصور متشوقون لرؤيته إذ وصل إليها من طريق البحر في صبح يوم ٢ نوفمبر، تنقله إحدى سفن مصر الحربية، وأدت التحية لهذا الأمير بارجة الأميرال بطلقها أحداً وعشرين مدفعاً ورفعها العلم المصري على أعلى صواريتها وكذلك كافة السفن الفرنسية رفعت العلم المصري ثم أطلق من إحدى الطوابي البرية واحد وعشرون مدفعاً وأرسلت الأخبار تسوراً إلى باريس بالتلغراف لإخبار الملك بقدوم سمو ضيفه فأرسل الملك تلغرافاً يهنئه بسلامة وصوله وقد حيته أيضاً بإطلاق المدافع السفينة النابليانية المسماة بأوزانيا التي كانت راسية بطولون، وأما سفن الدول الأخرى فاكثفت برفع أعلامها مع

(١) ولد هذا الملك في سنة ١٧٩٨ وتربى في فرنسا حيث كان عقله يميل إلى حب الحرية الفرنسية وفي سنة ١٨٢١ تولى ملكاً على مملكة سردينيا وأخذ فيها بإصلاحات كثيرة وأحدث فيها منافع عديدة وساعد تقدم الصناعة والفاحة ولطفت استعباد الأهالي وفي سنة ١٨٤٨ ساعد طابلي الحرية من الإيطاليين على محاربة النمسا فانتصر عليها في عدة مواقع ولكنه انهزم في واقعة نوفار الشهيرة وفي ٢٣ مارس سنة ١٨٤٩ تنزل عن الملك لولده فيكتور صقويل وقتل في البورنفل وتوفي هناك بعد قليل في مدينة لويرون.

(٢) هي من حصن موقتي فرنسا الحربية المنيعة لكثنته على البحر المتوسط وبها مرسى دونقمة هذا البحر ويبلغ عدد سكانها نيفاً ومائة ألف نسمة وتجارها قليلة.

العلم المصري على جميع صواريتها وكان دخول السفينة المقلّة لسموه المينا في الساعة ٨ صباحاً وعند دخولها ذهب لتهنئته على السفينة حاكم المدينة البحري ليطلق من سموه الأوامر، وبعد أن مكث في الواوور ثلاث ساعات للإستراحة من مشاق البحر نزل إلى البر في الساعة الحادية عشرة وكان في انتظاره على الرصيف الماركيز دى لافاليت مندوباً من قبل جلالة الملك والحاكم البحري وكثير من الضباط البرية والبحرية، وكان الألى الثالث من المشاة البحرية مصطفاً على جهتي طريق الترسانة والألى التاسع عشر من المشاة البرية مصطفاً أيضاً من باب الترسانة إلى سراي الحكومة المعدة لإقامة سموه، وكان في مقدمة المركب فرقة من الجندرمة يتبعها ضباط البر والبحر ثم سمو الأمير إبراهيم باشا وعن يساره سليمان باشا وهما لابسان أفخر الملابس الشرقية المزركشة بالذهب، وخلفهما عدد كثير من الخدم السودانيين حاملين الشبكات المحلاة بالحرير والتراكيب المنمنمة، ومر سموه بهذه الهيئة بين صفوف العساكر والأهالي والكل يقابلونه بالتهليل والتفخيم والتكريم والتعظيم.

ثم في اليوم التالي سافر سليمان باشا إلى مدينة مرسيليا فبورفاندر، فبرنيان، ففرنیه لإستعداد الخلات اللازمة لإقامة الأمير وتابعيه وبعد تأدية هذه المأمورية عاد الباشا إلى مدينة برنيان وكان قد دعاه الجنرال الكونت دى كاستيلان قائد الفرقة الفرنسية المعسكرة في هذه الجهة ليشهد المناورات التي عزم الكونت على عملها إكراماً له ثم بعد أن حضر هذه المناورات عاد إلى مدينة بورفاندر لإنتظار أمره.

وفي يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٤٥ بارح سموه مدينة طولون قاصداً مدينة مرسيليا فوصلها عند ظهر ذلك اليوم، ولما وصل حيّته القلاع باطلاق مدافعها وعند نزول سموه إلى البر قابله الجنرال (كونت دوبول) قائد الحامية وسائر مأموري الحكومة وكان نزول سموه في منزل أحد التجار المشهورين الذين لهم علاقات دائمة مع البلاد المصرية وهو منزل (اخوان باستري) وهناك زاره أكابر

البلد من تجار وأعيان ثم دعا سموه مأموري الحكومة إلى مأدبة أعدّها لهم، وبعد الفراغ من تناول الطعام ذهب إلى التياترو وقابله هناك جميع المتفرجين بالتهليل والتصفيق كما هي عادة الإفرنج عند إظهار استحسانهم أو سرورهم من أمر وبعد انتهاء التشخيص عاد سموه باليمن والإقبال إلى منزل باستري اخوان ففضى ليلته فيه إلى الصباح.

وفي اليوم التالي الموافق (٣٠ نوفمبر) زار المدينة ومرّ في أهم شوارعها فعند مروره من شارع بائعات الأزهار قدمن لسموه باقة من الزهور الجميلة فتعطف سموه بقبولها منهن.

وفي مساء الساعة التاسعة توجه (إلى الباليو) الذي أعدّه الجنرال (كنت دويول) إكراماً لسموه فمرّ في جميع غرف الرقص وصار يلاطف السيدات والمدموازلات برقيق لفظه وسليمان باشا يترجم لهن عباراته حتى انشرحن من ملاحظته وأعجبهن حسن التفاته إليهن وتعطفه السني جهتهن وعليهن.

وفي صبيحة أول ديسمبر سنة ١٨٤٥ زار سموه ما حوته المدينة من ورش وفابريقات وجميع الأماكن الصناعية وكان رحمه الله يتأمل بغاية الدقة إلى آلاتها اللطيفة الغريبة ويعجب من حسن صنعها العجيبة، ومما أدهش مهندسي هذه الفابريقات حدة ذكاء الأمير وقوة فكره وفهمه هذه التركيبات الميكانيكية حتى أنه أبدى لهم بعض ملحوظات لتحسين بعض الآلات مع عدم تعلم سموه العلوم الهندسية بل ولا غيرها من العلوم مطلقاً.

وفي يوم ٢ منه أولم وليمة فاخرة لأعيان تجار هذه المدينة وأصحاب الفابريقات وفي يوم ٣ منه في الساعة الرابعة مساء ألقى من مارسييا قاصداً بورفاندر بعد أن وزع الهدايا الثمينة على كل من احتفل بلقائه وأعطى ألفاً وخمسمائة فرنك إلى حاكم المدينة بقصد توزيعها على الفقراء، ووصل سموه إلى فرسة بورفاندر في ٤ منه وقضى يوم ٥ في سفينته وفي اليوم السادس تناول

طعام الظهر في وليمة أعدتها لسموه تجار المدينة وبعد انتهاء الوليمة سافر سموه إلى مدينة برينيان^(١) وكان وصوله إليها قبيل وقت الأصيل فقابلته هناك الجنرال كونت دى كستيلان مقابلة عسكرية واستعرض أمامه الجيوش المعسكرة في هذه المدينة وضواحيها ثم تناول سموه طعام المساء عند الكونت في وليمة فاخرة عظيمة باهرة كان أعدتها لسموه ودعا إليها كل أعيان المدينة وضباط الحامية وفي يوم ٧ منه تناول طعام العشاء عند مدير الإقليم المدعو بالمسيو (فابى). وفي صبيحة يوم ٨ منه سافر سموه في عربة إلى فرنية ورافقه في طريقه الجنرال (كونت دى كستيلان) ولم يزل راكباً جواده حتى أمضى مسافة ٢ كيلو متر خارجاً عن المدينة ثم عاد بعد أن ودع سموه وداع إخلاص وولاء وكان الجنرال أرسل أوامره إلى مدينة فرنية باستقبال الأمير إبراهيم باشا بكل ما يليق بمقامه الرفيع من الاحترام والتجليل فسار سموه طول نهاره فيما بين جبال البرينية الشاخنة مع جزء من ليله، وقبل أن يصل المدينة بمسافة فرسخين وجد عساكر الجند رمة مصطفة على جانبي الطريق وأهالي الجبال مجتمعون في الأودية وعلى قمم الجبال ينتظرون قدوم الأمير المصرى متزينين بأفخر لباسهم حاملين أسلحتهم كما هي العادة المعتادة عند سكان الجبال.

وبمجرد ما أطلقت المدافع من قلعة (فيل فرانك) إيذاناً بقدوم سموه أطلق الأهالي بنادقهم في الهواء تعظيماً لمقام زائرهم الأفخم وبعد قليل أحاط بعربته جم غفير من الأهالي حاملين مشاعل متقدة ولم يزلوا مرافقين له ومتابعيه حتى وصل إلى المدينة فتابعوا إطلاق البنادق مهللين بأصوات الفرح والبشر، وكان بانتظاره عند تشريفه المدينة شيخ البلد وقسيسها فقابله وخطب كل منهما خطبة وجيزة هنا بها سموه على سلامة الوصول وأظهر في خلالها ما نال بلادهم من الشرف بتشريف جنابه الأكرم وختم كل منهما عبارته بطلب البقاء له من بادئ السمات ومبدع الكائنات وشاق العلل والآفات، ثم مرت عربته من تحت

(١) هي مدينة حصينة لا تبعد عن البحر إلا مسافة ثمانية كيلومتر ولها أهمية حربية من الطبقة الأولى لوجودها بالقرب من حدود إسبانيا ومن الطرق المارة في مضائق جبال بيرينيه موصلة بين المملكتين.

قنطرة نصر أقيمت في أول شارع احتفالاً وتزييناً لجنازه وكان مكتوباً عليها هذه الكلمات إلى النصور في قونية ونصيبين، وعند باب الحمام أقيم له قنطرة أخرى عليها هذه الجمل الأربع إلى نجل محمد علي باشا الأكبر إلى ممدن الشرق إلى صديق فرانسإ إلى الشجاع المصري.

ولما وصل سموه إلى الحمام توجه بلا توان إلى الخلل الذي كان معداً لجنازه الرفيع في لوكاندة الحمام وأخذ الجمع في الإنصراف ورويداً وقضى سموه في مياه قرنية أربعة أشهر طلباً للشفاء فكانت صحته تتحسن يوماً عن يوم حيث أن الهواء وافقه سيما بملاحظة همة الدكتور لالمان طبيبه الخاص ولكنه سئم الإقامة في هذه الجهة المنعزلة وفضلَ مبارحتها عن الإقامة بها لولا تشديد طبيبه عليه، نعم كان يزوره أحياناً الجنرال كونت دى كستلان قائد أوردي برينان وبعض من موظفي الحكومة في هذا الإقليم وما كانت هذه الزيارات القليلة تكفى لتسلية ففى أوائل شهر فبراير أذن له الدكتور لالمان بالتوجه إلى برينان لو أراد بشرط أن يكون انتقاله في عربة تسير الهويفى فرضى سموه بهذا الشرط.

وسافر إلى المدينة في ٥ فبراير سنة ١٨٤٦ حتى وصلها في الساعة الحادية عشر بعد الظهر بدون أن يعلم الجنرال كونت (دى كستلان) وكان معيته طبيبه الذى كان لا يفارقه أصلاً وبعد أن قضى سموه يومين عاد إلى الحمامات وفي ٤ مارت زار هذه المدينة مرة أخرى فقابلته فيها الجنرال ورافقه عند عودته إلى خارج المدينة وكان هناك فرقه من جنوده وأركان الحرب تشتغل بوضع قنطرة من السفن على نهر يمر بالقرب من المدينة لمرور العساكر قصد التصمين فتم وضعه في أقل من القليل ولم يحتاج إلى مضي وقت من الزمن ومر عليه الجيش بحضور سموه فسر من مهارتهم وسرعة حركاتهم وإتقان عملهم ثم عاد إلى فرنية مصحوباً باليمن والإقبال ولما تم الشفاء لسموه في أوائل ابريل عزم على السفر إلى مدينتى باريس ولوندرة وأخير والده بذلك فكتب سمو الوالى رحمه الله إلى حكومتى فرنسا وانكلترا يخبرهما بقدم ولده إليها بقصد السياحة.

فلما علم إبراهيم باشا بأن والده كتب إليهما وتحقق من ذلك بادر بالسفر مع حاشيته من فرنه في النصف الثاني من شهر إبريل سنة ١٨٤٦ من طريق بوردو، فمدينة تور حيث كان في انتظار سموه قطار حديدي خاص به فوصل إلى باريس الزاهرة في الساعة الأولى بعد ظهر يوم ٢٥ منه ولا حاجة إلى ذكر ما لقيه سموه أثناء الطريق في المدن العظيمة التي مر عليها من الإحتفالات بل نكتفي بأن نقول أنه قبل أحسن مقابلة واحتفل بمروره بنوع لم يسبق في تاريخ الشرق من قبله.

وكان في انتظار سموه على رصيف المحطة الكولونيل (تيرى) أحد ياوران الدوك (دى موبانسيه) من طرف جلالة الملك للملاقاته ومرافقته أثناء إقامته في عاصمة المملكة الفرنسية وكانت المحطة جامعة من الداخل والخارج لجماهير الأهالي بين نساء ورجال، ولم يتأخر أحد من التلامذة المصريين الموجودين هناك بل أتى الكل للشرف بمقابلة نجل مليكهم وولى عهد حكومتهم فزل سموه من القطار وتبعته حاشيته والتلامذة المصريون وهنأه الكولونل (تيرى) بسلامة الوصول نائبا عن جلالة الملك وكافة أعضاء العائلة المالكية، وأخبره بأن الملك يدعو سموه للإقامة في سراى الإليزيه بوريون^(١) فقبل سموه ذلك وشكر الملك على ما كان منه من حسن القبول. وما ظهر من باقى حكومته من سروره بمقابلتهم في سائر الجهات التي مر بها، ثم ركب سموه مع حاشيته العربات الملكية التي أعدت لانتظارهم وساروا تَوّاً إلى السراى بين صفوف الأهالي وكان كلما يمرّ على جماعة يصرخون بقولهم فلتحنى مصر فليعيش إبراهيم باشا فليحفظ الله سموه واليها ولم يزلوا على هذه الحالة حتى وصل إلى السراى وكان الخلل الذي أعد لإقامة سموه من هذه السراى القديمة العهد هو الذى أقام فيه

(١) هي سراى فلخرة بناما لكونت وثرية سنة ١٧٢٨ ميلادية ثم اشتراها لويس الخامس عشر ملك فرنسا وأهداها لعنيتكه مدام دى بومباور سنة ١٧٦٥ ثم قدرجت ضمن أملاك الأمة أثناء الجمهورية الأولى ثم أعطيت لفلبايون لما تولى أريكة الإمبراطورية سنة ١٨٠٤ وصارت من ذلك العهد تابعة لكل ملك يتولى وهي الآن ممدة لمسكن رئيس الجمهورية أثناء مدة تعيينه والذي يسكنها الآن هو المميو سدانى كارنور رئيس الجمهورية الفرنسية حاليا.

الإمبراطور نابليون بعد عودته من جزيرة البه والسرير الذى أعد لنوم سموه هو الذى كان معداً لنوم الإمبراطور.

ولقد قضى سمو إبراهيم باشا يومى ٢٥ و ٢٦ قبل أن يقابله الملك مقابلة رسمية وكان سموه يطلع على مباني المدينة متخفياً ثم فى يوم ٢٧ احتفل الملك وأولاده وزوجاتهم بمقابلاته بحضور الملكة والبرنسيس اديلايد فى سراى التويلرى^(١) فى قاعة المقابلات الإحتفالية وكان جلالة الملك متحلياً بكسوة رئيس الجيوش وكذلك نجله الدوك دى نيمور وأما البرنيس دى جوانفيل فكان لباساً ملابس فيس أميرال بحرى والدوك دى مونباسيه كسوة أميرال طوىحى.

وكان حاضراً عند الإستقبال كل من المارشال سولت الملقب بدوك دلماسيا رئيس النظار والمسيو جيزو ناظر الخارجية وقبل مجئ إبراهيم باشا ببرهة حضر إلى السراى الملوكية سفير الباب العالى المدعو سليمان باشا وكان حضوره فى الساعة الأولى بعد ظهر ذلك اليوم وعند قدومه أقبلت العربدة الملوكية المقلدة لسمو الأمير إبراهيم باشا يتقدمها خياله من خيالى اسطيلات الملك ويتبعها ثلاث عربات أخر ملوكية. وكان مع سموه الكونيل تيرى المعين لمرافقته وفى العربات الأخر سليمان باشا الفرنساوى وغيره من حاشية الأمير، ولما وصل سموه إلى قاعة الإستقبال قدمه سفير الباب العالى إلى جلالة الملك فصافحه وشكره على ما لقيه نجله الدوك (دى مونباسيه) من الإكرام وحسن المقابلة أثناء سياحته فى القطر المصرى وقد روى أن الملك قال أثناء مقابلة سليمان باشا الفرنساوى أجبتك المركيز دى سيف؟ فقال له الباشا لا بل إن والدى كان أحد طحانى مدينة ليون، فرد عليه الملك بقوله أن ذلك مما يزيدك شرفاً وتبلاً وبعد أن تكلم الملك قليلاً مع إبراهيم باشا والحاضرين من حاشيته عاد سمو الأمير إلى السراية بنفس الإحتفال الذى جاء به.

(١) إن الباقى لهذه السراية هي كتوين دى مديسين سنة ١٥٦٤ ولم يتم بناؤها إلا فى عهد الملك لويز الرابع عشر وقد سكنها ملوك فرنسا لو رؤساء جمهوريتها تبعاً لثقل الحكومت إلى أن أحرقها نازرو الكومون فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧١ ولم تن ثلثية بعد.

وفى مساء ذلك اليوم عاد سموه إلى سراى الملك لتناول طعام المساء على مائدة جلالة الملك ولما حضر الأمير والمدعوون قام الملك فى الساعة السادسة والنصف إلى قاعة الطعام وجلس إبراهيم باشا عن يمين جلالة الملكة أمام زوجها الأفخم وكان المدعوون من أكبر رجال المملكة بين أمراء وقواد ووزراء ثم تجاذب الملك والحاضرون أطراف الحديث أثناء الأكل وكانت جلالة الملكة تلاحظ ضيفها بريق ألفاظها وتسأله عن حالات عمومية فى الشرق إلى أن انقضى الطعام فى نحو الساعة ثمانية ونصف مساء وعاد سمو الأمير إبراهيم باشا إلى مقرة بسراى الإليزيه بصحبة الكولونل تيرى ومن كان معه من حاشيته.

وفى صبيحة يوم ٢٨ منه توجه سموه إلى سراى الإنفالىد^(١) لزيارة قبر الإمبراطور نابليون الاول وصحبه فى هذه الزيارة الدوك دى موبانسيه والكولونل تيرى وسليمان باشا، فقابل سموه على باب السراى الدوك دى ريجيو حاكمها والضباط من كهول الجيش الفرنساوى حاملين السلاح تعظيماً لجنابه العالى فزار سموه السراى بجميع أركانها وأثنى على الحكومة الفرنساوية التى خصصت هذا البناء الشاهق لمن يعجز عن الكسب من شجعانها إما لتقدمه فى السن أو لإصابته بفقد أعضائه فى الدفاع عنها وعن شرفها، ثم نزل بموكبه الحافل إلى القاعة المبنية تحت السراى وبها محفوظة جثة الإمبراطور التى احتفل بإرجاعها من جزيرة سانت هيلان (وقد دفن بها) فى ١٥ ديسمبر ١٨٤٠ وبعد برهة خرج منها إبراهيم باشا وتوجه لزيارة المدرسة الحربية وبعد ذلك تراه قليلاً فى منزله غابة بولونيا ثم قصد سراى الدوك دى موبانسيه لتناول العشاء فى مأدبة خصوصية أعدها الدوك إكراماً لزيارته وقياماً ببعض واجبه.

(١) تأسست سراى الإنفالىد سنة ١٦٧٠ فى عهد لويز الرابع عشر ملك فرنسا الذى بلغت مدة حكمه ثلاثاً وسبعين سنة لأنه ولد فى سنة ١٦٦٢ وتولى سنة ١٦٤٣ وعمره خمس سنوات وتوفى فى أول سبتمبر سنة ١٧١٥.

وفي يوم الخميس الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٨٤٦ ذهب سموه في الساعة ٣ بعد الظهر إلى سراى لوكسنبورج للتفرج في دار التحف فسر مما رآه فيها من الصور الجميلة خصوصاً اللوحة المشهورة التي رسم فيها المسيو هوراس فرنيسه مقتل الممالك بقلعة مصر المخروسة.

وفي يوم الجمعة أول مايو توجه صباحاً لمقابلته الملك الذي كان يستقبل أكابر الدولة لمناسبة عيد دولته الفخيمة فأهدى الملك إليه بعد المقابلة نيشان (الجيون دونور) من درجة جران كوردون فشكره سمو الأمير على هذه الهدية التي دلت على ما بين مصر وفرنسا من المحبة والوفاق الخالصين من كل شائبة، ثم دخل سموه مع جلالة الملك إلى قاعة الإستقبال العمومية وشهد مرور وفود المهنيين مع اختلاف ملابسهم بين ملكية وحرية على اختلاف أجناسهم وأشكالهم، وكان بجانب سموه الدوك دي موبانسيه فكان يعرفه اسم كل من مرّ من أمامهما ولما وقع نظره على المسيو تيرس، الذي كان وزيراً لفرنسا في سنة ١٨٤٠ ولم يقدر على مساعدة الحكومة المصرية على المقاومة وعدم قبول الشروط التي عرضتها عليه الدول، كما مر ذلك في بابه، تغير وجه سموه واستشاط غضباً وود أنه لم يوجد في هذا الإحتفال حتى لا يرى وجه هذا الرجل الذي بسوء سياسته أوجب الويل للأمة المصرية.

وبعد انقضاء رسوم التشريفات الملوكية عاد سموه إلى سرايته وفي المساء توجه سموه لتناول الطعام في مأدبة أعدّها له المارشال سولت وزير فرنسا الأول وبعد انتهاء الوليمة توجه سموه مع جناب الوزير وسائر المدعوين إلى السراية الملوكية لسماع نغمة طقم الموسيقى، الذي أعدته بلدية باريس احتفالاً بعيد جلالة ملكهم وعند منتصف الليل شاهد سموه بحضور الملك وسائر أعضاء العائلة الملوكية السواروخ وحرائق البارود التي أحرقت على شاطئ نهر السين كما هي العادة في المواسم والأعياد فسر سمو الأمير من هذا المنظر البهيج الذي لم يسبق لسموه رؤيته في الديار المصرية.

وفي يوم السبت الموافق ٢ منه زار سموه سراى محكمة الاستئناف العليا وحضر إحدى جلساتها وكان مترجماً اختصاص يترجم له ملخص أقوال الأوبكاتية ويعبر لسموه عما تصدره القضاة من الأحكام ويشرح له كيفية ترتيب المحاكم في فرنسا وكيفية سير الأحكام بها، فشهد سموه بصلاحيته هذا الترتيب للأمم المتقدمة في الحضارة ووعده من معه بإدخاله في الديار المصرية حينما ينتشر التعليم ولو قليلاً بين أبنائها ليعلم كل ماله من حقوق وما عليه من الواجبات^(١) وبعد أن استراح سموه يومى الأحد والإثنين توجه في يوم الثلاثاء ٥ مايو سنة ١٨٤٦ إلى قلعة (فسين)^(٢) ليحضر المناورات العسكرية التى أمر الملك بإجرائها احتفالاً بسمو زائره وكان في انتظاره هناك الدوك (دى نيمور) والدوك (دى موبانسيه) أنجال الملك وأيضاً خمسة عشر ألف جنسدى لإجراء مناورة تمثل واقعة نصيبين ولما وصل سموه صدحت الموسيقى العسكرية بأنغامها الحربية وتحركت العساكر بغاية الإنظام كأنهم شخص واحد وكان سموه متحلياً في هذه الحفلة بنيشان (اللجيون دونور) وراكباً جواداً عربياً فتوجه مع أنجال الملك وكل القواد المدعوين إلى هضبة عالية كانت تشخص مركز العثمانيين ليشاهد هجوم الفرقة المعنية للإستيلاء على هذه الهضبة وبعد أن هجمت هذه الفرقة مرتين تمكنت بمساعدة الطوبجية من احتلالها كما حصل في واقعة نصيبين.

فسر سموه من نظام العساكر الفرنسية وتدرجهم على الحركات العسكرية وشهد بأن هؤلاء الجنود لو وجدوا من يحسن قيادتهم لا يهزمون أمام أى عدو كان لأنهم مستوفون عدة وعدة، ولما انتهت المناورة في نحو الساعة الرابعة بعد

(١) لقد حقق سمو خديويينا المعظم محمد توفيق الأول ما تمناه ووعده به جده الكريم قبل الآن بنحو خمس وأربعين سنة بإنشاء المحاكم الأهلية وتمعيمها في كل البلاد المصرية مما كان مسبباً في أمن الإيمان على ماله وروحه ومن ألا تعبت بحقوقه أيدى الإعصاف وتغلب بها أهواء الأغراض ولذلك حق على كل مصرى أن يشكر سمو خديويينا الأعظم وملكينا الأكرم على من أولانا من المنن والمزايا التي لولا ما جبل عليه سموه من الخصال الطيبة والسجايا الشريفة ما تخلصنا من ربكة الذل ولا حصلنا على المطلوب إلا بعد مرور المنين والأجيال وهيئات هيئات فالحمد لله قد ملأ بين الجليل والحقير في الأحكام بالذلة والإحكام فجاءه الله عن فرعية خيراً ووقاه شيراً ولا زال ممناً بتجعله وأشباهه ورجاله وأحزابه.

(٢) هي قلعة تبعد عن باريس بنحو ستة كيلومترات بناها لويس لوحت ملك فرنسا سنة ١١٨٣ وحوصرت غير مرة بدون أن يتمكن الأعداء من دخولها لمناعتها وكان يحبس فيها من يخشى هربه من أعداء المملكة وهي الآن مدرسة الطوبجية وصارت مستودع المدافع ومهمات.

الظهر زار سموه قشلاقات العسكر وفي الساعة السادسة تناول الطعام في مأدبة أعدّها لسموه ضباط الجند وكانت قاعة الطعام مزينة بالسيف والبنادق يتخللها قليل من الأزهار ولم يعد سموه إلى باريس إلا عند الساعة العاشرة يرافقه في عربته الملكية سليمان باشا الفرنساوي والكولونيل (تسيرو) ياورانسه وفي اليوم السادس منه زار سموه انجمن العلمى (انستيتوت) الكتبخانة الملكية وفي السابع شارف محل الضربخانة وفي الثامن زار الإستيالية العسكرية وخصص اليوم التاسع منه للإطلاع على ما تحويه الكتبخانة من الكتب العربية فلما أطلع عليها اندهش مما وجده فيها من الكتب النفيسة التي ربما لا يوجد لبعضها نسخ أخرى في غيرها من الدول سواء كان في الشرق أو في الغرب وتعجب من اهتمام الدول الأجنبية باللغة العربية أكثر من اهتمام أهلها بها.

وفي اليوم الحادى عشر منه حضر سموه الإحتفال بتوزيع الجوائز على التلامذة المصريين الموجودين إذ ذاك بباريز وكان جمعية سموه المارشال (سولت) رئيس الوزراء والدوك (دى مونبانيه) فسر جنبه من تقدم التلامذة خصوصاً نجله أحمد بيك لأنه كان ماهراً وفي المعارف والفرأ وفي يوم أربعة عشر زار جناب الأمير مدرسة الصنائع والفنون وتفقد كل ما بها من الآلات الميكانيكية وأبدى لأساتذتها بعض ملحوظات استدلوها بها على ما لسموه من توقد الفكر وشدة الذكاء الطبعى ثم في اليوم التالى شرف سموه مجلس الأعيان (سناتو) بمهينة احتفالية يتقدمه جمع من الفرسان وحضر الجلسة بتمامها واستحسن نظام الحكومة الشورية التي منها تستمد القوة الحاكمة آراء الأمة بواسطة مندوبين ينتخبون بالإنتخاب العمومى ليتوبوا عن الأمة في إبداء آرائها واقتراح ما تريده من الإصلاحات أو التغييرات، فلما رأى ذلك ودّ أن يكون بمصر مجلس ينوب عن أهلها لإنارة حاكمها وإرشاده لما يلزم للأمة من الإصلاحات لولا أنه حال دون ذلك عدم تقدم الأمة في معارج التمدن والتهذيب السياسى.

وفي أحد وعشرين مايو سنة ١٨٤٦ شرف سموه محل الخواجات (كريستوفل) المشهورين بإتقان صناعة البلور وكذلك شرف غيره من الخلات الصناعية مما دل على شغف جنابه بالاطلاع على المواد الصناعية والبحث عن أسباب تقدمها بين الأمم الأجنبية وانحطاطها في الشرق، مع أنه لما كانت الدولة العربية في أوج تقدمها في سائر فروع الصناعة وامتيازها بانتشار العلوم بين أهلها، كانت تلك الأمم الغربية التي تدهشنا الآن باستيفائها الأشياء العلمية واختراعاتها الصناعية في حالة التوحش والخشونة البربرية.

وفي يوم ٢٥ منه حضر سموه استعراض حامية مدينة باريس في ميدان (شان دي مارس) وكانت مؤلفة من خمسة وعشرين ألفاً من المشاة وستة آلاف من الخيالة والألأى الخامس من الطوبجية، وصحبه في هذا الإحتفال العسكري الدوك (دي نيمور) وسليمان باشا وغيره من الضباط المصريين السذجين وافقوه ولازموه في هذه السباحة.

سفر إبراهيم باشا إلى انكلترا:

وبعد هذه الإحتفالات والمقابلات عزم سموه على السفر إلى بلاد الإنكليز قبل عودته إلى الديار المصرية فأعدت له الحكومة الفرنسية قطاراً خاصاً لركوبه إلى مدينة (ديب) الواقعة على شاطئ بحر المانش الفاصل بين فرنسا وانكلترا وباخرة حربية لنقله إلى البر الإنكليزي وفي أول يونيو ودع سموه جلاله الملك وجميع أعضاء عائلته.

وفي صبيحة اليوم الثالث منه عزم سموه على مبارحة باريز فركب مع من معه العربات الملكية وتوجه إلى محطة (سان لازار) في موكب حافل بين صفوف الأهالي وصفوف المودعين، حتى وصل المحطة باليمن والإقبال وكان هناك في انتظاره فرقة من الجنود مع الموسيقى لتأدية مراسم الوداع وودع سموه من قبل جلاله الملك أكبر ياورانه، وبعد قليل سار القطار قاصداً مدينة (ديب) على

طریق روان^(۱) ولم تستوقفه هذه المدينة مع ما لها من الشهرة التاريخية والآثار القديمة بل سار تَوّاً إلى مینا (دیب) فلم يجد الباخرة التي كانت بانتظاره لعدم تمكنها من الدخول إلى المینا بسبب جزر البحر بل كانت في فوضة صغيرة بالقرب من مینا دیب تدعى (تریور) فتوجه إليها سموه وفي الساعة السادسة من يوم ٤ يونيو أطلق الریان البحار للسفينة فشقت عباب البحر بسرعة عجيبة ووصلت مینا (بورت سمارت)^(۲) في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي وقد احتفل الإنكليز بإبراهيم باشا عند نزوله إلى البر احتفالاً باهراً وكان في انتظاره على المینا الأمیرال (تشارلس أوجل) حکمدار المینا وجميع ضباط الحامية ورئيس البلدية وقد عين الماحور (کولنود دیکسن) من الطوبجية لمرافقته أثناء إقامته في بلاد الإنكليز وإنما انتخب لتضلعه في اللغة العربية وليستغنى سمو الأمير به عن ترجمانه ثم توجه بصحبه الأمیرال إلى دیوان البحرية (أدمیرالتي) وبعد أن استراح برهة ركب سموه إلى المزل الذي أعد لإقامته وحاشيته.

ولما وصل سموه حضر رئيس وأعضاء البلدية بملابسهم الرسمية والتمسوا بمقابلته فأذن لهم بذلك ولما استقر بهم الجلوس قام الرئيس وخطب خطبة هنا بها جنباه بسلامة الوصول، وشكر فيها والده على تسهيل التجارة بين انكلترا ومستعمراتها الهندية حتى في أثناء الحرب بينها وبين مصر فتشكر له سموه بعبارة وجيزة عن هذه الزيارة وما قاله من المدح في حق والده.

وبعد أن أقام سموه يوماً في (بورت سمارت) سافر قاصداً مدينة (لندن) عاصمة بريطانيا العظمى فوصلها في يوم ٨ يونيو سنة ١٨٤٦ قبل الظهر وتوجه تَوّاً إلى (أوتل ميفار) الذي كان استأجره سموه لإقامته مع حاشيته وفي الساعة

(^۱) هي مدينة عظيمة تبعد عن باريس بمسافة ١٣٧ كيلومتراً وبها آثار قديمة أشهر ما فيها كنيسة بنيت في القرن الثالث للمسيح عند ابتداء انتشار الديانة المسيحية بفرنسا ومما يجعل لها شهرة تاريخية لا تمحوا أدهور محالمة الفتاة (جان دارك) وتنفيذ الحكم عليها بالإعدام حرقاً سنة ١٤٣١ بمعرفة الإنكليز الذين كانوا في هذه الأصر الوسطى في حرب دائم مع فرنسا.

(^۲) هي أعظم موانئ انكلترا ووقعة على بحر المانش وبها ترسانات مهمة وحياض متسعة لتصير المراكب الحربية ويقال أن مینا تمنع كافة سفن انكلترا الحربية وبها مدرسة بحرية ويبلغ عدد سكان هذه المدينة زهاء مئة ألف أغلبهم من عائلات ثبوتية وكثت تعرف عند الرومانيين بالمینا الكبرى (بورتوس مجنوس).

الثانية بعد الظهر حضر اللورد (ابردين) وزير الخارجية وقابله مقابلة سرية استمرت مدة طويلة لم يعلم ما قيل في خلالها ثم زار سموه الكولونيل (كامبيل) الذي كان قنصلاً في مصر ثم حضر السير (روبرت بيل) الوزير الأول والدوك (دي ولنجتون) قاهر (نابليون الأول) في واقعة (وترلو) والبرنس (جورج دي كامبردج) وأخيراً الكومودور (سير تشارلس نابير) الذي اشتهر بضربه سواحل الشام كما مر، وقيد الكل أسماءهم في دفتر المقابلات لأن سمو الأمير إبراهيم باشا لم يمكنه مقابلتهم نظراً لما تحمله من مشاق الأسفار.

وفي اليوم التالي الموافق ٩ منه ذهب سموه وضباطه إلى سراي (باكتهام) لمقابلة البرنس ألبرت^(١) زوج جلاله الملكة فيكتوريا، وجربا على ما هو متبع في المقابلات الإنجليزية لم يؤذن بالدخول مع إبراهيم باشا لمقابلة البرنس ألبرت لأحد من الضباط المصريين، لكن بطريق الإستهاء أذن لسليمان باشا بذلك فقابلهما البرنس بكل بشاشة وترحاب وهنا سمو الأمير إبراهيم باشا على وصوله وتغنى استمرار علائق الحبة والمودة بين الحكومتين الإنكليزية والمصرية وبعد انتهاء المقابلة ذهب الأميران معا إلى ميدان (سانت جيمس بارك) لحضوره استعراض الجنود، فوجدا بالباب الدوك (ولنجتون) وأركان حربه فقدمهم البرنس ألبرت إلى إبراهيم باشا وسليمان باشا ثم توجه الجميع بين صفوف الأهالي إلى محل الإستعراض وكان الأمير إبراهيم باشا يستجلب أنظار الحاضرين بكسوته الإرجوانية المزركشة بالذهب ونيشان (اللعجيون دونور) وبعد انتهاء الإستعراض عاد الأميران إلى سراي (يوكنهام) والمتفرجون يصفقون سرورا واحتفالاً إلى أن وصلا إلى السراي فعاد إبراهيم باشا إلى القندق.

(١) ولد هذا البرنس سنة ١٨١٩ وهو ابن البرنس أرنست دوك سكس كويور وتذهب في ألمانيا ثم تزوجته الملكة فيكتوريا سنة ١٨٤٠ ورزقت منه ثمانية أولاد ولم يتدخل قط في الأعمال السياسية بل اجتهد في استمالة الأهالي إليه بمساعدته كافة المشروعات الأهلية وحمائته لأرباب الفنون والصناعات ثم منحه البرلمان الجنسية الإنكليزية وتعين قنصلاً مارشالاً وعضواً في المجلس لخصوصي وتوفي سنة ١٨٦٦ مسوقاً عليه من أهله ونوبيه وجميع من عرفه.

وفي يوم ١١ منه توجه سموه لحضور الإحتفال المعلن لتوزيع الجوائز على كل من حاز هصب السبق في ميدان الفنون اللطيفة وبعد عودته قدم له سليمان باشا المسيو (أو كوكيل) زعيم الارلانديين^(١) وبعد أن زارا كثيراً من اللوردات ووزراء الدولة الإنكليزية سافر من لندن في الساعة الخامسة من ظهر ذلك اليوم قاصداً (برمنجهام) و (منشستر) وغيرهما من المدن الصناعية أو التجارية للبحث عن أسباب ثروة الأمة الإنكليزية وإدخال بعض هذه الصنائع لمصر خصوصاً ما توجد فيها مادته الأصلية مثل القطن والحرير وغيرهما.

ولا حاجة لنا بذكر تطواف سموه بالتطويل خوفاً من الإطالة، وبكفينا أن نقول أنه ساح كافة بلاد بريطانيا واسكتلاندا وارلاندا الشهيرة ثم عاد إلى لوندرة في اليوم الخامس من شهر يوليو سنة ١٨٤٦ وبعد أن قضى يومه وليته في الإستراحة، خرج مع بعض حاشيته وطاف خفية في أهم شوارع المدينة ثم الحارات التي يسكنها الفقراء وتعجب من وجود كثير من الفقراء في ضنك شديد بين أفراد هذه الأمة التي بلغت أعلى الثروة وأعلى الغنى، يسكنون أماكن لا تليق بسكنى البهائم مع وجود القصور الباذخة بجوارها مما يزيد في إظهار حقارة هذه المساكن الرثة، وعند عودته وجد العربات الملوكة في انتظاره ليتوجه إلى سراى باكنجهام لمقابلة جلاله الملكة فكتوريا فذهب تَوّاً إلى السراى وقابل الملكة لمقابلة خصوصية استمرت ساعتين من الزمن ثم عاد ثانياً إلى السراى في نحو الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم (٦ يوليو سنة ٤٦) لتناول العشاء على المائدة الملوكة فكانت الملكة تلاحظه في أثناء الطعام وتساله عن صحة والده وعن حالة بلاده وتشكره على مساعدة حكومته للتجارة الإنكليزية وتمت دوام المحبة بين حكومتها والحكومة المصرية.

(١) ولد هذا الرجل الشهير سنة ١٧٧٥ من عائلة عظيمة وتعلم فن المحاماة وقبل محامياً سنة ١٧٩٨ فذاع صيته ودخل في الجمعيات الساعية في تحرير أرلندة وطنه وفي سنة ١٨٢٨ انتخب عضواً في مجلس العموم ولكنه لم يقبل لحم قبوله أداء اليمين فتقروني لمخالفته لمذهبه للكتوليكي ولم يدخل مجلس العموم إلا في سنة ١٨٣٠ بعد ما تغيرت صورة اليمين واشتهر بعد ذلك بخطباته وكتابه طلباً لفصل أرلندة عن الحكومة الإنكليزية وتوفي سنة ١٨٤٧.

وفي صبيحة اليوم السابع سافر من طريق مُر التيمس الذى يمر بمدينة لندن إلى مدينة (جرينويتش) حيث زار المستشفى البحرى المقام هناك لإقامة من يصاب من البحارة الإنكليزية بعاهاث تمنعه عن الإكساب وكان تأسيس هذا المستشفى فى سنة ١٦٩٦، وهو أشبه شئ يسرى الأنفاليد بفرنسا التى مرت الإشارة إليها.

وفي مساء ذلك اليوم أعدت له شركة الهند الشرقية^(١) مأدبة فاخرة قام فى ختامها أحد أعضائها وشكر الحكومة المصرية على مساعدة هذه الشركة فى جميع أعمالها وفى يوم ١١ يوليو صنع حاكم مدينة لندن (اللورد مايور) مأدبة عظيمة لإبراهيم باشا فى دار الحكومة (مانسن هوس) ودعا إليها نخبة رجال الحكومة وكان من جملتهم اللورد جون رَسَل فألقى فى ختام المأدبة خطاباً مطولاً أبان فيه ما يعود على مصر من مصافاة انكلترا واتخاذها خليفة.

وفي يوم ١٣ أولم لسموه اللورد بالمرستون. وكان المدعون قسليين وقاسل اللورد سموه من الباب كما قابله اللورد مايور وفى انتهاء الوليمة قال اللورد بالمرستون مقالة أنيقة لم يخرج فيها عن موضوع خطاب اللورد جون رَسَل.

عودة إبراهيم باشا إلى مصر:

وكانت هذه الوليمة خاتمة الإحتفالات التى أقيمت فى بلاد الإنكليز إكراماً للأمير إبراهيم باشا وحاشيته ففى الساعة السابعة ونصف من صباح يوم ١٤ منه قصد سموه محطة السكة الحديدية بين صفوف المودعين وبعد أن قام له بواجب الوداع كل من حضر، وخصوصاً القائم بأشغال الدولة العليا المدعو

(١) لسن هذه الشركة بعض تجار لندن سنة ١٥٦٠ قصد تبديل التجارة مع البلاد الهندية وفى سنة ١٦٢٤ منحها البرلمان الإنكليزى حق احتكار التجارة فى هذه البلاد ثم أبطله كلية فى سنة ١٨٢٣ وبعد أن استحالته هذه الشركة من تجارية إلى سياسية واشتغلت بإدارة البلاد الواسعة التى فتحها إدارة مستقلة تحت حماية مرالبة الحكومة الإنكليزية واشتغلت من ثم فى فتح ما بقى من هذه البلاد ففتحها حتى جبال (همالايا) وفتحت جزءاً غير قليل من بلاد الهند فسينية ثم ألغيت هذه الشركة سنة ١٨٥٨ عقب ثورة الجنود المولفة من سكان البلاد وصارت من ذلك العهد تابعة للحكومة الإنكليزية كبقية المستعمرات.

أديب أفندى، سافر سموه على القطار البخارى إلى فرضة (جبرت) فوصلها في نحو الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم ثم ركب الباخرة الإنكليزية (افتحز) وسافر توتاً إلى بوغاز جبل طارق. لذا العودة إلى وطنه بمرأً وكان معه كثير من العمال الإنكليز الماهرين في صناعة الأقمشة القطنية لإستخدامهم في القابريقات التى أنشأها والده في مصر ومقدار عظيم من الآلات الميكانيكية، وعدد وافر من الطيور الداجنة كان اشتراها من جمعية لنسدن الحيوانية لإستكثارها في القطر المصرى.

ولما وصل سموه أمام مدينة لسبون (لشبونة) عاصمة البرتغال أراد أن يزل إلى البر لمشاهدة المدينة وزيارة ملكها وكان ذلك في ٢٣ يوليو سنة ١٨٤٦ لكن لمناسبة وضع الملكة غلاماً وإقامة صلاة احتفالية في كنيسة لسبون الكاثدرائية لم يتيسر للأمير إبراهيم باشا مقابلته في سرايته، لأنه كان توجه إلى الكنيسة لحضور الإحتفال فتوجه الأمير إليه هناك للتفرج ثم ركب البحر وسار إلى جبل طارق ورسا قليلاً بمينا كادكس (قادس) بإسبانيا والبوغاز، ثم استمر في سيره إلى أن وصل جزيرة مالطة^(١) فحيته الحامية الإنكليزية بإطلاق مدافعها من قلاعها ومن سائر السفن الراسية في الميناء. وفي الساعة التاسعة من صبح اليوم الخامس من شهر أغسطس سنة ١٨٤٦ رست السفينة المقلّة لجناحه في مينا الإسكندرية فقابله أخوه سعيد باشا الذى كان وقتئذ حاكم المدينة وجميع القناصل وأمور والحكومة وزينت المدينة إجلالاً لجناحه السامى ثم في اليوم التالى سافر إلى القاهرة على طريق النيل فوصلها متمتعاً بالصحة التامة متفكراً فيما رآه في سياحته من عجائب الأمور وفيما يمكن إدخاله في مصر من الصنائع والفنون لإستغنائها عن واردات أوربا وزيادة رفاهية سكانها.

(١) هذه الجزيرة صغيرة لا يزيد طولها عن ٢٨ كيلومتراً ويبلغ عرضها ١٦ كيلومتر وهى ذات أهمية عظيمة حربية من الدرجة القصوى لوقوعها في منتصف البحر المتوسط بين جبل طارق والإسكندرية ولأهمية مركزها تتار عنها الأمم من فينيقيين وقرطاجيين وعرب وغيرهم إلى أن وهبها شارلكن أمير لطور ألمانيا وملك إسبانيا في القرن السادس عشر لإحدى طوائف الرهبان المعروفة بشغالية مالطة وبقيت مهمهم إلى سنة ١٧٩٨ فاحتلها بونابرت أثناء مجيئه إلى مصر ثم دخلها الإنكليز سنة ١٨٠٠ وثبتت ملكهم لها بمعاهدة فيينا سنة ١٨١٥ ولم تزل تابعة لهم إلى الآن وقد حصنوها حتى صارت من أهم نقطتهم الحربية لوقعة على طريق الهند.

هذا ولم يكن والده محمد علي باشا بمصر حين عودته بل كان قد توجه إلى القسطنطينية في شهر يوليو من هذه السنة ليقوم بواجب العبودية إلى سدة الخلافة العظمى، وليظهر لأوروبا أنه ما زال محافظاً على الولاء لجلاله السلطان الأعظم أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وليزيل ما كمن في صدور أكابر الدولة ووزرائها من الكراهة والبغض له.

ثم عاد منها بالتحية والإقبال في صبح ١٤ أغسطس سنة ١٨٤٦ إلى الإسكندرية وأطلق من قلاعها مائة مدفع وواحد ايذاناً بوصول سمو أمير البلاد وممّدن العباد.

ولما عاد إبراهيم باشا إلى مصر عاد له المرض واشتد عليه وهو مرض الإسهال (الدوستاريا) فأمره الأطباء بالسفر إلى جزيرة مالطة ومنها إلى شواطئ إيطاليا الشهيرة بمجودة أهواء فسافر في شهر أكتوبر سنة ١٨٤٧ وبأراح الإسكندرية في ٩ منه.

وفاة إبراهيم باشا ووالده:

وفي أثناء هذه المدة ظهرت على محمد علي باشا علامات الهرم وضعفت قواه الجسمية والعقلية، فأشارت عليه الأطباء أيضاً بالسفر خارج القطر لترويح النفس وإستراحتته من أتعاب الإدارة وأوصاب الحكومة فإذعن لمشورتهم وسافر من الإسكندرية في أوائل فبراير سنة ١٨٤٨ قاصداً جزيرة مالطة فأحسن الحاكم الإنكليزي مقابلته وأكرم وفادته وسافر منها قاصداً مدينة نابولي حيث كان هناك ولده إبراهيم باشا، وفيها وصل إليه خبر ثورة أهالي فرنسا على ملكهم لويز فيليب وعزهم إياه ومناداتهم بالجمهورية، فحزن لذلك محمد علي باشا لما كان بينهما من علائق المودة واخبة ونقل عليه المرض وازدادت قواه العقلية ضعفاً حتى التزم الأطباء المرافقون له بإرجاعه إلى الإسكندرية فوصلها في

أواخر شهر مارث سنة ١٨٤٨ وتبعه ولده إبراهيم باشا فأقام والده بسرأي رأس التين ومعه أحذق الأطباء.

وعاد هو إلى مصر وعقد ديواناً تحت رياسته لإدارة أحوال الحكومة مسدة مرض والده وأرسل بذلك إلى دار الخلافة فورد في منتصف شهر يوليو سنة ١٨٤٨ مندوب يدعى مظلوم بيك من قبل الخليفة الأعظم ومعه أمر بتولية إبراهيم باشا مكان والده إلى أن يشفى فلم يحتفل احتفالاً كلياً بهذا المندوب لمرض أبيه وانتشار الوباء في أنحاء القطر. وفي أواخر شهر يوليو سنة ١٨٤٨ سافر إبراهيم باشا مع هذا المندوب إلى القسطنطينية للمثول بين يدي الحضرة السلطانية واستلام فرمان التولية من يدها الشريفة وكان سفر سموه إلى جزيرة رودس على إحدى الدوارع المصرية تخفّره الدوناخمة المصرية بتماهما ومنها ركب سفينة عثمانية كانت في انتظاره فوصل إلى إسلامبول في ٢٥ أغسطس وتشرف بالمثول لدى السدة العلية ونال منها كل رعاية والتفات، لكنه لم يلبث أن عاوده المرض فأسرع بالرجوع إلى مصر إتباعاً لمشورة الأطباء فسافر من القسطنطينية في ٣ سبتمبر سنة ١٨٤٨ على إحدى السفن العثمانية فأوصلته إلى جزيرة رودس، وكان في انتظاره السفينة المصرية (بنى سويف) فركبها ووصل نهر الإسكندرية في ٩ سبتمبر سنة ١٨٤٨ وكانت قد خفت وطأة الوباء بعد أن أهلك عدداً عظيماً من الأهالي، وبعد أن زار والده في سراي رأس التين عاد إلى القاهرة وجمع بالقلعة ديواناً عظيماً من علماء البلد وأعيانها وقناصل الدول وتلا فرمان العلي الشأن المؤذن بتوليته على أريكة الحكومة المصرية وأطلقت المدافع ايذاناً بذلك واستبشاراً بما هنالك، واستمر سموه قابضاً على أزمة الحكومة والأحكام إلى أن اخترعته المنون في ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ وكانت ولادته في مدينة قوله سنة ١٧٨٩ فتولى بعده عباس باشا ابن أخيه طوسون باشا.

وكانت وفاة محمد علي باشا في يوم ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ عن ثمانين سنة قضاه في تحسين القطر المصري وتخليصه من أعدائه الممالك وفتح الكثير من البلاد وإجراء الإصلاحات مثل فتح المدارس وإنشاء الترغ والجسور وتأسيس الورش والفابريقات، فمات رحمه الله مأسوفا عليه من كل مصري حرّ الرّعة وسنأتى في الباب التالى على بيان ما فعله من الإصلاحات، بدون اختصار محل ولا تطويل مل، ليحظى القراء بما لهذا الشهم العظيم من الأيادى البيضاء على وطننا العزيز الذى كان مضغة في أفواه الممالك يستزفون ثروته ويضعفون قوته بفعالهم ما لا خير فيه، مما أتينا في صدر هذا الكتاب على بعضه لأن استقصاء ما ارتكبه في مصر من المظالم واخرمات يستلزم المجلدات الضخمة بل يتعسر حصره فعلى من يريد الوقوف على أعمالهم أن يطالع الكتب المطولة في فن التاريخ فإنها كثيرة لا تحصى وأسمارها لا تستقصى.

١٠ - خاتمة

فيما فعله محمد علي باشا من الإصلاحات والتأسيسات

أن أول ما شرع فيه محمد علي باشا رحمه الله ممدّن مصر من الإصلاحات ليعيد إليها مجدها الأثيل تأسيس المدارس لبث العلوم والمعارف بين المصريين الذين هجر وطنهم العلم، فأخذ العزيز في إحياء المدارس بعد أن كانت فيها دوارس وأعاد العلوم إلى وطنها ومرباها ليستضاء بمسراها، فأسس مدرسة الطب بأبي زعبل بناء على طلب الدكتور كلوت بيك الفرنسي سنة ١٢٤٢ هجرية (١٨٢٦م) وأتى لها بالأساتذة من البلاد الأوروبية وذلك أن كلوت بيك أظهر غمده على باشا احتياج البلاد لتأسيس هذه المدرسة لاستغنى عن الأطباء الأجانب، وليوجد بمصر أطباء كافية للجيش البرية والبحرية وقدم له بذلك تقريراً إضافياً قال في آخره يجب أن يكون بمصر مدرسة طبية تكون تلامذتها من الوطنيين المخلصين الذين يغارون على بلادهم ويحسون تقدم وطنهم وارتقائه في سلم التمدّن والعمران، ويتوصل لذلك بإنشاء استبالية عمومية يتعلم فيها مائة وخمسون شاباً ممن لهم إلمام بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة ومبادئ الحساب ويلزم أن تدرس لهم اللغة الفرنسية وأنواع الطب بفروعه سيما الجراحة وتكون مدة الدراسة أربع سنوات يختار التلامذة في آخر كل سنة منها، فسر الباشا من هذا المشروع وأصدر أوامره بتأسيسها وجعلها تحت رئاسة كلوت بيك.

وجعل أيضاً مدرسة للطب البيطري وولى رياستها للموسيو هامون الفرنسي، ومدرسة المهندسخانة ورئيسها (لامبريك) الفرنسي، ومدرسة للموسيقى، وأخرى لتعليم الصنائع والفنون، وهذا كله غير المدارس الابتدائية والتجهيزية التي أنشئت في أنحاء القطر المصري ومدرسة الألسن بناء على طلب

العالم الفاضل رفاة بيك فقد جاء في الخطط المصرية لعلى باشا مبارك في ترجمة
اليك المذكور ما نصه:

عرض رفاة بيك للجناب العالى أنه في إمكانه أن يؤسس مدرسة لتعلم
اللغات الأوروبية ويمكن أن يستفيع بها الوطن ويستغنى عن الدخيل فأجابه إلى
ذلك ووجه به إلى مكاتب الأقاليم لينتخب منها من التلامذة ما يتم به المشروع
فأسس المدرسة وفي المدة المعينة امتحنت التلامذة في اللغة الفرنسية وغيرها من
العلوم المدرسية، فظهرت نجابة التلامذة، ثم شكل بها قلم ترجمة ترجم فيه كثير
من الكتب. وكان بهذه المدرسة قسم تجهيزى خاص وهو أيضاً تحت رياسته
وكان معلموها من تلامذه مدرسة الألسن فنبغ منها رجال بارعون في
الإنشاءات العربية نظماً ونثراً وفي العلوم العربية كذلك، ثم ألفت هذه المدرسة
مع غيرها من المدارس في مدة المرحوم عباس باشا.

وأنشأ أيضاً مدرسة لتعليم الزراعة العلمية والعملية ببلدة قديمة تدعى (نبوه)
من مديرية الغربية، وأتى لها من البلاد الأوروبية بالمعلمين وآلات الفلاحة
المستعملة في بلادهم وجعل فيها من شبان المصريين ٤٠ تلميذاً للدراسة فن
الزراعة الذى عليه مدار الثروة في سائر البلاد وإتقان هذا الفن النفس علماً
وعملاً، وكذا صناعة استخراج السمن والجن من اللبن واعتنى العزيز بتلك
المدرسة وذهب إليها بنفسه وكان يؤد نجاحها، لكن الأهالي والحكام كانوا لا
يرغبون في هذه الإصلاحات وينسبون إليها عدم الفائدة وأنها لا تساوى ما
يصرف عليها ومع ذلك لم يحصل لهتمته فتور حتى كثر اللغظ بزيادة مصاريفها
وعدم ظهور نتيجة منها ولما رأى ناظرها المسيو (جران جان) عدم رضا الأهالي
عنها، استقال من وظيفته وخلقه فيها شخص أرمنى تربي في فرنسا فبغ أهواء
الأهالي وعوائد المزارعين فاضمحلّت المدرسة بالكلية وكان ذلك داعياً إلى نقلها
لشبرا الخيمة لتكون تحت نظر الموسيو (هامون) ناظر المدرسة البيطرية، فأجهد
في ترتيبها وإتقان التعليم فيها على أسلوب المدارس الفرنسية، لكن لم يستع

المعارضون عن معارضته ولم ينتظروا حسن النتيجة فاضمحل حالها ودرس أمرها ولم تأت بالثمرة المطلوبة.

وأسس أيضاً المدارس الحربية منها مدرسة المشاة (بيادة) وكانت بمدينة دمياط ومدرسة الخيالة بسراى مراد بيك الكبير ورئيسها المسيو (فاران) من ضباط الجيش الفرنسي ومدرسة الطوبجية بمدينة (طره) بالقرب من القاهرة ومؤسسها الكولنيل (سيجرا) الإسبانيولى.

ولم يكتف العزيز بإنشاء المدارس في كافة أنحاء القطر المصرى وتأسيس المدارس العليا بالعاصمة، لعلمه أنه يكون هذه الطريقة دائماً محتاجاً لمعلمين من الأجانب ما دام لم يكن لديه من المصريين من يقوم مقامهم في المستقبل فتكون مصر بسبب ذلك ملزمة باستخدام الأجانب في حكومتها، اضطر إلى إرسال عدد عظيم من شبان المصريين إلى أوروبا عموماً وباريس خصوصاً لتلقى العلوم بها لما اشتهرت به مدارسها من اتساع المعارف ودقة التعليم. ولا يخفى ما كان في ذلك من مخالفة عوائد الأهالى الذين لم يفقهوا ولم يعلموا ما ينجم عن هذا المشروع من تقدم وطنهم بالنفع العميم فأخذوا يندبون حظ أولادهم الذين ساعدتهم الحظ الأوفر بدخولهم في جملة من اختار للسفر وصاروا يستعملون كل الوسائط لحرمان أولادهم من ثمرة التعلم والتعليم لكن لم يفد بكأزمهم ولا انتخايم شيئاً، بل صمم العزيز على إخراج مشروعه من حيز الفكر إلى حيز العمل مراعيّاً في ذلك منفعة البلاد والعباد متيقناً أنهم يكونون عوناً له ولمن يسمو أريكة الولاية من بعده على الإصلاح والتقدم في سبل الفلاح بقلب ثابت وعزم شديد.

فأرسل في أوائل سنة ١٨٢٦ أربعين تلميذاً وفتحت لهم مدرسة خصوصية عهدت إدارتها إلى المعلم الشهير الموسو (جومار) فقام بما عهد إليه خير قيام، ورتبها ونظم دروسها وعين لها مهرة الأساتذة وخص كل واحد من التلامذة بفن معلوم لشدة إتقانه، فقد جاء في كتاب الموسو (هامون) نقلاً عن تقرير

تقدم من الموسو (جومار) إلى محمد على باشا سنة ١٨٢٨ أنه خصص من التلامذة اثنين للعلوم السياسية، وكان يدرس لهم قانون حقوق الملل والإقتصاد السياسى وأكثر اللغات الأوروبية المستعملة في السياسة، ويسوحوون بلاد أوروبا للوقوف على عوائد أهلها ونظاماتها الداخلية والخارجية وحالاتها الإقتصادية وأربعة للإدارة العسكرية وثلاثة للبحرية يدرسون العلوم الهندسية للدخول في إحدى المدارس الحربية أو البحرية، وثلاثة أيضاً للعلوم الميكانيكية يتعلمون الهندسة العملية ويتدربون في المعامل والفابريكات ويتعودون على بعض الأشغال اليدوية، وكذلك فرقة لفن الطوبجية والإستحكامات وخص منهم عدداً عظيماً لدراسة الكيمياء الصناعية لاسيما ما يتعلق بالصباغة وعمل الزجاج والقيشاني وصناعة السكر، لكونوا مدربين على المعامل التي أنشئت بمصر كما سيجي، وفريقاً لصناعة الطبع والرسم والحفر في الحجر والخشب لأعمال الخراط الجغرافية والرسومات اللازمة للكتب العلمية وبعضهم للزراعة العملية التي هي من أهم العلوم والفنون بالنسبة لمصر واتساع أرضها وخصوبتها.

وكانوا يبحثون عما يمكن إدخاله في القطر المصري من الأشياء التي توافق تربتها من أنواع الثمار ويشغلون أيضاً بالتاريخ الطبيعي وقليل من علم البيطرة، ومنهم من تخصص لدرس المعادن وكيفية استخراجها وذلك للبحث عما عساه يوجد بمصر من المعادن وخصوصاً الفحم الحجري والحديد حيث كان محمد على باشا باذلاً جهده في استكشافهما في مصر، لعلمه بأهمية روح الصناعة والتجارة والملاحة وبما تقدمت الأمة الإنكليزية عن غيرها من الأمم وصارت ملكة البحار.

ثم في سنة ١٨٣٢ أرسل أيضاً إلى باريس ١٢ تلميذاً من مدرسة الطب لإتمام دروسهم وأرسل غيرهم إلى أن بلغ عدد من أرسل من المصريين إلى سنة ١٨٤٢ مائه تلميذ.

ثم أنشأ العزيز للوازم الخيالة وتحسين نوع الخيل في القطر المصري اصطبلات لتربية الخيول واستنتاجها وقد قال الموسو (هامون) الذي كان ناظراً على مدرسة البيطرة والإصطبلات في زمن المغفور له محمد على باشا في كتابه السدى ألقه على مصر أنه لما تولى العزيز على مصر، لم يكن بها من الخيل إلا القليل غير الكافي بمحاجات الزراعة والجند لكن لما اجتهد رحمه الله في شأن إخماء الزراعة وتوسيع نطاقها والأخذ في تجنيد القدر العظيم من العساكر الخيالة جمع سموه عدة من جياذ الخيل ذكوراً وإناثاً وأنشأ لها اصطبلات بقرب القاهرة ثم نقلها بجوار سراية شبرا، فلم تحصل النمرة المقصودة بل كان نتاجها يموت أو يتعصب من كثرة الأمراض، ولما كان المسيو (هامون) المذكور ناظراً على مدرسة البيطرة بأبي زعبل أمره العزيز بالتوجه إلى اصطبلات شبرا وتفقدتها وتحرير تقرير عما يراه لازماً لها من الإصلاحات حتى تأتي بالنتيجة التي أنشئت لأجلها، فتفقدتها وقدم للعزيز تقريراً بما رآه لازماً لها من التحسينات فكلفه الباشا بإجراء كل ما يجده موجباً لنجاحها فتولى إدارتها وبنى لها محلات جديدة مستكملة للشروط الصحية ورتب لها كافة ما يلزم لها من المأكول والمشرب، فتنجت وكثر عدد خيولها وأنشأ اصطبلاً آخر بقرب (نيروه).

ثم لما رأى الأعيان والأمراء وأعضاء عائلة الباشا رغبته في تكثير الخيل واعتنائه بأمرها رغبوا فيها وأكثروا من اقتنائها وتنافسوا في تخييرها، فسمو إبراهيم باشا السر عسكر كان له اصطبلات بجوار قصر النيل وفيها أربعمائة فرس تقريباً جميعها من الصافات الجياذ، وكذا كان لعباس باشا اصطبلات بالقرب من المطرية أغلبها من كرائم خيل العرب وكذا كان عند كثير من الأمراء والأعيان اصطبلات وفيها خيول جيدة، فكان لأحمد باشا يكن اصطبل فيه نحو ثلاثين فرساً وأيضاً لما كان إبراهيم باشا ببلاد الشام أرسل إلى مصر العدد الكثير من إناث الخيل الشامية ففرقت في البلاد المصرية.

وكذلك أنشأ للوآزم الجيش عموماً معامل لصناعة البارود والبنادق وسبك آلات المدافع وعمل الأحذية والملابس الضرورية للجيش حتى أصبح جميع لوازم الجندي من سلاح ولباس يصنع بالقطر المصرى على نفقة الحكومة تحت ملاحظة الأوروبايين الذين استدخلوا هذه الغاية الجليلة.

ولم يكن اهتمام العزيز محمد على باشا بالبحرية أقل من اهتمامه بالعساكر البرية فأنشأ بينا الإسكندرية ترسانات لصناعة السفن التجارية والحربية، وكان الرئيس عليها رجلاً وطنياً يقال له الحاج عمر وكان من الخداقة والنباهة على جانب عظيم لكن لما دمرت أغلب السفن المصرية في واقعة ناوارين الحربية وشرع العزيز في عمل دونائة أخرى استحضر من فرنسا المهندس الخاذق الماهر الموسيو سريزى بيك لتعميق الترسانة ليكون بها من المياه ما يكفى لحمل السفن الكبيرة المزمع على إنشائها ثم أخذ في تأسيس ورش مخصوصة لقتل الحبال وصناعة الحديد وعمل الصواري والقلوع وكافة ما يلزم للسفن وفي أثناء هذه الأعمال جمع من جهات الأرياف العدد الكافى من شبان الأهالى لتعلم هذه الصنائع تحت مراقبة معلمين من البلاد الأجنبية فاخص كل فريق بفرد من فروع مصالح السفن حتى أتقنها.

وكانت نتيجة ذلك إتمام عدة سفن في أقرب وقت بين حرية وتجارية مع الإنفاق، بحيث أنها عادت أحسن السفن الأوروبية واستغنت الحكومة بذلك عن شراء سفن من الخارج، نعم كانت الحكومة تشتري كافة ما يلزم لها من حديد وأخشاب من البلاد الأجنبية بأثمان فاحشة لعدم وجودها في بلاد مصر وشدة الإحتياج إليها.

ولم يكن ذلك داعياً لفتور همّة محمد على باشا بل استمر على إنشاء السفن بمصر ولم يصغ لكلام التجار الذين كانوا دائماً يتبطونه عن إنشائها ويدون له مالا مزيد عليه من الصعوبات وكثرة المصاريف، ويدخلون عليه بكل حيلة لينشئ عزمه عن هذه الوجهة الشريفة المبدأ والغاية، وصارت بذلك الدوناغة

المصرية تعادل أو تفوق دونائة الدولة العلية وأحسن السفن الحربية المصرية السفينة المسماة بالخلعة الكبرى والمنصورة والإسكندرية، وكل منها يحمل مائة مدفع، وأما مصر وعكا فإنهما يحملان ٩٨ مدفعاً هذا سوى السفن الصغيرة التي تقل حمولتها عن هذا المقدار وكان عدد من بما من الجند والبحرية نيفاً وخمسة عشر ألفاً بخلاف الصانعين بالترسانة وكان عددهم لا ينقص عن ٤٠٠٠. وبالجملة فقد بلغت مصر في مدته درجة لم تبلغها قط منذ ولاية الرومانيين عليها فكانت قوتها البرية والبحرية على ما جاء في كتاب كلوت بيك تزيد عن ٢٧٦ ألف جندي منها ١٣٠ ألفاً من الجنود المنتظمة و ٤١ ألفاً من الباشبوزق و ١٩ ألفاً وخمسمائة من البحرية والباقي من عساكر الرديف وتلازمة المدارس الحربية.

وغير ذلك كان له اعتناء كلى بإنشاء الإستحكامات اللازمة لحفظ سواحل مصر من إغارة الأجانب عليها كما حصل في سنة ١٨٠٧ فأحضر لذلك المهندسين الحربيين من الأجانب، وكلفهم باختيار المواقع المهمة من جميع السواحل المصرية اللازمة لإنشاء استحکامات بها فأست طبق رغبته العلية وأحضر لها المدافع اللازمة وعين لحفظها العساكر الكافية، فحصنت بذلك مصر وازدادت قوتها أضعافاً حتى قاومت الدولة العلية وبذلك انتصرت مراراً على غيرها، كما سبق ذكر ذلك في محله، وزيادة على ذلك مال كثير من قواد الدولة العلية للإنحياز إلى مصر لما شاهدوا في عزيزها من الكفاءة والقدرة على أجل الأعمال وأنفعها وسلم أحمد باشا فوزى قبودان الدونائة الشاهانية دونائته إليه بما فيها من الجند وكانت مركبة من ٩ سفن كبيرة وستة عشر سفينة صغيرة تحمل ستة عشر ألفاً من الجند البحريين و ٥ آلاف جندي برى، فبالك يظهر جلياً أن الديار المصرية اكتسبت بحسن تدبير عزيزها قوة يمكنها بها أن تقاوم أكثر من دولة حتى اضطرت الدول ليأمنوا على أنفسهم من صولة الديار المصرية أن يتعاهد بعضها مع بعض بإرجاع مصر إلى حدودها الأصلية، كما

رأيت في هذا الكتاب، وفي ذلك أكبر شاهد على قوة فكر العزيز وسعة عقله وعلو همته ومكانة شهامته وحسن تدبيره.

ومن إنشاءات محمد علي أيضاً فابريقات الغزل ونسيج القطن والحريز والكتان والصوف فكان للقطن خاصة ١٨ فابريقة وكانت في أهم مدن القطر، كالمصورة ودمياط ورشيد، إذ كان ينسج فيها قلع السفن والخلعة الكبرى وشبين الكوم وقلوب وزفي وميت غمر في الوجه البحري وبني سويف وأسيوط، وبهما أكبر فابريقات الصعيد ثم في المنيا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا بالوجه القبلي، وأكبر الفوريقات فورية بولاق مصر التي كانت تسمى بفورية ماطة لكثرة وجود الماطية بها وكان رئيسها المسيو (جوميل) الفرنسي الذي اجتهد في نشر زراعة القطن في القطر المصري، وأقدمها الخورنفس بمصر التي أنشئت سنة ١٨١٦ وأنشأ العزيز عدة فوريقات آخر لغزل الكتان وأنشأ أيضاً الميضة بين بولاق وشبرا لتيبيض مقاطع الكتان وبصم أقشة الشيت وكان يصم بها أيضاً المناديل فترغبها النساء كثيراً وفيها أيضاً أنوال النسيج الحرير وقد جعل بها ٢٠٠ نولا لنسيج المقصب وغيره وأحضر لها صناعات من إسلامبول فأثقلت صنعته وصار ما ينسج بمصر يضاهي في الرقة وحسن الصنعة ما يصنع في بلاد الهند ونحوها.

وأنشأ بالقاهرة فورية لقتل حبال المراكب وغيرها من التيل وقد كان هذا النبات مفقوداً من مصر فأوجده بها وأنشأ في بولاق فورية الجوخ أحضر لها في مبدأ الأمر رجالاً فرنساوين أداروها مدة وتربى تحت أيديهم جماعة من شبان المصريين، ولم يكف محمد علي باشا بذلك بل أرسل جملة من الشبان إلى فوريقات سيدان وليون من أعمال فرنسا المشهورة بصناعة الجوخ فعملوا تلك الصنعة وأتقنوها ثم عادوا إلى مصر واستخدموا بفورية بولاق فحسن الجوخ وصار يستعمل في ملابس العساكر، وكان ينسج بها أيضاً أحزمة وسجايد للزوم العسكر ثم أنشئت فورية بمدينة قوه لعمل الطربوش تحت إدارة رجل

مغربي وجلبت لها الشغالة من تونس فنجحت حتى صار المتحصل يوميا ستين درزينة.

ومن إنشاءاته فوريات السكر بالصعيد فأنشأ واحدة في الزيرمون وأخرى بساقية موسى وأخرى بالروضة، ومن ذلك إدخال زراعة النيلة بالقطر المصري فجلب لها عدداً من مزارعي بلاد الهند لتعليم الأهالي وانتشرت زراعتها بالبلاد وكان أغلب محصولها يستعمل في المصايغ التي أنشأها بشيرا وغيرها من بلاد الوجه البحري والقبلي وأنشأ أيضاً معاصر الزيت فكان منها في الوجه البحري مائة وعشرون معصرة لعصر زيت الكتان والسمن وفي القاهرة أربعون لزيت القرطم وعدد عظيم في الوجه القبلي لاستخراج زيت الخس خصوصاً في مديرية إسنا وأخرى لزيت السليج في أخميم وما جاورها.

ولشدة اعتناؤه رحمه الله بإصلاح أحوال مصر ورعاية أهلها لم يكتف بإنشاء المعامل والفوريات بل وجه اهتمامه لإيجاد المواد الأصلية لهذه الصنائع بالبلاد المصرية، فأمر بالإكثار من زراعة القطن والتيل والنيلة وكافة النباتات التي لها دخل في الصناعة، ثم عَنَّ له أن يدخل تربية دود القز إلى الديار المصرية حتى تستغنى به البلاد عما يأتي لها من الشام وغيرها فأمر بإنشاء عدة سواقي وتوابعها باخل المعروف برأس الوادي (شرقية) وأن يزرع شجر التوت اللازم لتغذية الدود وذهب بنفسه إلى هذا الإقليم للإسراع بإنشاء السواقي وإقامة الأبنية اللازمة لسكن المربين من الفلاحين لتعهد الأشجار بالسقي والخدمة، فلم يمس إلا قليل من الزمن حتى كان بما ألف ساقية وغرست أشجار التوت لتربية دود القز والحريز كما هو حاصل في بلاد الشام وجبل السدروز ثم استحضر العزيز من هذه الجهات كثيراً ممن هم إلمام ودراية بتربية دود القز وصناعة الحريز وجمع هم عدداً وافراً من أهالي الشرقية الخالين عن العقار، لتعليمهم وسكنوا في كفور بنيت لهم وزين هذا الوادي بالسواقي والأشجار حتى صار أهلاً للسكنى بعد أن كان قفراً وعراً وقضاء متسعاً.

وقال كلوت بيك في كتابه على مصر أن جميع ما غرس من شجر التوت بجهة الوادى يبلغ ثلاثة ملايين شجرة في جهات متعددة تبلغ مساحتها عشرة آلاف فدان وكان مقدار الحرير المتحصل سنة ١٨٣٣ تسعة آلاف وتسعمائة وخمسة وسبعين أوقه، وكان لذلك أماكن وخدم أتى بهم العزيز من الخارج وتعلم منهم الأهالى وبلغت دواليب الحرير مائتى دولار ثم اضمحل ذلك بعده حتى كان لم يكن ولا يستعمله الآن إلا القليل من الأهالى. اهـ.

ثم أحضر رحمه الله من بلاد أوروبا عدداً وافراً من أغنام أوروبا المعروفة بالمرينوس وذلك لتحسين جنس الأغنام المصرية وتحسين صوفها فإن صوف الغنم المصرية على ما جاء في كتاب هامون الفرنساوى بسبب طوله وخشونته وصلابته كان غير جيد لعمل الجوخ والطرايش والثياب الرفيعة فكان العزيز يشتري سنوياً من صوف غنم أوروبا بقيمة ثمانمائة ألف فرنك.

ووزعت الأغنام الأوروبية في مديرية البحيرة وجعل لها مدير خاص بها وعين لها رعاة من العرب ولكن لقلّة المرعى بهذه المديرية ووجود أغلبها على حافات الترع وفي مواطى الأرض الرطبة تولدت فيها الأمراض، ومع ذلك لم يكن لها ما يقىها حر الصيف وبرد الشتاء حتى مات منها كثير، ثم ذهبوا بها إلى الصحراء لكثرة مرعاها عن غيرها فكان يتعلق الرمل بأصوافها وجلودها فيضر بصحتها وجودة صوفها فلذلك لم تحصل منها الثمرة المقصودة، ثم كلف العزيز الموسيو هامون بالنظر في أحوالها وترتيب ما يوجب صحتها وتحسين صوفها وإكثار نتائجها وأمره بتوزيعها في المديرية البحرية بحيث لم يبق في مديرية البحيرة إلا ألف وخمسمائة رأس منها وصدرت أوامر أيضاً ببناء مراحات بسرباى ومحلة روح والمنصورة وغيرها، فنظر الموسيو هامون في أمرها وسن لها لائحة تتبع في كل جهة وأهم ما بها أن عدد المراح الواحد لا يزيد على ألف ويكون له ناظر أوروباوى وكاتب ليقيد ما يموت وما يولد وجنس الذكر والأنثى وأن يميز

البطون بعضها عن بعض بعلامات تعرف بها كتاج أول بطن يعلم بخزقة في الأذن اليمنى وتاج البطن الثانية في اليسرى إلى غير ذلك من العلامات.

ولرغبته في تحسين الأغنام في كافة أنحاء القطر من تلك الأغنام اشترى من العرب أربعة آلاف رأس وقدرها من الأهالي ووزع في الجهات جملة من ذكور الأغنام المريتوس واستمر الحال على هذا المنوال، وقد قال الموسيو هامون في كتابه أنه وجد منها في القطر المصري سنة ١٨٣٧ ميلادية سنة ١٢٥٣ هجرية ٧٥٤٨ رأساً، ومع بذل الاجتهاد والاهتمام لم يتم غرض العريز من تلك المصلحة لعدم قيام المستخدمين بما عينوا له على الوجه المطلوب، فإنه لم يحصل من صوفها بعد عشر سنين من تجزئتها إلا نحو ستمائة أوقية مع كثرتها وكثرة مصاريفها ولم يستغن عن شراء الصوف من البلاد الخارجية ثم لم يزل حال الأغنام في الإضمحلال حتى لم يكن منها الآن إلا آثار قليلة في بعض جهات الوجه البحري. اهـ.

وأما اهتمام محمد علي باشا بأمور الري الذي عليه مدار الزراعة في القطر المصري فإنه كان عظيماً جداً ولا شك أنه أدرك بقريحته الوقادة وفطنته النقادة أن مدار سعادة مصر بالأصالة هي الزراعة ولا يسوغ لها أن تتوقع ثروة إلا إذا كان من محصولها الزراعي وأن حياتها متعلقة بنيلها، إلا أن أرض مصر أقرب للتلف من غيرها اذهى تابعة للنيل وجوداً وعدمًا فإذا أغمض النيل عنها عينه سنة من السنين أو حجب عنها فيضانه الممزوج بالطمي المخصب الذي هو بالنسبة لأرض مصر بمثابة السماد كانت السنة سنة جذب كما أنه إذا أغرقها بمائه الزائد عن الحاجة كان الضرر أعم والخطب أدهى وأهم، وحسبك في ذلك ما جاء في القرآن الشريف في سورة يوسف عليه السلام من ذكر سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، فالآية قد جاءت في وصف مصر على وجه التحقيق وقوله تعالى "فما حصدتهم فذرهم في سنبله" يرشد إلى الإحتياط والإحتراس ولذلك كان حكماء ملوك مصر يحتاطون في سقى الحصب فلا يخرجون الزائد

عنهم لغريها من البلاد، ويعتون كل الإعطاء بحفظ مجرى النيل وتنظيم القناطر والجسور والترع والخلجان واستمر الحال كذلك حتى وقعت مصر في قبضة المماليك فكانوا لا ينظرون لعمارها بل يأخذون كل ما طاب لهم وراج في كل عام حتى صارت مصر خراباً وأهمل أمر النيل وترعه حتى كانت الأراضي تفسد في كل عام في كثير من الأقاليم، إلى أن هجمت جيوش رمال البراري على وادي النيل ولو بقي حكم إبراهيم بيك ومراد بيك عشرين سنة لفسدت جميع أرض مصر الزراعية ومن فيها، ولما قبض الله لمصر المرحوم محمد علي باشا أدرك أهمية النيل بالنسبة لمصر وأخذ في إحياء موائها فوجه اهتمامه أولاً إلى إيصال الماء إلى مدينة الإسكندرية لرى ما بينها وبين فرع رشيد من الأراضي.

وصدرت أوامره السنية سنة ١٢٣٣ هجرية الموافقة سنة ١٨١٩ ميلادية بحفر ترعة الحمودية وأن تعمق حتى تجري صيفاً وشتاء وأن توسع بحيث يسهل لجميع سفن النيل منها الوصول إلى المدينة بأنواع المحصولات في زمن قريب بلا كبير مصرف ولا مشقة مع حصول تمام النفع للأهالي وحيواناتهم ومزرعائهم. وكانت قبل ذلك تجارات القنطرة لا تصل إلى الإسكندرية إلا من ثغر رشيد أو دمياط وذلك مستوجب لكثرة المصرف وزيادة المشقة جداً فإن سفر البحر المالح لا يخلو عن الخطر وكانت لا تخلو سنة عن غرق بعض السفن والبضائع والآدميين. ولأهميتها جمع لها عدد عظيم من الأهالي من جميع مديريات القنطرة حتى تمت في أقرب وقت مع الأبنية اللازمة لها وقد بلغ ما صرف عليها إلى تمامها ٣٠٠ ألف جنيه، على ما نقله كلوت بيك، وهذا بالنسبة لما ترتب عليها من المنافع شيء يسير كما هو مشاهد وجعل فيها فمها عند ناحية العطف وكان ذلك سبباً في اتساع عمارة تلك الناحية وكثرة خيراتها، إذ كانت مرسى للسفن التجارية وجعل مصبها بالقرب من الإسكندرية وقد حصل منها منافع جمّة وفوائد عديدة، كأحياء غالب الأراضي التي بجوانبها من العطف إلى الثغر، بعد أن كانت مينة غير صالحة للزراعة ولما اتسع نطاق الزراعة بسببها اتضح عدم كفاية مياه الحمودية بجمعها واحتيج إلى تركيب ابورات العطف، ثم إنه عند

تمام حفرها جعل فى فمها وفى مصبها قناطر كانت مانعة لسفن النيل والسفن الآتية من الخارج من الدخول فيها فكانت التجارة تنقل مرتين عند فمها وعند مصبها وبالعكس.

ولما علم العزيز بأن وجود القناطر ينشأ عنه المصاريف الباهظة التى توجب تأخير تجارة القطر المصرى فضلاً عن المشقة وكان غرضه درء المضار وتذليل الصعوبات، أمر جنابه العالى بإزالة تلك القناطر وصنع هويسات على فمها ومصبها وذلك فى سنة ١٨٤٢ الموافقة سنة ١٢٥٨ هجرية، وسميت هذه الترة باغمودية نسبة إلى السلطان محمود الثانى سلطان القسطنطينية.

وقد شرع العزيز محمد على باشا فى إنشاء كثير من الترع والجسور والقناطر لتعميم الرى وأتم أغلبها، ومن أكثر هذه الأعمال فائدة وأكبرها عادة إقامة القناطر على فرعى النيل المفرقين عند شلقان وذلك أن هذين الفرعين يتكون منهما مثلث وهو الجزيرة المسماة بالدلتا ومنهما تروى عدة مديريات وهى القليوبية والشرقية والدقهلية والمنوفية والغربية والبحيرة إلا أن انتفاع تلك المديريات منهما لا تكون تاماً إلا فى زمن فيضان النيل، أما فى زمن التحريق فمياهما تنصب فى البحر المالح ولا تعود منهما على الزراعة أدنى فائدة ولذلك استصوب المرحوم محمد على باشا إقامة قنطرتين عليهما من أمام شلقان إلى بر المناشى إحداهما على البحر الشرقى والثانية على البحر الغربى، وأن تكون القنطرتان على استقامة واحدة من البرين وأن يبنى رصيف على رأس الجزيرة يكون ابتداءه من الشاطئ الغربى من فرع دمياط وانتهاءه إلى الشاطئ الشرقى من فرع رشيد وأن يكون هذا الرصيف عالياً جداً بحيث لا يرتفع إليه الماء فى زمن الفيضان، وأن يعمل هذه القناطر عيون بأبواب محكمة تغلق وتفتح بحسب الإقتضاء لحبس الماء وإرساله عند اللزوم، وأن يعمل أيضاً لمساعدة القناطر ثلاث ترع (رياحات) كبيرة تكون فوهاتاً من فوق تلك القناطر وإحدى هذه الترع تكون معدة لرى القليوبية والشرقية والدقهلية بغاية الراحة وفرتها من

الشاطئ الشرقي قبلى شلقان، والترعة الثانية تكون فوهتها من وسط رأس الجزيرة أعنى من منتصف الرصيف وتكون معدة لرى المنوفية والغربية، والترعة الثالثة يكون مأخذها من فوق القناطر الخيرية ببر المناشى وتكون معدة لرى مديرية البحيرة، وأن يعمل لهذه الترعة الثلاثة قناطر وعيون بحسب ميزانية الأرض وأن يعمل لها أبواب تقفل وتفتح عند اللزوم فإذا فتحت القناطر الخيرية والرياحات على هذه الكيفية ترتب منه أنه في وقت فيضان النيل تفتح القناطر الخيرية وقناطر الترعة الثلاث لتصريف ما زاد من مياه النيل عن لزوم الرى وفي أيام التحاريق تقفل الأبواب المذكورة قفلاً محكماً فترتفع المياه أمام القناطر المذكورة فنصب في الرياحات وبذلك تزيد فيها المياه أيام التحاريق ويتسع بذلك نطاق الزراعة الصيفية.

ولذلك أمر محمد على باشا ببناء هذه القناطر، وعند وضع أول حجر من أساسها احتفل احتفالاً رسمياً وكان ذلك على ما جاء في كتاب موسيو (وانترييه) في يوم ٩ إبريل سنة ١٨٤٧ بحضور جنتمكان وقناصل الدول وجم غفير من أعيان الاهالى والتجار الوطنيين والأجانب، وعندما تنازل رحمه الله بوضع الطين على الحجر الأول بيده الطاهرة أطلقت المدافع إيذاناً بالابتداء بهذا الفعل العظيم الذى يعود على مصر بما لا يقدر قدره من الفوائد وانتشر البشر والسرور في أنحاء القطر بين الاهالى واستبشروا بالسعادة والرفاهية بسبب هذا البناء، الذى لو لم يكن لمحمد على باشا إلا هو لكفاه فخراً جليلاً ونبلأ جليلاً واستحق من المصريين الشاء عليه والإخلاص له ولعائلته الكريمة وحاشيته العظيمة.

ومن منشآته رحمه الله تلغرافات الإشارات، رتبه الموسيو (ابرو) بمساعدة الموسيو (كوست) بين مصر والإسكندرية في سنة ١٨٢١ ميلادية بناء على أوامر عزيز مصر، وذلك لتصل إليه أخبار جيوشه المشتغلة بقتال اليونان في أقرب وقت وقد جعل لهذا التلغراف ثمان عشرة محطة بنيت فيها الأبراج العالية

وأتى لها بالنظارات والآلات من بلاد أوروبا، وقد تم هذا المشروع حتى وردت الأخبار من الإسكندرية إلى القاهرة وبالعكس في مسافة لا تزيد عن أربعين دقيقة.

* * *

وبالجملة أصبحت مصر ذات بحجة ونضارة وزهرة وغضارة بل أضحى مدينة السلام ودارة الاستسلام ومناراً للعلم وعلماً للحق، فانسق النظام واستتب المرام والتأمت الحال بعد أن استحال وأخصب القطر وأثرى، فزالت فاقته وانتشرت إفاقته واستوفر أسباب التقدم بعد أن أوشكت أركان التمدن أن تنهدم، حيث العزيز (برّد الله مضجعه) برّد الغليل وشق الغلة وآسى القطر بحكمته وأزال العلة فأسرع لمصر الصفاء وتزلف لها غب غيبة وجفاء، وفنى في فنائها الروع وأحييت بها السكينة فأسكنت الربوع وأبید الظلم والميل وكثر لواء العدل الظليل وسوى بين الحقير والجليل، والوضيع والأثيل والدخيل والأصيل، وأحكمت بين مختلف الأقوام غرى التآلف وبنت روح الإنشاء والتحالف، ومُنحت المنح وأُجزلت الجوائز وحفظ العزيز العُرف لذويه وأغضب قلوب أهل الإلحاد وموازريه وكان جميل صنعه وجليل مصطنعه سُلماً، إلى ملتصمه وبلاغاً لمبتغاه، فهادته صروف الزمان وتحطته حوادث الحداث ولوت عنه عوادى الملوان وغفر للذهر هفواته وعفى عنه من زلاته بعد أن انتهى لجنايه حلّ الأمور وعقدُها وفتحها ورتقها، وعانى المشقات بعوالى الهمم وحى وطيس الحروب واحتدم، وطهرت البلاد من العائين ووطد أركان الأمن باستئصال جرائم المفسدين ومثلّك المقسطين أزمة الأحكام وقد هامت الظالمين بصمصام الانتقام حيث كانت لهم سطوات وصولات ووقعات وبطشات فكانوا أحكموا أسباب الوقاحة وقطعوا أوصال السماحة وملئوا أطناب المظالم وأطنبوا في بث الخارم، وعمدوا إلى استعباد المصرى فكان عميداً وأثقلوا كاهله بالبلايا حتى صار سيده ونيذاً، ولجّوا في غلواتهم واستمروا في جهالاتهم وتهافوا في ضلالتهم وجعوا في غواياتهم فكان تاريخهم نوادر مساءات وبيادر سوات ولكن أبى الله

إلا أن مرضت أهواؤهم وتصرمت علاقاتهم وانبتت أواخيههم ورث عهد شوكتهم ووهن زمام صولتهم بمصاليات الجند وصناديد العزيز في ذلك العهد إذ أعملوا عوامل الفتك، وشحذوا أسنة البتك وإن شئت فقل كانوا حُماة الإنسانية وذاقوا ورعاة المروءة وكيبتها، كل ذلك بتدبير وإشارات العزيز كوكب عصره وفريد دهره والأقوام، ومنبتت العدالة والنظام مُمدن مصرنا وعزيزها الأول وقد خلفه خلف أضاعوا بقية الفضائع وآثروا إحقاق فآودوا الشبهات بحججهم القواطع، فأصبح الناس يحمدون غب السرى ويتناقلون صحف اليمن والأمان بلا امترا^(١)، حتى لبوا أريكة الملك خير مملوك على التحقيق، ألا وهو خديوينا الداوري الأكرم (محمد باشا توفيق) فآتم للنظام مُعداته وشيد للعلم مناراته وأكمل للعدل منصاته وأسبغ للإرتقاء لُباناته، حتى أجمعت القلوب على محبته وولائه بما أفعمها سروراً من عواطفه السنية وآلائه وأنعشها بإبادة غواشي الدهر وبأسائه، فقد بلغ بمصر من المتولة غاية ليس وراءها مُطلع لناظر حتى ساوت سواها من الأمم المُعجبة بالمدينة في ميدان الرفاهة والتفاخر، سيما في عصر الوزارة الوطنية الخضة الرياضية أبيات النفوس العصامية حيث صرفت في بلوغ القطر أمنيته عنايتها وبذلت في تقدّمه جهدها المستطاع ورعايتها، وحفظت لأبنائه حقوقاً طالما ماطلها فيها السّهر وانتقت للهيئة الحاكمة رجالاً ازدهى بمآثرهم تاريخ هذا العصر غُذوا بلبان الحكمة فأخاهم الإخاء وغنوا بالعدالة فصافاهم الصفاء فمتع اللّهم مصرنا بشמוש علا التوفيق وأتمجاله الفخام وأمتعته بدوام وزارها الخالية وأيدّ مناصب رجالها البررة الكرام، وأفض على قطرنا من قطرات فيوضاتك الإلهية وأمنحنا جميعاً من لحظات عنايتك الصمدانية ما يعضد آمالنا وينحج أعمالنا لنحظى بمروضاتك في الحال ولنفوز بتسزل رُحماك في المآل.

وإلى هنا أمسكت عنان الراع واقتصرت من الجُلّ على القُلّ بل على البعض من الكلّ وجعلت هذه العُجالة سهلة المآخذ لمن رام الإطلاع على مناقب جمعت

(١) هكذا في الأصل (المعز).

شتاقًا من مفارقات الرقاع ما بين غربية وشرقية، وعربية وأعجمية، وتحاشيت فيها عمدًا عرب مناه وعزب مغزاه، وليس قصدي أن يقال فلان ألف، وصار له في كتيبة الكتب مؤلف، وإنما هذه خدمة لوطى الأعز الأغر، حملنى على القيام بما حثيه الصادق الأبر، ومع ذلك أرجو إقالة عنارى عند العثور فيها على السقط، وأذكر أيها المطلع (من ذا الذى ما ساء قطع)، أحسن الله لنا خواتيم الأمور، بجاه خاتم المرسلين وصلى وسلم عليه وعلى إخوانه النبيين وآله وصحابه الأكرمين والتابعين وتابعهم إلى يوم الدين ما جمع كاتب بين حرفين، وبلغ الكمال المطهر من التشيع والمين.. آمين.

* * *

تذييل: تقرّيط الكتاب*

(يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة البهية ببوراق مصر المعزية الفقير
إلى الله تعالى محمد الحسينى أعانه الله على أداء واجبه الكفائى والعينى)

سبحان من جعل حوادث الأولين عبرة للآخرين وأحوال الماضين عظة
وإرشاداً للغابرين يتفكرون فيما كان لهم من معالى الأمور فيأتسون ويتدبرون ما
أخنت به عليهم الدهور فيتعظون، لهذا كان علم التاريخ من أجل العلوم التى لها
فى نفوس العقلاء أعظم وقع والفنون التى بها للإنسان أكبر نفع، فاعتنى به
العقلاء ودوّن فيه النبلاء والفضلاء وكان ممن حذا هذا الحذو ونحا هذا النحو
الشباب النبیه النبیل، والفطن الأريب الجليل، الفائق بذكائه على أقرانه، الكامل
فى أخلاقه وجمع شأنه ذو الطالع السعيد حضرة محمد بيك فريد نجمل ذى
الكمالات التى لا تحصى والمزايا الحسنة التى لا تستقصى، صاحب المهمة العلية
والأخلاق البهية الذى زادت به روح الحكومة المصرية انتعاشاً، ذو السعادة
ناظر الدائرة السنية الآن أحمد فريد باشا أدام الله مجده وأكمل سعده، فإن
حضرة البيك حفظ الله طلعه وأزهر نبته ألف هذا الكتاب الذى كأنه
الجوزاء والثريا حسناً وفاق غيره بلطفه الأسنى المسمى (البهجة التوفيقية فى
تاريخ مؤسس العائلة المحمدية العلوية) سفر أسفر لنا عن بعض آثار أصل هذه
العائلة الشريفة المرحوم محمد على باشا، ذى المزايا البارة النيفة، ونجله البطل
الهمام إبراهيم باشا الأسد الضرغام ورجاله الفقاه، وكشف لنا عما قاسوه من
المشاق المهولة والمصاعب الشديدة وقطعوه من كل عقبة كؤود فى حضرمهم
وأسفارهم البعيدة، حتى ذلّلوا فى ملك مصر كل شامس وقيدوا كل شسريد
وقربوا مما لم ينله غيرهم فى إصلاح هذا القطر كل بعيد، قصموا كل صنديد
بسياف السطوة والجلوة، وقطعوا كل جبار عنيد بسهام الجرية والصولة حتى
غدت مصر بهم آمنة من صيال الصائل، لا تخشى اختلاس لصل ولا اغتيال

* وضعنا هذا الخوان من عندنا لأنه يقرى على تقرّيط الكتاب وقرأنا نشرها ليكون للكتاب كاملاً (المحرر).

الغافل، فإيا له من كتاب ما أرق لفظه وأدق معناه، وما ألطف تشييده وأمكن عبثه ولما بلغ من الحسن غايته ومن جودة التأليف غايته، انتهض مؤلفه حفظه الله لطبعه على ذمته، رغبة في عموم نفعه بالمطبعة الزاهية الزاهرة ببولاق مصر القاهرة فأنتهى طبعه بحمد الله على هذا الوضع اللطيف والشكل الظريف، في ظل الحضرة الفخيمة الخديوية، وعهد الطلعة المهيبة البهية التوفيقية حضرة من أجرى أمور رعيته على فحج السداد، قبلغوا من الثروة والرفاهية غاية المراد، وسلك في إصلاح أحوالهم سبيل الرشاد، أدام اللهم سذته ملتئم الشفاء ومأمن كل خائف أواه، وأطل بقاء حضرات أنجاله الكرام وأشباهه الفخام، ملحوظاً هذا الطبع بنظر من عليه جميل أخلاقه بمزيد اللطف يثني حضرة وكيل الأشغال الأدبية محمد بك حسنى، وكان تمام طبعه وكمال ينعه في أواخر رجب الفرد من هجرة سيد الأولين والآخرين صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

* * *

وقد قرّظه الأستاذ الفاضل الشيخ طه محمود قطارية الدعايطي أحد فضلاء المصححين بهذه المطبعة مؤرخاً عام طبعه فقال:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اللهم) إنا نحمدك على نعمك ما ظهر منها وما بطن لاسيما نعمتى الإيمان والأمان في الوطن ونصلى ونسلم على سيدنا محمد أفصح الناس لهجة، السدى جاء للعيون بالقرّة وللوجوه بالبهجة وعلى آله مفاتيح النعمة وأصحابه مصابيح الظلمة (أما بعد) فإن أقوى دليل على رسوخ قدم التمدن الآن بين المصريين وأن الله زادهم بسطة في العلم وكساهم جلايب السعادة في هذا العصر التوفيقى الذى أخذت فيه الأرض زخرفها وازينت ما نراه من اشتغال الناس كافة بأسباب التقدم وإكبابهم على وظيفتى التعليم والتعلم وتدوينهم للكتب في جميع الفنون، اتحد في ذلك صنيعهم واستوى في سلوك هذه السبيل شريفهم ووضعهم، فكلهم على هذا المتوال ناسج ولهذا الباب والى، بعد أن كان حى

العلم بينهم مقبوراً وحى الآداب عنهم حجراً محجوراً، وظاناً أصبح الكتاب وهو فيهم شيء لا يذكر والمؤرخ أعز من الكبريت الأحمر، أما اليوم فإنك لا تشاء أن تمر في طريق إلا رأيته مزدحماً بشيوخ وشبان كلهم من ذوى العلم والعرفان، ومن سلك من أبناء مصر في هذا العصر هذه السبيل مؤلف التاريخ الجليل المسمى (البهجة التوفيقية) وهو الأمير ابن الأمير (محمد بك فريد) جاء في تاريخه هذا بما يشرح الصدور من أبناء عزيز مصر ومحى مواقم الحاج محمد على باشا روح اللهم روحه واجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحة، وأجزه عن المصريين خيراً، جمع فيه محاسن أعماله التي أخرج بها مصر وأهلها من ظلمات الجهالة والخوف إلى نور العلم والأمن واستأصل برأيه السيد وبأسه الشديد شأفة الطائفة العاسفة التي سلطها الله على مصر ما شاء أن يسلطها، ثم جعل حثفها على يد هذا الحديو الكبير، الذي لم يسمع الزمان له بنظير وهذه الأعمال الخيرية والهمة العلية العلوية هي التي بعث هذا المؤلف المهام لتأليف هذا التاريخ ونشره بين الأنام ليتدبر أولو الألباب إذا وقفوا على هذا الكتاب ويعرفوا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها إذا علموا أن مصر لم تكن لتصلح للسكنى قبل جدّ العائلة المحمدية كما يشهد بذلك آباؤنا والكتب التاريخية وما زادني سروراً أن مؤلفه "حفظه الله" قام بطبعه وتعميم نفعه.

ملحق

صفحات من الطبعة الأولى للكتاب

كتاب

(البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية)

تأليف

حضرة الزكي الاملي ذي القبول السيد محمد بك فريد
وكيل دارالامانة السنية وأحد
أعضاء الجمعية الجغرافية
الخديوية

ليس بانسان ولا عالم • من اربع التاريخ في صدره
ومن درى احوال من قدمنى • اثنى اهل الى ع-هـ

﴿حقوق الطبع محفوظة مؤلفه﴾

(الطبعة الاولى)

الطبعة الاميرة بولاق مصر المحمسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل فن التاريخ عربيا فاعتبره وتصرفنا نأخذ وأذكر والصلوة والسلام من الملائكة والسلام على نبينا محمد سيد ولد عدنان القائل حب الوطن من الايمان صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعترته وحزبه من خاضوا الليالي والقنابر حتى جاء تاريخهم من أحسن الآثار ﴿أما بعد﴾ فأقول وأما المتوكل على مولاي naïبى المديد عبده محمد زبد غفر الله له ولوالديه ولأرباب الحق وقوله لما كان فن التاريخ قوامه وتاريخه وعمراته منحة فخر علمه من كوارث الأزمان والأوقات وتكشف عن وجوه الحوادث فتعاقب الشبهات فلكثرة تنوعه وعظم رقبته كئنه في الكتاب المبين أسهل قوى متين قال الله تعالى يا أهدى الكذاب لم تخافون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده فلا تعلمون استدلى على بطلان دعوى اليهود في إبراهيم أنه يهودى وبطلان دعوى النصارى أنه نصرانى بأن التوراة والإنجيل انما أنزل من بعده ولهم الحجة البالغة والحكمة الدامغة اذ لو لا التاريخ لم يكن الدليل ومات في الأيام لا تخرد ذكر الاول عن الجمع فله بناء على وكاد صنعنا على أن أولئك في وطني العزيز لم يخفوا تاريخه وجيز يدل على فضلهم حتى تكمن محمد على باشا الكبير على الثاني من هؤلاء كبريائوس لدارنا المصرية وأنهم رندس لخطبنا في النبيلة على أحسن الوجوه كما يشهد بذلك الوجوه بزاد الله مغبته وجعل في رياض النعيم مرتبه وحيث كتبت عن تربي في المدارس الخديوية ذات الشهرة المرضية رأيت أن أعني بآليف هذا الكتاب بما

وذكره القسيسة المصرية لساراهما بين السكان بنون شرط الى مستخدمهم ثم انزعما بين
 الاولى بالحكومة المصرية وقشداً نراعى عوائد البلاد وطباع أهلها ثم تصلح كيفية
 ضرب الاموال وتوزيعها على الاعالي شيئاً لئلا يجهل لاجوز من جهة أخرى أن الامة
 المصرية تقوم بكافة مصاريف الجيش والادارة مع ما على عليم من النافعة والفقر المدقع
 الناشئ من تسلط الممالط عليها أحقاباً للمالية بل من العدل أن كلاً من الامتين الشامية
 والمصرية يشترك في مصاريف ما يلزم للحكومة كما أنهم ساء شتر كان في التمتع بخصايتها
 والاستقلال بظلال الأمن الشامل للولايتين وعلى كل حال لم تصادف الادارة المصرية في
 تحصيل هذه الضريبة من الصعوبات ما لا تقع في ادخال الشاميين في الخدمة العسكرية
 فانه أدخل منهم في الجيش المصري ثمانية عشر ألفاً ما بين دروز ورومانه ومسلمين وغيرهم
 من كل الشعوب والاجناس وخو الامر الذي ازداد تبه كراهة الشاميين للادارة المصرية
 وذلك لان الدولة العثمانية ما كانت تدخلهم في العسكرية كرجال كانت تتكفي عن إدخال
 باختيار من سكان جبل لبنان وكان يندرج منهم سنوياً في الخدمة العسكرية ألف لا غير
 ومما كان سبباً في زيادة كراهة الشاميين للامنة المصرية عدم الانضمام في أخيراً للشبان
 كما هو جار الآن في مصر وسائر الدول المتخذة بان يخدم الشاب مدته مينة ثم يعود الى
 أوطانه ويكون أخذ بطريق القرعة مع المساواة بين كل الافراد بل كانت الطريقة
 المتبعة في أخذهم أن يدخل الضابط المعين لذلك في القرى ويختطف الشبان بالقوة ويرجم
 يتم ذلك الابداء مقاومة عنيفة يكون من ورائها أحياناً قتل بعض من القرهيين ولقد ذكر
 أحد من كانوا في معية البرنس (دى جواشيل) نجل (لويس فيليب) ملك فرنسا حين كان
 سائحاً في البلاد الشامية أثناء احتلال المصريين لها أن الحرس الذي كان معينا لحراسته
 أنما جولانه في جبال لبنان كان كلما يرى في طريقه شاباً قوى البنية صالحاً للخدمة
 العسكرية يخطبه وأمره مع بعض الجنود الى أقرب ألى ليخضع به دون أن يعلم آثاره بذلك
 ولا غرامة في مثل هذا فان هذه الطريقة كانت متبعة في مصرنا أيام محمد علي باشا ومن
 بعده ولم يتطلى الامن عهد قريب
 ولقد قال المصريون انذاك وعدم تهاونهم في المجازاة على أقل عصيان بأشد العقاب لم يحسر

(عاشرة)

﴿فيما له محمد علي باشا من الإصلاحات والتأسيسات﴾

إن أول ما نشر فيه محمد علي باشا رحمه الله عند مصر من الإصلاحات ليعيد العلم بجدها
الأميل تأسيس المدارس لثب العلم والمعارف بين المصريين الذين جروطنهم العلم
فأخذ العزيز في إحياء المدارس بهدأت كانت فتح ادوا رس وأعاد العلوم إلى وطنهم وأمر بإدخالها
ليستفاد من مدارسها فأسس مدرسة الطب بأبي زعبل بناء على طلب الدكتور كاوت بيك
الفرنساوي سنة ١٢٤٢ هجرية وأنشأ بها بالاساتذتين البلاد الاورباوية وذلك أن
كاوت بيك أظفر لمحمد علي باشا احتياج البلاد لتأسيس هذه المدرسة لتستغنى عن الأطباء
الاجانب وليوجد عصر أطباء كفاية للجيوش البرية والبحرية وقدم له بذلك تقريراً مفصلاً قال
في آخره يجب أن يكون بمصر مدرسة طبية تكون تلامذتها من الوطنيين المخلصين الذين
يفارون على بلادهم ويحبون تقدم وطنهم وارتقاءه في سلم التقدم والعمران وتوصل لذلك
بإنشاء اسبئالية عمرية يتعلم فيها ما نة وخجون شباباً من أهم الماهم معرفة اللغة العربية قراءة
وكلمة ومبادئ الحساب ويلزم أن تدرس لهم اللغة الفرنسية وأنواع الطب وفروعها
الجراحية وتكون مدة الدراسة أربع سنوات يحتسب التلامذة في آخر كل سنتينها فاسر الباشا
من هذا المشروع وأصدر أوامره بتأسيسه وجعله تحت رعاية كاوت بيك

وجعل أيضاً مدرسة للطب البيطري وولى رياسته الموسيودامون فرنساوي ومدرسة
الهندسة فاختاره ورئيساً له (الاميريك) فرنساوي ومدرسة لآوسقي وأخرى لتعليم النافع
والننون وهذا كله غير المدارس الابتدائية والتجهيزية التي أنشئت في أنحاء القطر
المصري ومدرسة اللسان بنه على طلب العالم الفاضل رفاعة بيك فقد جاء في الخطط
المصرية لعل باشا مبارك في ترجمة البيك ناء كورمائه

عرض رفاعة بيك الجناب العالي أنه في امكانه أن يؤسس مدرسة لتعلم اللغات الاورباوية
ويمكن أن ينتفع بها الوطن ويستغنى عن التخلييل فأجابته الى ذلك ووجه به الى مكاتب
الاقليم لينتخب منها من التلامذة ما يتم به المشروع فأسس المدرسة وفي السنة العاشرة

فهرست كتاب البهجة التوفيقية

صفحة	صفحة
٧١ عزل الشيخ الدواخلي	٥ محمد فريد و كتابه عن محمد على
٧٢ سفر إبراهيم باشا إلى الحجاز	٢٧ نص كتاب البهجة التوفيقية
٧٥ فتح الدرعية وتسليم عبد الله بن سعود	٢٩ تقديم المؤلف
٧٧ موت طوسون باشا	٣١ ١- المقدمة: مجي محمد على إلى مصر وتوليته
٧٩ ٤- توجة سليمان باشا الفرنساوى	٣٢ مجي محمد على باشا إلى مصر
٩٠ وصول سليمان باشا إلى مصر	٣٧ تعيينه والياً على مصر
٩٥ رجوع سيف إلى مصر	٤٣ ٢- دخول الإنكليز مصر
٩٩ دخول سيف في الديانة الإسلامية	٤٤ واقعة رشيد
١٠١ ٥- فتح السودان	خروج الإنكليز من مصر ١٠ رجب سنة
١٠٥ سفر ابراهيم باشا إلى السودان	٤٨ ١٢٢٢ (٤ سبتمبر ١٨٠٧)
١٠٦ موت إسماعيل باشا ابن محمد على باشا	٤٩ ٣- حرب الحجاز
١١١ ٦- حرب اليونان	٥٣ واقعة القلعة
١١٩ حصار ناوارين	٥٨ سفر محمد على باشا إلى الحجاز
١٢٤ فتح مدينة كلاماتا	٥٩ القبض على الشريف غالب
١٢٤ فتح تريبولسا	٦٦ عمرد لطيف باشا
١٢٦ فتح مدينة ميسلونجي	٦٨ عصيان الجند بالقاهرة
١٢٨ فتح العثمانيين مدينة أثينا	٦٩ رجوع طوسون باشا إلى مصر
١٣٩ تدخل الدول	٧٠ حبس المعلم غالى

١٨٩	علي باشا	١٣١	واقعة ناورين البحرية
١٩٢	تداخل الدول	١٣٣	رجوع ابراهيم باشا إلى مصر
١٩٩	٨- معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠	١٣٥	٧- حرب الشام
٢٠٢	إطلاق المدافع على موانئ الشام	١٣٩	حصار عكا
٢٠٥	إخلاء المصريين لبلاد الشام	١٤٠	وصول عبد الله بن سعود إلى القاهرة
٢١٤	زيارة البوك دي مونبانيه لمصر	١٤٠	انتصار المصريين بقرب حمص
٢١٩	٩- رحلة ابراهيم باشا إلى أوروبا	١٤١	فتح مدينة عكا
٢٣١	سفر ابراهيم باشا إلى انكلترا	١٤٢	انتصار المصريين بقرب حلب
٢٣٥	عودة ابراهيم باشا إلى مصر	١٤٤	واقعة بيلان
٢٣٧	وفاة ابراهيم باشا ووالده	١٤٦	واقعة قونية
٢٤١	١٠- خاتمة: إصلاحات محمد علي باشا	١٥٠	تداخل الدول
٢٦٢	ملحق: صفحات من الطبعة الأولى	١٥٢	عصيان أهل الشام أول مرة
	الفهرس	١٥٥	عصيان الشيخ قاسم وأبو غوش
		١٥٨	سفر محمد علي باشا إلى الشام
		١٦٠	اقتداء ابراهيم باشا أثر الشيخ قاسم
		١٧١	سفر محمد علي باشا إلى بلاد السودان
		١٧١	عصيان أهل الشام ثاني مرة
		١٧٤	واقعة نصيبين

Bibliotheca Alexandrina



0541877



مطبعة الكتاب والورقة

